



جامعة النجاح الوطنية

كلية الآداب

يهنم القدس

الندوة الرابعة 27 - 28 أيار 1998

تحرير :

د. خليل عوده

د. محمود عطا الله

١٤٧

المختويات

الموضوع

تقديمه

مؤلفه : د. خليل عوده

رأسية : ٢٠١٦

مقيمتها : ١٤٧٧

يوم القدس

الندوة الرابعة

٢٧-٢٨ أيار ١٩٩٨

مكتبة جامعة النجاح الوطنية

NL172737

تحرير :

د. خليل عوده

د. محمود عطا الله

المحتويات

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة الندوة الرابعة
٧	وقائع أعمال الندوة
١١	كلمات الافتتاح
٢٧	إبراهيم الفني القدس مدينة الستة آلاف عام من الحضارة
٣٥	خالد زنيد المقدسي - حياته ومنهجه
٥٣	جبر خضير مفهوم الجهاد عند صلاح الدين
٦١	طارق فتحي الديلمي تحرير القدس في عهد صلاح الدين الأيوبي وانعكاساته على الوضعين العربي والأوروبي
٦٥	أحمد العلمي حول صلاح الدين وحملته
٦٧	عليان الحولي تاريخ التعليم في القدس
٧٧	حاتم محاميد التطورات في التعليم والمدارس في القدس خلال العصرين الأيوبي والمملوكي

مكتبة

مركز التوثيق والمخطوطات والنشر

رقم التسلسل : ٩٨٠٩

رقم التصنيف : ٩٥٦,٤٩٤

٩٥٦,٤٩٤

ندوة

القدس - تاريخ : ١٩٩٤

مركز التوثيق والمخطوطات والنشر

مركز التوثيق والمخطوطات والنشر

العمارة العثمانية في مدينة القدس

عبد الرحمن المغربي
طائفة المغاربة بين الواقع والطموح

عباس نمر

دير ياسين في أتون المعركة

أكرم زهران

الجغرافيا السياسية لمدينة القدس

أحمد السعدني

ثلاث رؤى حول إيقاع الذاكرة وصدى المكان "فلسطين - ٤٨"

لطفي زغلول

نحن والقدس والآخرين

وليد سالم

ملاحظات بشأن العمل الوطني الفلسطيني في القدس من ٦٧ إلى الآن

محمد نصر الدين مهنا

مشكلة فلسطين أمام الرأي العام العالمي ١٩٤٥ - ١٩٦٧

مُتَكَلِّمَةٌ

الندوة الرابعة ليوم القدس

في كلية الآداب - جامعة النجاة الوطنية

أ. د. رامي حمد الله

رئيس الجامعة

تحتل مدينة القدس مكاناً مميزاً في نفوس العرب والمسلمين فهي مدينة السلام والمحبة، مدينة الأقصى، وقبة الصخرة، مدينة التاريخ الإسلامي العريق الذي يزرع نفسه بقوة في كل شارع من شوارع القدس، وكل حجر من حجارته المقدسة، وكل أثر من آثارها، وهي المدينة التي تهفو إليها نفوس المسلمين، وتشد إليها الرحال من كل أنحاء العالم.

ومدينة بهذا التميز تستحق منا كل الاهتمام، وتدفع بنا إلى أن نقيم لها يوماً في جامعة النجاح الوطنية، يجمع نخبة من المفكرين والباحثين لتدارس وضع المدينة المقدسة من جميع جوانبه التاريخية والأثرية والأدبية والدينية والعمرانية والقانونية، وهذا أبسط ما يمكن تقديمه في ظل ظروف استثنائية يرتفع فيها صوت القوة، ويخفت صوت الحق، ولا يبقى أمام المؤسسات الأكاديمية إلا أن تجتمع على كلمة سواء، تضع تصوراً لما يمكن أن يكون عليه الحال، أو نبتغيه لمدينة أدامها الجرح، وعصفت بها تيارات الحقد من كل جانب، وتنتظر منا أن نضمد جراحها بالكلمة إن لم نقدر بالفعل، وبالهمسة الصامتة، إن لم نقدر على الجهر بالقول.

وإذا كانت ندوة القدس الرابعة قد اختتمت أعمالها بإصدار هذا الكتاب الذي يحوي الأعمال التي قدمت، وإذا كانت كلية الآداب تستعد لعقد الندوة الخامسة ليوم القدس، فإنه يسرني أن أقدم الشكر والتقدير لجميع الباحثين الذين تكلفوا عناء البحث، وأثروا الندوة بخلاصة فكرهم، وعظيم جهودهم، محتسبين الأجر عند الله أولاً، وعند أبناء شعبهم ثانياً.

كما يسرني أن أقدم الشكر لكلية الآداب التي تحرص على تواصل عقد ندوة القدس في كل عام، وإلى اللجنة التحضيرية التي أعدت ونظمت لهذا اليوم على أرض جامعة النجاح الوطنية.

وقائع أعمال الندوة

عقدت الندوة الرابعة ليوم القدس في يومي الأربعاء والخميس، السابع والعشرين والثامن والعشرين من أيار عام ثمانية وتسعين وتسعمائة وألف، وبدأت الندوة بجلسة افتتاحية ترأسها الدكتور خليل عوده عميد كلية الآداب، وبعد قراءة آيات من القرآن الكريم، ألقى سعادة الأستاذ عبد الغني عنبتاوي رئيس مجلس أمناء جامعة النجاح الوطنية، كلمة الافتتاح فأشاد بدور الباحثين المشاركين في أعمال هذه الندوة، وأثنى على الجهد الذي تقوم به عمادة كلية الآداب من أجل القدس في هذا الوقت الذي تتعرض فيه المدينة المقدسة لمحاولات طمس هويتها، والنيل من صمود أبنائها.

وتحدث بعد ذلك الأستاذ الدكتور إبراهيم الخواجا، الأمين العام المساعد لاتحاد الجامعات العربية، فقدم شكر اتحاد الجامعات العربية لجامعة النجاح التي تحرص في كل عام على عقد ندوة يوم القدس، وأشاد بدور الباحثين في تعميق المفاهيم الوطنية والتاريخية لمدينة القدس.

وتحدث بعد ذلك الدكتور حسن السلواوي عميد كلية الآداب بجامعة القدس، ممثلاً عن المشاركين في أعمال الندوة، فقدم الشكر لجامعة النجاح على استضافة أعمال هذه الندوة، وتحدث عن دور الباحثين الفلسطينيين في إظهار الوجه الحقيقي لمدينة القدس، والتأكيد على عروبتها من خلال النظرة الموضوعية لحقائق التاريخ. وبعد كلمات الافتتاح واستراحة قصيرة؛ بدأت جلسات العمل في اليوم الأول من أيام الندوة في السابع والعشرين من أيار عام ثمانية وتسعين وتسعمائة وألف، وكان عنوانها : الجذور والنشأة، وأدار الجلسة الدكتور ماهر أبو زنت.

وشارك في هذه الجلسة :

١. د. إبراهيم الفني، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" القدس عبر التاريخ "

٢. د. يونس عمرو، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" القدس منذ النشأة حتى الإسلام "

٣. السيد محمد زياب أبو صالح، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" القدس قبل الإسلام "

٤. السيد جميل عبد الرحيم حمامي، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" الجوانب الدينية والسياسية لمدينة القدس "

٥. د. محمد الشريدة، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" إسلامية بيت المقدس "

٦. السيد لطفي زغلول، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" نحن والقدس والآخرون "

وبعد المناقشة واستراحة قصيرة عقدت الجلسة الثانية بعنوان : جغرافية

القدس، وترأسها الدكتور جلال قزوح، وشارك فيها كل من :

١. د. خالد أبو زنيد، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" المقدسي حياته ومنهجه "

٢. د. أكرم زهران، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" الجغرافية السياسية لمدينة القدس "

٣. السيد عباس نمر، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" دير ياسين "

وبعد استراحة قصيرة بدأت أعمال الجلسة الثالثة، بعنوان : القدس الأيوبية،

وترأسها د. محمود عطا الله، وشارك فيها كل من :

١. د. أحمد العلمي، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" حول صلاح الدين وحملته "

٢. أ. جبر خضير، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" مفهوم الجهاد عند صلاح الدين "

٣. أ. حاتم محاميد، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" التطورات في التعليم والمدارس في القدس خلال العصرين

الأيوبي والمملوكي "

٤. د. عليان الحولي، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" تاريخ التعليم في القدس "

وفي يوم الخميس عقدت الجلسة الأخيرة من جلسات الندوة بعنوان : القدس

في العصر الحديث، والقانون الدولي، وشارك في الندوة كل من :

١. د. أكرم عدوان، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" القدس في لجنة بيل الملكية لتقسيم فلسطين ١٩٣٧ "

٢. أ. وليد سالم، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" ملاحظات بشأن العمل الوطني الفلسطيني في القدس عن ٦٧

إلى الآن "

٣. أ. عبد الرحمن المغربي، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" طائفة المغاربة في بيت المقدس بين الواقع والطموح "

٤. أ. يوسف الننتشه، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" قبور باب الخليل بين الحقيقة والخيال "

٥. أ. محمد غوشه، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" من آثار القدس العثمانية "

٦. د. حسن السلواي، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" ادعاءات السيادة الإسرائيلية على القدس بين الوهم والواقع "

٧. د. عبد الله أبو عيد، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" الوضع القانوني لمدينة القدس ومواطنيها "

٨. د. حسام التميمي، وقدم ورقة عمل بعنوان :

" الصورة الشعرية في شعر القدسيات زمن الفتح "

وبعد انتهاء جلسات العمل، والمناقشات، صدرت عن المشاركين في الندوة

التوصيات الآتية :

١. ضرورة تعزيز عملية البناء للإسكان في القدس وضواحيها.

٢. ضرورة السفر للقدس بطرق شتى للحضور والمشاركة في الندوات والمؤتمرات

التي تعقد هناك. والزيارة والصلاة في الأقصى دوماً.

كلمات الافتتاح

٣. العمل على عودة المؤسسات الفلسطينية للقدس.
٤. العمل لبناء مدن فلسطينية لتسكين العائدين قرب القدس وذلك لوقف توسع القدس الكبرى الإسرائيلية على حساب أراضي وطننا.
٥. تحقيق التلاحم بين القيادة والمواطنين في عملية مجابهة التوسع الاستيطاني في القدس.
٦. الطريق إلى تحرير بيت المقدس لا يتم إلا عبر حشود فلسطينية وعربية وإسلامية.
٧. دعوة العرب والمسلمين لتحمل مسؤولياتهم التاريخية والدينية لتخليص القدس وفلسطين من اليهود.
٨. حق المغاربة في ملكية ساحة أبو مدين التي يقف عليها اليهود للصلاة، ومناشدة الملك الحسن الثاني بمطالبة الحقوق المغربية في أملاك المغاربة في القدس.
٩. ضرورة إرسال برفقة للرئيس الأمريكي صادرة عن ندوة يوم القدس بأن القدس ليست عاصمة لإسرائيل.
١٠. استعمال كلمة المصيبة أو الكارثة بدلاً من كلمة النكسة.

السيدات والسادة :

يسرنا في كلية الآداب بجامعة النجاح الوطنية أن نرحب بكم في ندوة يوم القدس الرابعة التي احتفلت كلية الآداب على عتباتها في كل عام إيماناً منها بأهمية هذا اليوم الذي نتواصل فيه مع عاصمتنا الفلسطينية. مع القدس تبقى دائماً في بؤرة الإنسان والشعور الفلسطيني. حياً وأملًا يسبق خيال الشعراء، وروى المفكرين.

وبلني عقد هذه الندوة مترامناً مع احتفالات القدس التي تقام طمس جراح شعبنا الفلسطيني، ومهرجانات القدس بتأليفها ومسرات الفرح المزجج بوقاحة من لا يهالي بالحزان الآخرين.

(١) الأستاذ الدكتور منار صلاح وزير التعليم العالي
رئيس الجامعة العالي هو الأستاذ الدكتور رامي حداد الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة عريف الحفل

د. خليل عوده - عميد كلية الآداب

سعادة السيد الأستاذ عبد الغني عبتاوي رئيس مجلس أمناء جامعة النجاح الوطنية راعي هذا اليوم

السيد الأستاذ الدكتور إبراهيم الخواجا الأمين العام المساعد لاتحاد الجامعات العربية السادة أعضاء مجلس أمناء الجامعة

السيد الأستاذ الدكتور منذر صلاح رئيس الجامعة (*)

السادة نواب الرئيس وعمداء الكليات، ومديرو الدوائر وأعضاء هيئة التدريس

السيد د. حسن السلواي ممثل المشاركين في الندوة

الزملاء المشاركون من الجامعات الفلسطينية والعربية

الضيوف الأكارم

السيدات والسادة :

يسرنا في كلية الآداب بجامعة النجاح الوطنية أن نرحب بكم في ندوة يوم القدس الرابعة التي اعتادت كلية الآداب على عقدها في كل عام، إيماناً منها بأهمية هذا اليوم الذي نتواصل فيه مع عاصمتنا الفلسطينية. مع القدس لتبقى دائماً في بؤرة الإحساس والشعور الفلسطيني، حلمًا وأملًا يسابق خيال الشعراء، ورؤى المفكرين.

ويأتي عقد هذه الندوة متزامناً مع احتفالات الرقص التي تقام على جراح شعبنا الفلسطيني، ومهرجانات التلذذ بعذاباتنا، ومسيرات الفرح الممزوج بوقاحة من لا يبالي بأحزان الآخرين.

(*) الأستاذ الدكتور منذر صلاح وزير التعليم العالي

ورئيس الجامعة الحالي هو الأستاذ الدكتور رامي حمد الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة السيد عبد الغني عنبتاوي

رئيس مجلس أمناء جامعة النجاة الوطنية

السيد الأمين العام لاتحاد الجامعات العربية

الأخوة والأخوات الحضور

يسرني بدايةً أن أرحب بكم جميعاً في جامعتكم، جامعة النجاح الوطنية، وأن
أشكر لكم حضوركم أعمال هذه الندوة التي تقيمها كلية الآداب للسنة الرابعة على
التوالي في رحاب هذه الجامعة، ويأتي انعقاد الندوة الرابعة في هذا الوقت بالذات،
إيماناً بأن القدس لا يمكن أن تُنسى، أو تُترك لغير أهلها، مهما كبرت احتفالات
الآخرين بها، وتعاضمت وسائل الهيمنة عليها، فقد علمنا التاريخ أن الحقوق لا تكون
لغير أصحابها، وأن القوة لا تكسر إرادة الشعوب، وعلمتنا الأيام حكمة الفرج مع
الصبر والنصر مع الإرادة.

لقد سمعنا وسمع العالم بأسره عن مسيرات تقام تحت مسميات توحيد المدينة المقدسة، وتحريرها، ولا أبسط من أن نسأل كيف تحرر مدينة من أهلها، وكيف تسرق المقدسات من أصحابها، وكيف يُزرعُ الناسُ على أنقاض الناس، إنها سياسة الغاب في زمن هيمنة القوة، وغياب الحق، زمن نشوة الظالم بظلمه، والقاتل بمن قتل.

أما نحن فسنظلُّ على الوعدِ والعهدِ اللذين بهما نسمو فوق جراحنا، ونكبرُ مع عمقِ مأساتنا، ولن نثنيها شدةَ الأيامِ وصعوبةَ الواقعِ من التطلعِ إلى اليومِ الذي نستعيدُ فيه ما سُلِبَ منا، ونواصلُ فيه مع أرضنا ومقدساتنا، وأن نعيدَ إلى القدسِ أمجادها العربيةَ وإلى شوارعها ابتساماتِ الماضي، وإلى قبابها ومآذنها رموزَ المحبةِ والسلامِ التي تعانقت فيها منذُ فجرِ التاريخِ.

الأخوة و الأخوات :

إن الحديث عن القدس، يعني الحديث عن السلام، ونحن مع السلام الذي نريد له أن يكبر في هذه الأيام، وأن يثمر ثمرات طيباً نأكل منه، ويأكل منه الآخرون، والقدس هي مفتاح السلام، ورمز التسامح، ومن أرادها لنفسه دون أهلها، فإنه لا يريد لهذا الزرع أن يثمر، ولا لهذه الشجرة أن تكبر.

ولأننا نتسامح مع غيرنا فإننا ندعو إلى أن تكون القدس عاصمة لدولتنا الفلسطينية العتيدة، وأن تفتح أبوابها لكل من أراد أن يأتيها ولا نسمح لغيرنا أن يعيث بحريتها، أو أن يجردنا من أثوابها العربية، وينزع عن رأسها المنديل الفلسطيني المطرز.

وستبقى القدس بشوارعها الضيقة، وأسوارها العتيقة، ومآذنها الشاهقة، خير شاهد على أصالة انتمائنا لها، وجذورنا الراسخة فيها.

وفي الختام أرحب بكم مرة أخرى، وأتوجه بالشكر إلى القائمين على هذا اليوم، وإلى اللجنة التحضيرية التي نظمت هذا الملتقى الفكري الهام حول مدينة القدس.

كما أتوجه بالشكر إلى المشاركين والباحثين في هذه الندوة متمنياً عليكم أن تضعوا خلاصة فكركم من أجل عمل مثمر بناء، يرتقي بنا من مجرد رسم الآمال والتطلعات إلى تحديد الأهداف والغايات.

وفقكم الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة الأمين العام المساعد لاتحاد الجامعات العربية

أ.د. إبراهيم الخواجه

سعادة الأستاذ عبد الغني عنبتوي رئيس مجلس أمناء الجامعة

سعادة الأستاذ الدكتور منذر صلاح رئيس جامعة النجاح الوطنية

السيد الدكتور خليل عوده عميد كلية الآداب رئيس اللجنة الثقافية الاجتماعية للندوة

أيتها الأخوات، أيها الإخوة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

وإنه لشرف عظيم لي أن أكون بين هذه النخبة من العلماء والباحثين في مطلع فعاليات الندوة الرابعة ليوم القدس بدعوة كريمة من الأستاذ الدكتور منذر صلاح رئيس الجامعة وبتكليف من معالي الأستاذ الدكتور مروان كمال أمين عام اتحاد الجامعات العربية.

ويأتي انعقاد أعمال هذه الندوة الهامة في وقت صعب، وفي زمن مصيري من تاريخ الأمة العربية، يأتي هذا النشاط ونحن نجتر أحزاننا بمناسبة مرور خمسين عاماً على النكبة، ويأتي متزامناً مع المحاولات المتكررة للمتطرفين اليهود لاقتحام الأقصى والصلاة فيه، وما من يوم إلا وتتلقى القدس الخالدة مدينة السلام ومهد الأديان طعنة تلو الأخرى من أولئك المتطرفين الذين يسعون لطمس طابعها العربي الإسلامي، ومحو معالمها التاريخية والحضارية، وتحويلها إلى مدينة يهودية غريبة الوجه واللسان، مقطوعة الصلة بالماضي والتاريخ والشرق، في كل يوم تدفن جرافات الاحتلال الصهيوني جزءاً عزيزاً من تراثنا تحت كومة من تكتات الاستيطان، كما تنهأ معاول الهدم لتقويض جزء جديد، إنهم يريدون للقدس العربية، قدس الأصالة والتراث أن تندثر وأن يندثر أهلها وذووها تحت الأنقاض أو في الشتات، ولكن القدس مدينة الصلاة والتاريخ والتراث يجب أن تبقى ولا بد لنسوة السماء أن تتحقق، ويجب على العالم المتحضر أن يدافع عن بقائها ونقاء وجهها

كلمة د. حسن السلواوي

عميد كلية الآداب - جامعة القدس

سعادة الأستاذ الدكتور عبد الغني عنبتاوي - رئيس مجلس أمناء جامعة النجاح وراعي الحفل المحترم

سعادة الأستاذ الدكتور إبراهيم الخواجا - الأمين العام المساعد لاتحاد الجامعات العربية المحترم

سعادة الأستاذ الدكتور منذر صلاح - رئيس جامعة النجاح الوطنية المحترم

سعادة الدكتور خليل عوده - عميد كلية الآداب في الجامعة المحترم

أيها الأخوة والأخوات الأعزاء

باسم أهلنا المرابطين على ثرى القدس وأكناف القدس، باسم من حملوا القدس ويحملونها في قلوبهم، وحدقات أعينهم، رؤية وتاريخاً ونضالاً، مع أن القدس مغلقة بالحراب، والجلادون يحذقون بها من كل صوب، ويزرعون في أرجائها الطهور، بذور الحق والتعصب والكرهية.

باسم إسرائء المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، ومهد المسيح رسول المحبة عليه السلام، باسم جامعة القدس، التي تفتح شراعيها في وجه الإعصار على مرأى العين، ونبض القلب.

أتوجه بالتحية والإكبار لهذا الجمع المبارك، أصالة عن نفسي ونيابة عن زملائي المشاركين في أعمال هذه الندوة الهامة، ممن اثقلت قلوبهم حباً ووفاء لمدينة الإسرائء والقيامة، وتوجهوا إلى هذا الصرح العلمي الشامخ، تحذوهم عواطف الإيمان، وروابط الإسلام، وأشواق التاريخ، ليقيموا للقدس في يوم القدس جسر الأمل، وبشارة الخلاص من وطأة الاحتلال، وسطوة الإرهابيين الطغاة، وأحيي باسم من ذكرتُ جميعاً جامعة النجاح الوطنية عامة، وكلية الآداب خاصة،

العربي والإسلامي، وبقاؤها مرهون ببذل الجهود الجبارة المتواصلة والصادقة لإنقاذها من الهجمة الشرسة المركزة عليها، يجب أن تتضافر كافة الجهود من كل نوي النوايا الحسنة في العالم، ويجب أن تتخذ هذه الجهود أنماطاً جديدة ودروباً متنوعة في المجالات السياسية والإعلامية والثقافية، وعلى كل الأيدي الشريفة أن تمتد لنصرة القدس في محنتها ولوقف جرافات الاحتلال من الاستمرار في تدمير قرانا ومدننا، وارتكاب المجازر بحق أبناء شعبنا، فالمسجد الأقصى والقدس في أمس الحاجة إلى أي جهد يميظ اللثام عما يجري من أعمال بشعة بحق القدس وراثتها وأهلها، والتي تشكل إهانة للإنسانية ووصمة عار في جبينها، ومن هذا المنطلق تأتي أهمية عقد هذه الندوة التي تقيمها - مشكورة - كلية الآداب بجامعة النجاح الوطنية والتي تتناول الجوانب التاريخية والأثرية والجغرافية والعمرانية والدينية والسياسية والأدبية والهندسية، بالإضافة إلى معرض للكتب والصور واللوحات الفنية، كل أمنيات الخير لهذه الندوة العلمية الهامة بأن تحقق الأهداف المنشودة وبأن تكلل أعمالها بالنجاح.

وقبل أن أغادر مكاني اسمحوا لي بالأصالة عن نفسي وباسم الأمانة العامة ومعالي أمينها العام بأن أقدم إلى جامعة النجاح الوطنية مجلس أمناء وإدارة وإلى السادة أعضاء اللجنة الثقافية الاجتماعية بجزيل الشكر لدعوتهم الكريمة لنا ولما لمسنه من اهتمام وحسن استقبال وكرم وفادة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

ممثلة بعميدها، وأعضاء هيئتها التدريسية، وأعضاء اللجنة التحضيرية، الذين خططوا وأعدوا لهذه الندوة، بمنهجية علمية ونظرة شمولية ستكون بعون الله مفتاحاً لنجاح هذا اليوم المبارك، يوم القدس، حبيبة السماء، ورمز السلام والبهاء، التي ينطلق في فضائها المضمخ بعطر الأنبياء ومسك الشهداء، نداء ساطع مسكون بصوت الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو يلقي على مسامع التاريخ عهده العمرية التي اتخذها المسلمون من بعده ميثاق شرف، ورمز تسامح وعدالة.

أيتها السيدات والسادة،

ليس في العالم قاطبة مدينة تثير الخواطر، وتشدد خيال المؤمنين، وتعبّر بهم من الحلم إلى الواقع، وأخرى من الواقع إلى الحلم، في جدلية مستمرة ومفعمة بالرموز والإشارات، والحضور التاريخي، مثل القدس الشريف، التي وصفها ابنها العلامة الجغرافي شمس الدين أبو عبد الله المقدسي في كتابه "أحسن التقاسيم"، بأنها "أجل المدن قاطبة"، لأنها مهبط الوحي ومدينة الأنبياء، ومجتمع الدنيا والآخرة، هذه العبارات على إيجازها، تختصر تاريخاً ممتداً طوله أكثر من أربعة آلاف سنة، شهدت المدينة خلالها، أمماً وحضارات، وتعاقب عليها أفواج من الغزاة والطامعين ابتداء من الغزوة الإسرائيلية القديمة، وانتهاءً بالغزوة الصهيونية المعاصرة، التي حاولت بشتى الأساليب والطرق. أن تختزل آلاف السنوات وتقفز فوق القرون، وتطوي سجل المدينة الحضاري صفحة تلو أخرى، لتصل ماضياً مشوهاً مبتوراً بحاضر قائم على القهر والاعتصاب، والوقعية بين الأمم.

الأخوة والأخوات الأعزاء،

لقد صرح رئيس وزراء إسرائيل الأسبق دافيد بن جوريون ذات يوم، أن شعبه الذي يقف على أعقاب المعبد الثالث لا يمكن أن يتحلى بالصبر على النحو الذي كان عليه أجداده، وقال أحد زعماء الحركة الصهيونية في بداية انطلاقها : لن نتحقق عودة اليهود إلى القدس بشكل نهائي مادام فيها قبر يسوع، من هنا نتضح النوايا خيال أكبر رمزين للإسلام والمسيحية : المسجد الأقصى وكنيسة القيامة، فإذا ما بني الهيكل لا قدر الله على أنقاض الأقصى، وأزيلت القيامة من مدينة الأنبياء،

فأي معنى يبقى للحضارة الإنسانية، وهل سيستتب السلام في أرجاء العالم بعد ذلك، إنها لا شك بداية النهاية، فماذا نحن فاعلون إزاء هذا التصميم على قلب الحقائق وتزييفها، وتجهيرها لأقدس رموز المسلمين والمسيحيين، بما يخدم أهداف الحركة الصهيونية، وأطماعها التي لا حدود لها ولا سيما في ظل التمزق والانقسام والشرذمة، التي يعاني منها عالمنا العربي والإسلامي في الوقت الحاضر، وفي ظل الإصرار والتعنت، للذين يبيدهما قادة اليمين الإسرائيلي باستبعاد موضوع القدس من جدول المحادثات في المفاوضات النهائية.

أيها الأخوة والأخوات،

أحييكم مرة أخرى، وأحيي القائمين على هذه الندوة، ونعبر لهم عن عظيم شكرنا وتقديرنا، لدعوتهم لنا، في رحاب جامعة النجاح. وأرجو أن يكون لقاءنا هذا بادرة خير، لاتحادنا جميعاً وتكاتفنا من أجل قدسنا الغالية، الرمز المقدس في وجدان هذه الأمة على مر الأيام والسنين.

وفقنا الله جميعاً، وسدد خطانا على طريق الخير

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

٢. د. محمود عطا الله عضو اللجنة التحضيرية

٤. د. ماهر أبو زنت عضو اللجنة التحضيرية

القدس مدينة الستة آلاف عام من الحضارة

القدس مدينة لها ست وثلاثون اسماً عبر الحضارة

الدكتور إبراهيم الفني

مركز القدس للأبحاث

القدس قالت لنا الكلمة مخلوق، لأن ملفات التاريخ صنفها بأنها القاموس. موقع رسمت على أرضه الحضارة ممالك، وكتبت على جدرانها وأبنيتها الرسالات التاريخية، موقع قدسته الأديان، وصنفته الحضارة بأنه خزانة التاريخ ومتحف الدنيا.

تعلمنا من الآثار أن الثقافة هي الحكمة، وأن التاريخ المنسي يبقى حدث الحكمة التي قالت للزمن وللمضمون أنا شاهدك الذي تبحث عنه. هذا المضمون أرشف أرض القدس ونمط حضارتها من خلال المعلومة والوثيقة وسماها حكمة الثقافة.

بنيت القدس في موقع طبوغرافي متميز محاط بالوديان الكبيرة. تلالها محاطة بأسوار حيث كانت شاهداً على تعامل الحضارة مع الطبيعة.

في نزلات وادي الكدرون تم العثور على بقايا تعود لفترة العصر الحجري وهذه الطبقة صنفها العلماء بالطبقة (٢١) وهي تعود إلى أربعة آلاف قبل الميلاد. وفي المنطقة القريبة من هذا الكهف تم العثور على أبنية عامة وبيوت وبقايا تعود لفترة العصر البرونزي المتقدم وصنفت بالطبقة (٢٠).

وبالمنطقة التي تقع فوق مستوى عين أم الدرج أي عين سلوان تم العثور على بقايا المدينة البرونزية التي تعود لفترة العصر البرونزي المتوسط أي ألفين قبل الميلاد. وهذه الموجودات منحت طبقتين حضاريتين هما (١٩)، (١٨).

الحفريات الأثرية التي بدأت في المدينة منذ عام ١٨٦٣م لم تتوقف لغاية ١٩٩٧م. فمنذ عام ١٨٦٣م ولغاية ١٩٦٠م تعاملت الحفريات مع المعطيات التاريخية في قراءة الأنماط، ولم تتعامل مع المعطيات الاستجرافية في قراءة الموجودات الأثرية. حفريات كاتلين كينون، وديفو والتي بدأت من عام ١٩٦٠ - ١٩٧٦م قدمت الأدلة الكثيرة على معطيات الطبقات الأرضية وتصنيف موجودات هذه الطبقات حسب وقائع الموجودات الأثرية.

ولأول مرة عرف أن القدس في فترة القرن العشرين قبل الميلاد كانت مدينة قوية وهامة حيث عرفنا من الوقائع أن أهمية المدينة كانت تكمن في ثلاثة مرتكزات :

المرتكز الأول : الموقع الطبوغرافي الذي بنيت المدينة عليه.

المرتكز الثاني : العبادة والفن واللغة.

المرتكز الثالث : سجلات المدينة وأختامها التي وجدت في مصر ضمن علاقة المدينة مع الفراعنة عبر فترة القرن العشرين قبل الميلاد.

أما من حيث سيطرة المدينة على الطرق التجارية فهي العامل الرئيس في طبوغرافيتها الجغرافية، فقد كانت القدس تسيطر على عدة طرق تجارية تلتقي في منطقة القدس. فالطريق التجاري القادم من الساحل السوري، والسهل الساحلي الفلسطيني يمر بالقدس ويستمر شرقاً تجاه الأردن ومنه إلى دمشق وبلاد الرافدين. أما الطريق القادم من الجنوب عبر القدس تجاه الشمال، فقد كان يربط بين القدس ومدن كنعانية قائمة بالغرب منها، مثل : تل الفول، وتل النصبة، وتلال كثيرة في محيط منطقة القدس حالياً.

ومن المتعارف عليه بأن معظم المدن الكنعانية كان يرتبط اسمها باسم إله كنعاني، السوريون قالوا عن شالم عبر المثلولوجيا التي تخص أبيلا ٢٤٠٠ ق.م بأن شالم تعني الشفق الذي يظهر في الأفق قبل غروب الشمس. ولو حاولنا أن نستعيد قراءة النص من واقع اللغة فإن شلم مثل ما نعرفها بالعربية اليوم سلم نجدها تدل على التمام والكمال. لكن معنى الغروب في طقوس الآلهة شلم فهو متطور عن معنى التمام، فالغروب هو تمام النهار. وعندما نقرأ بالأكادية كلمة شلام شمش فهي تعني مسيرة الشمس والغروب.

فلو حاولنا أن نجتمع بين معطيات الحفريات الأثرية والوثائق المكتوبة وأنماط الفن فسوف نصل إلى مفهوم هام جداً. هذا المفهوم يقول إن كل مدن فلسطين القديمة التي تعود إلى فترة العصر البرونزي المتوسط كان حكامها عرب من الأصل الكنعاني بما فيها القدس.

نصوص وثنائق المدن والتي صنفها الفراعنة عبر أرشيف اللعن تقول أن اسم الحاكم كان أيضاً يرتبط باسم أحد الآلهة الكنعانية وكما هي الحال في المدن. حيث يظهر أن ملك شكيم كان اسمه أبيش ايل كان حاكم بيت شيمش. أما القدس فقد وجد لها ثلاث ملفات - الملف الأول يقول حاكم أورشليم وكل الأعداء الذين معه شازان أو ششان.

أما الملف الثاني فينص على اسم حاكم أورشليم ايفا عمو وكل الأعداء الذين معه أي يقارآم.

أما الملف الثالث فكان يحتوي على حرفين (ب.أ) وهذا يعني أنهم قد توصلوا إلى مرتبة صناعة الأرشيف المرقمة.

فلو حاولنا معرفة نمط مدينة القدس في العصر البرونزي المتوسط لوجدنا أن الحفريات الأثرية قد غطت خصوصية المدينة من واقع أبنيتها وامتدادها وتعاملها مع المنطقة المحيطة بها، والوثائق قدمت لنا الأدلة التي تدعم موجودات الحفريات. يرد اسم القدس في رسائل العمارنة تحت اسم كيله حيث يرد اسم حاكمها العربي أربع مرات في الرسالة رقم (٢٨٧) التي أرسلها حاكم القدس إلى أختانون أي أمحتب هذه الرسالة يعود تاريخها إلى فترة القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

كان حاكم القدس يدعى عبدو خيبا ويلفظ باللغات الأخرى حبه. وورود اسم المدينة مرتين في الرسالة رقم (٢٨٨) ومرتين في الرسالة (٢٨٩) ومرة واحدة في الرسالة رقم (٢٩٠). الرسائل المتبادلة بين عبده خيبا وأختانون ست رسائل، فجميعها تدل على قوة المدينة ومنعتها وحضارتها.

لكن ما بين القرن الثاني عشر حيث ظهرت القدس باسم ييوس وظهرت في القرن الحادي عشر والعاشر باسم أريانه الاسم الحتي الذي ظهرت المدينة به حتى سقوطها في عصر داود في القرن العاشر قبل الميلاد.

أما الأسماء التي ظهرت في الوثائق والرسائل فهي كثيرة وسنقدم أسماء القدس كما ظهرت، مثال مثاأورشليم - أورشليم - ارسالم - ايفن - مدينة الأنهار - مدينة الوديان - راشاليم - يورشاليم - يورشالما - شهر شلايم - يهوسنك - ييوس جلعاد - نور السلام - نور الغسق - ياره - كيله اريانا - جيس - ييوس - أوئل - ميلو - آكري - انتوخيا - هيروساليم - ومن هذه التسمية وردت جروزلم.

ثم تظهر الأسماء في العصر الهيرودي والروماني والبيزنطي والإسلامي حسب هذه الوقائع إيليا - إيليا كابتلينا - إيليا كوستنتنبل - بيت المقدس - القدس.

المؤرخ اليوناني هيروdot الذي كتب عن القدس في القرن الرابع قبل الميلاد يذكرها باسم قديتس وهو بدوره نقلها عن الأرمنية حيث وردت باسم قديستيا. والقاسم المشترك في الإله المركزي في المدينة كان عبارة شالم الإله السوري الذي ظهر في عدة مناطق من سوريا وفلسطين.

عندما سأل حزقيال أحد أنبياء اليهود حول تعريفه للقدس قال : "ولادتك ومنسك كنعاني - أبوك أموري - أمك حثية".

وهكذا يتضح لنا من واقع نصوص الوثائق وحفريات الآثار تشابه الاسم بين اللغات القديمة وتشابهه بين الآلهة وتشابهه بين الأساليب الفنية.

وقد تمت ملفات الهجرات التي اكتشفت الحفريات الأثرية الكثير من وقائعها في القدس، الأصول العربية التي لم تغب عن مسميات الأرض، وتسمية شعوب هذه الأرض. من هذه الأصول تلك المدن الكنعانية الكثيرة، والتي تدل على أن الكنعانيين كانوا سكان بلاد الشام.

وحددت الحفريات الأثرية الطبقات الأرضية للقدس بإحدى وعشرين طبقة، من القرن الأربعين قبل الميلاد حتى القرن التاسع عشر الميلادي.

وثائق القدس الموجودة في مصر قدمت أدلة عن معنى إسرائيل

إن أقدم إشارة إلى اسم إسرائيل تظهر في نص مصري يعود إلى عهد الفرعون موريشتاج، وهو من ملوك الأسرة التاسعة عشرة في مصر، وقد حكم في عام ١٢٢٤ ق.م وهذا التاريخ يطابق ظهور سيدنا موسى في مصر.

هذه الوثيقة مكتوبة بالخط الهيروغليفي، أما نصها حسب قراءة رايت وكامبل فكان كما يلي : "لا أحد يرفع رأسه بين الأقواس التسعة. لقد خربت أرض اتحنو خيتا هادئة وسيطرت على كنعان، وقبضت على عسقلان، وسيطرت على جزر، وأصبحت نيو عام كأنها لم تكن، وأبيدت إسرائيل وأصبحت بلا ندره وقارو أصبحت أرملة لمصر. أما التخنوخيتا فهي تركيا وعسقلان وجزر ويانوعام وكنعان منهما فلسطين.

تكنم الأهمية في هذه الوثيقة في تلك الرموز التي كانت تظهر كحروف خاصة ترمز إلى البلد المقصود بذكره حسب الوثيقة. الرمز يظهر بصورة لجبل تيلات قمم، ولكن عند كلمة إسرائيل نجد علامة إلى رجل وامرأة وهذا يعني إن هذا الاسم ليس له أرض ولا وطن ولا يوجد له استقرار.

وتلاقت الحفريات الأثرية مع نصوص الوثائق. حيث ربطت الوثائق مع الحفريات الأثرية حقيقة وجود اليهود في فلسطين، وما مدى الحضارة التي قالوا عنها حضارة، فاقت كل الحضارات، وإذ بها لا تتجاوز بعض الترميمات للأماكن التي كانت قائمة في الحضارات التي سبقت الباحثين، الذين يتابعون قراءة تقارير الحفريات ونصوص الوثائق، يعتبرونها قليلة. لذا فهم يسعون لقراءة التوراة، يستنبطون منها تاريخ اليهود. لهذا ظهرت بحوثهم وكأنها أساطير وخرافات لا سند لها من قريب ولا من بعيد في عالم الواقع.

فالمصادر الوثائقية تقول إن ما ورد في التوراة هو مروييات شفوية ومجموعات من القصص الأسطورية مأخوذة من الأدب الكنعاني أو المصري القديم ولهذا لا يمكن أن نعطي لهذه المروييات أية قيمة تاريخية.

وفي القرن الثامن قبل الميلاد انقسمت مملكة سليمان إلى قسمين شمالي وجنوبي - القسم الشمالي كان نمطه فينيقي، وقد استقى من الفينيقيين، والجنوبي ضعف واستمد قوته من تعاونه مع الفراعنة.

وعندما امتد المارد الفارسي تجاه بلاد الشام كان اتجاهه الأول إلى مملكة السامرة سنة ٧٢١ ق.م وسبى أهلها واتجه نحو القدس وكلف سرجون سنحاريب بمحاصرة القدس وضربها أو دفع جزية سخية. ولكن خرقيا استجاب لطايات سنحاريب، وهكذا تأجل تدمير القدس حتى عصر نبوخذ نصر الذي فتح القدس عام ٥٨٦ ق.م، وكان هذا السبي الثاني، وما أوردته نصوص المؤرخين حول عودة اليهود من هذا السبي إلى فلسطين ثانية هو مشكوك فيه حسب الأجدنة التي تطرحها الأحداث في عصر قورش، وكيف وردت قصة استير، كما وردت القصة في فتح أريحا.

وفي عام ٣٣١ ق.م فتح الإسكندر الكبير فلسطين ومنها القدس وبقيت القدس حتى عام ١٤٠ ق.م حينما استولى عليها السلوقيون وقامت المكابية ما بين أعوام ١٢٧ ق.م لغاية ٧٠ ق.م حينما استولى الرومان على فلسطين بقيادة بومبي وبقيت الدولة الرومانية حتى عام ٣٢٤م حينما قامت الدولة البيزنطية التي استمرت حتى الفتح الإسلامي عام ٦٣٨م.

هذه المعطيات تمنحنا الثقة التامة لدراسة الأدلة التي نسوقها عبر هذا البحث.

١. تعرضت منطقة المشرق العربي القديم لكثير من التحركات البشرية، وكل هجرة من هذه الهجرات كانت تنتهي بالاستقرار في موطن جديد.
٢. تم تأسيس سلالات حاكمة. فقد حكمت السلالة الأكادية في بلاد الرافدين وبعدها السلالة البابلية والأشورية بالاستقرار في موطن جديد.
٣. العموريون الذين قالوا عنهم أنهم أموريون عاشوا في فلسطين وسورية.
٤. الهجرة الآرامية هي هجرة العرب ولم نجد تضاد بين تلك الهجرات لأنه كما شرحنا كانت الحضارات عبر اللغة والعبادة والفن تتلاقى.
٥. أما اليهود فقد بقوا بعيدين عن الاندماج في المجتمع الكنعاني في فلسطين بل أنهم كانوا دوماً عوناً للغريب الذي كان يهاجم هذه الأراضي.

والذين كتبوا عن اليهودية اعتمدوا على الفرضيات، ولهذا كانوا كمن يفسر مجهولاً بمجهول. ولكن علينا أن نورد بعض الحقائق التي قد تلقي الضوء على تاريخ اليهود.

فاللغة العبرية لم تعرف باسم عبري إلا في فترة القرن الثاني قبل الميلاد. حيث ظهرت في كتابات المشنه، مثلاً : قالوا إن العصر الحديدي بدأ في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. والحديد عرف من قبل الفلسطينيين الذين تعلم عندهم داود صناعة الدروع والتروس في القرن العاشر قبل الميلاد.

تعلم اليهود لغة الكنعانيين وسموها سفاه لبعل فإن معنى اللغة في الأكادية شفاه، البعض قال شفاه لأن حرف الشين حرفاً كنعانياً، وترد في العهد القديم بمعنى (لاشون كنعان) أي لغة كنعانية.

والذين قاموا بأعمال المساحة في الأماكن التي ذكرتها التوراة قالوا إنهم شعب دون حضارة بينما سكان هذه الأرض عرفوا الاستثمار، والزراعة، والمجتمع المنتظم، وبناء المدن والتحصينات، واستخدام المعادن منذ العصور المتقدمة.

وعندما عرفت الآرامية كتب اليهود قصصهم بهذه اللغة. والآرامية مستقاه من اللغة الكنعانية ومن الأسفار المستقاه من الآرامية حسب الترجوم اليوناني سفر عزرا، ونحميا، ودانيال، وهذه الأسفار كتبت بعد الغزو البابلي.

وقدموا لنا أيضاً مصطلح يهوه الذي يعني الله، وقالوا : يهوه اله يسمع به الجميع وقد عرف في منطقة مدين التي كانت تقع شرق خليج العقبة. والمعروف أن موسى قد استقر به المقام في مدين. ومن النصوص المقروءة نقرأ أن كاهن مدين كان يدعى شبيرو وكان يدعو إلى عبادة إله واحد.

وهكذا يظهر لنا من خلال الأدلة الأثرية يظهر لنا أن اللغة والدين كانا مظهرًا حضاريًا عند الكنعانيين، والفن كان لغة تعبيرية عن كل من اللغة والطقوس التي تقام في المعابد.

الخلاصة

الوطن العربي أشبه ببيت له جدران عالية، عاش الإنسان العربي، وأبدع مظاهر حضارته ضمن هذا البيت.

بقي العنصر العربي مع أركان حضارته اللغة والديانة والفن الذي كان سيسد المنطقة بلا منازع والسبب في هذا أن جذور هذا العنصر في هذه المنطقة عميقة إلى أبعد حدود.

على مر التاريخ لم تستطع أية قوة في الدنيا اقتلاع هذه الجذور وإنهاء أصحابها على الرغم من المحاولات العديدة وتمثل هذا بتلك الحضارات - السومريون - القوتيون - الحثيون - الكاسيون - الفرس - اليونان - الرومان - البيزنطيون - التتار - الصليبيون - المغول - والانكليز وآخرهم الصهاينة.

حتى نستفيد من هذا التراث يجب علينا أن نعتقد اعتقاداً جازماً من أن تلاوة التاريخ لا تكفي. بل علينا أن نستفيد من قوانين التاريخ المعروفة، إذ لا يمكن لأية أمة أن تحقق أهدافها وهي متفرقة، ولا يمكن لأي أمة أن يسمو بها الإنسان دون حرية مطلقة لا تتجاوز مثل الأمة.

إن الزعم التوراتي بالوعد الإلهي بهبة الأرض هو كما رأينا مربوط بشكل لا يتجزأ بالزعم الخاص بوجود موافقة إلهية على إبادة الشعب الأصلي.

ولو افترضنا أن الكتابة عن هذا الموضوع هو صنف من التاريخ، ولكن هذا لا يتفق مع ما نقوله بالبحوث الجادة. لأنها تطرح هذه الأعراف الخاصة بالأرض مسائل أخلاقية أساسية تتصل بفهم المرء لطبيعة الله وتعامله مع الجنس البشري كما تتصل بسلوك الإنسان.

المقدس (١٣٣٥هـ/١٩٤٦م - ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م)

حياته ومنهجه

د. خالد أحمد زويد

جامعة الأزهر - غزة

لا شك في أن دراسة الأعلام السابقين من أهل العلم والفكر، تهدف أولاً إلى أن تقدم إلى الأجيال المعاصرة واللاحقة من طلبة المعرفة ورواد العلم صوراً ناطقة معبرة تمثل شخصيات أولئك المتقدمين من العلماء الذين برزوا في مجال التاريخ أو الجغرافيا أو الأدب، وتوضح آراءهم وثقافتهم وتلقي الضوء على ما قدموه للإنسانية من إنتاج علمي في مختلف الميادين والفنون فأضافوا لبنة إلى تلك اللبنات التي تشيد ببيان العلم وصرح المعرفة وليكون هؤلاء العلماء نبزاً تهتدي بهم الأجيال لتشارك في تقدم الأمة أسوة بما قام به هؤلاء العلماء.

فالمقدس العالم وهب للعلم نفسه، وقصر عليه حياته، وقد جال في نواحي متعددة بعد أن رحل في طلبه إلى كثير من الأمصار والبلدان، وجاب الآفاق في كل عصر وزمان، سماعاً من الشيوخ، وشغفاً بالقراءة، وحباً بالاطلاع والمشاهدة والاستماع إلى أن ذاع صيته واشتهر علمه، وكتابه الشهير أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم يستحق الدراسة والتمحيص وبالذات منهجه فيه إذا أدركنا أن التاريخ سجل لحياة الشعوب والأمم.

وسيرة المقدسي ومنهجه في كتابه لم يحظيا بالدراسة الوافية، بل لم يخضعا حتى الآن للبحث أو الدراسة العلمية العميقة، وأن أغلبية الذين درسوه لم يتعرضوا لهذا الجانب المهم والحيوي، وإنما تعرضوا له تعرضاً سريعاً لا يمس الجوهر ولا المكنون.

إن هذه الدراسة لم تكن سهلة ولم يكن طريقها معبداً أمامي، وأولى الصعاب التي واجهتها هي قلة المصادر والمراجع التي نتحدث عن سيرة المؤرخ الجغرافي الكبير المقدسي ومنهجه في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وقد حاولت جاهداً أن أجمع كل شاردة وواردة عنه وأن أدرسها درساً وافياً.

تلقى المقدسي ثقافته في بيت المقدس موطن العلماء الأجلاء، ودرس على يد القاضي أبي الحسن القزويني^(١)، إلى جانب تعلمه القراءة والكتابة، اهتم بعلم القرآن الكريم وحفظه، ويبدو أنه رحل في طلب العلم إلى مدن أخرى كما كانت العادة جارية في ذلك الوقت، حيث ارتحل إلى العراق، وخالط العلماء والفقهاء، وتفقّه على مذهب أبي حنيفة^(٢) على يد القاضي أحمد بن عمر بن عباس^(٣).

وقد نشأ مولعاً بالترحال والتجوال في كل أنحاء العالم الإسلامي لدرجة أن سمي بأسماء كثير بلغ عددها ستة وثلاثين ذكرها في مقدمة كتابه وهي مقدسي، وفلسطيني، ومصري، ومغربي، وتاجر، وإمام، ومؤذن، ومتأدب، وكري، ومتعلم، وعابد، وسائح، وخراساني، وراكب، ورسول، وزاهد، وورّاق، ومجلد، ومذكر، وخطيب، وعراقي، وشامي، وحنفي، وغريب، وبغداد، وفرائضي، وأستاذ، ودانشومند، وشيخ، ونشاسته، وبشاري، نظراً لاختلاف البلدان والمواقع التي استقر بها، وكثرة المواضع التي ارتادها^(٤).

فهو رحالة جغرافي اشتهر التجارة بين أقاليم العالم الإسلامي وطاف أكثر بلاد الشام عدا الأندلس^(٥). وقال يصف نفسه " فقد تفقّهت، وتأدّبت وترهّدت، وتعبّدت وفقّهت وأدّبت وخطبت على المنابر، وأدّنت على المنابر وأمّمت في المساجد، وذكرت في الجوامع واختلّفت إلى المدارس، ودعوت في المحافل، وتكلّمت في المجالس، وأكلت مع الصوفية الهرائس ومع الخانقائيين الثرائد، ومع النواتي العصائد، وطردت في الليالي من المساجد، وسحت في البراري وتهت في الصحاري، وصدقت في الورع زماناً، وأكلت الحرام عياناً، وصحبت عبّاد جبل لبنان وخالطت حيناً السلطان، وملكت العبيد، وحملت على رأسي بالزبيل، وأشرفت مراراً على الغرق، وقطع على قوافلنا الطرق، وخدمت القضاة والكبراء، وخطبت السلاطين والوزراء، وصاحبت في الطرق الفسّاق، وبعثت البضائع في الأسواق، وسجنت في الحبوس وأخذت على

(١) محمد، دراسات في التراث، ص ٤٤.

(٢) حميدة، أعلام الجغرافيين، ص ٢٥٥، سالم، التاريخ والمؤرخون، ص ١٩١.

(٣) صالحية وآخرون، الموسوعة الفلسطينية، مج ٣ ق ٢ ص ٣٦٤.

(٤) المقدسي، أحسن، ص ٤٣-٤٤، أحمد، الرحلة والرحالة، ص ١٣١.

(٥) حميدة، أعلام الجغرافيين، ص ٢٥٥.

فهو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي المعروف بالبشاري^(١)، وقد سمي بالمقدسي نسبة إلى مسقط رأسه بيت المقدس^(٢)، الذي شب وترعرع فيه، فهو مؤرخ وجغرافي ورحالة عربي من أهل القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي^(٣)، احترف مهنة التجارة، وشغف حب الرحلات^(٤).

أما أسرة أمه فتعود إلى قرية بير من أعمال قومس على مقربة من حدود خراسان^(٥)، وولد في سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م في بيت المقدس^(٦)، حيث نشأ في أسرة اشتهرت بالعمل في مجال الهندسة، فجدّه أبو بكر البناء هو الذي بنى ميناء عكا لأحمد بن طولون^(٧).

وقد ذكر المقدسي بأنه أخرج كتابه سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م عندما بلغ الأربعين من عمره^(٨) في مدينة شيراز^(٩).

أما عن وفاته فقد ذكر في كتابه أن من خلفاء بني العباس الذين عاصروهم الطائع^(١٠)، الذي تولى الخلافة بين سنتي ٣٦٣-٣٨١هـ/٩٧٣-٩٩١م، ولم يذكر القادر الذي جاء خلف الطائع، وبذلك تكون وفاته على الأرجح في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي قريباً من سنة ٣٩٠هـ/١٠٠٠م^(١١).

(١) الزركلي، الأعلام، مج ٥، ص ٣١٢، كحالة، معجم المؤلفين، ج ٨ ص ٢٣٨.

(٢) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٢٠٩، أحمد، الرحلة والرحالة، ص ١٢٩، حميدة، أعلام الجغرافيين، ص ٢٥٥.

(٣) كحالة، معجم المؤلفين، ج ٨، ص ٢٣٨، الشامي، الإسلام والفكر الجغرافي، ص ١٢٨.

(٤) صالحية وآخرون، الموسوعة الفلسطينية، مج ٣ ق ٢ ص ٣٦٤، محمد، دراسات، ص ٤٣.

(٥) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٢٠٩، وخراسان: بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق وآخر حدودها مما يلي الهند، أنظر: ياقوت، معجم، مج ٢ ص ٣٥٠.

(٦) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب، ص ٢٠٨-٢١٣.

(٧) صالحية وآخرون، الموسوعة الفلسطينية، مج ٣ ق ٢، ص ٣٦٤، حميدة، أعلام الجغرافيين، ص ٢٥٥، العسلي، القدس ص ١٤٧.

(٨) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب، ص ٢١٠، حميدة، أعلام الجغرافيين، ص ٢٥٥.

(٩) أحمد، الرحلة والرحالة، ص ١٢٩، شيراز: بالكسر، بلد مشهور وهو قسبة بلاد فارس، أنظر: ياقوت، معجم، مج ٣ ص ٣٨٠.

(١٠) المقدسي، أحسن، ص ٩.

(١١) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب، ص ٢١٠، حميدة، أعلام الجغرافيين، ص ٢٥٥.

والتزم المقدسي بالسجع في كتابه، حيث لجأ نظراً لأن " العوام يحبون القوافي والسجع"^(١)، وكثيراً كان يعتمد المقارنة في وصف المواقع الجغرافية، فيذكر الفسطاط بأنها " أهل من نيسابور، وأجل من البصرة، وأكبر من دمشق"^(٢).

وقد تميز كتاب المقدسي برسمه حدود الأقاليم وطرقها واستخدامه للألوان في إعداد خرائطه حيث اعتمد اللون الأحمر للطرق، والأخضر للبحار المالحة، والأصفر للرمال، والأزرق للأنهار، والغبرة للجبال، ليتضح المراد وتسهل المعرفة، وقد قال: " وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة، وبحارها المالحة بالخرصة، وأنهارها المعروفة بالزرقة وجبالها المشهورة بالغبرة، ليقرب إلى الإفهام، ويقف عليه الخاص والعام"^(٣).

اعتمد المقدسي في كتابه مبدأ الاختصار لكثير من المعلومات خشية أن تطول صفحات الكتاب، وأراد أن يذكر في كتابه الأشياء المهمة ذات الفائدة بعيداً عن الاستطراد والإسهاب، فقد ذكر مثلاً عن فريضة الحج أن " ما يؤدي فيها ثلاث فرائض وست واجبات وخمس سنن، أما الفرائض فالإحرام والوقوف بعرفة والطواف للزيارة، والواجبات الإحرام من الوقت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة من عرفات بعد المغرب والسنن، طواف القدوم والرمي في ثلاثة أشواط منه، والعدو في السعي بين العلمين، والإفاضة من مزدلفة قبل الطلوع، والإقامة بمنى أيام منى، وقال بعضهم السعي فرض، وقال بعض طواف القدوم واجب"^(٤).

واضح من خلال النص السابق أن المقدسي شرح شروحاً موجزاً لركن هام من أركان الإسلام، وجاءت كلماته معبرة وفي غاية الإيجاز وموضحة لشروط وواجبات فريضة الحج، كما أن المقدسي تطرق للمؤلفات السابقة محاولاً نقدها، فذكر أن " الجاحظ وابن خرداذبة فإن كتابيهما مختصران جداً لا يحصل منهما كثير فائدة"^(٥).

(١) المصدر نفسه، ص ٥، أنظر: محمد، دراسات في التراث، ص ٤٦.

(٢) المقدسي، أحسن، ص ١٩٧.

(٣) المقدسي، أحسن، ص ٩، أنظر: فاعور، المدينة العربية، ص ١١٢.

(٤) المقدسي، أحسن، ص ٧٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤-٥.

أنني جاسوس، وعانيت حرب الروم في الشواني وضرب النواقيس في الليالي، وجلدت المصاحف بالكرى واشترت الماء بالغلاء، وركبت الكنائس والخيول، ومشيت في السمائم والثلوج، ونزلت في عرصة الملوك بين الأجلة، وسكنت بين الجهال في محلة الحاكة، وكم نلت العز والرفعة، ودبر في قتلي غير مرة، وحجبت وجاورت وغزوت ورابطت وشربت بمكة من السقاية السويق، وأكلت الخبز والجلبان بالسويق، ومن ضيافة إبراهيم الخليل، وجميز عسقلان السبيل، وكسيت خلع الملوك، وأمروا لي بالصلوات وعريت وافتقرت مرات، وكاتبني السادات ووبخني الأشراف، وعرضت على الأوقاف، وخضعت للأخلاق، ورميت بالبدع، واتهمت بالطمع، وأقامني الأمراء والقضاة أميناً، ودخلت في الوصايا، وجعلت وكيلاً، وامتحننت الطراريين، ورأيت دول العيارين، واتبعتي الأزدلون، وعاندني الحاسدون، وسعي بي إلى السلاطين، ودخلت حمامات طبرية، والقلاع الفارسية، ورأيت يوم الفوارة، وعيد بربارة، وبئر بضاعة، وقصر يعقوب وضياعه^(١).

أما كتابه فقد جاء متضمناً الكثير من المعلومات القيمة عن البلاد التي زارها ومكث بها، وقد وضع كتابه في مسودتين الأولى سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥-٩٨٦م، بينما الثانية فقد تم الانتهاء منها بعد وضع المسودة الأولى بثلاثة سنوات أي سنة ٣٨٧هـ/٩٨٨-٩٩٩م، وقد رفع الأولى لآل سامان، والثانية للفاطميين^(٢).

وقد بدأ المقدسي كتابه إقليم جزيرة العرب نظراً لما لها من خصائص، منها أن بها بيت الله الحرام، ومدينة النبي عليه السلام، ومنها انتشر دين الإسلام، وفيها كل الخلفاء الراشدين والأنصار والمهاجرون، وبها عقدت رايات المسلمين، وقويت أمور الدين، وأيضاً فإن بها المشاعر والمناسك والمواقيت والمناحر، ثم أنها عشرية قد ذكرها الأئمة في دواوينهم، ولا بد للمدرسين من معرفتها في شروحهم، ولأن منها دحيث الأرض ودعا إبراهيم الخلق^(٣).

(١) المقدسي، أحسن، ص ٤٤-٤٥.

(٢) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٢٠٩-٢١٠.

(٣) المقدسي، أحسن، ص ٦٧.

وقد ذكر المقدسي الأقاليم الإسلامية وحدودها، فقال عن "إقليم مصر يأخذ من البحر الرومي طويلاً إلى بلد النوبة، ويقع بين بحر القلزم وتخوم المغرب ... ويمتد إقليم الشام من تخوم مصر نحو الشمال إلى بلد الروم، فيقع بين بحر الروم وبادية العرب"^(١). ونلاحظ أن المقدسي قد رسم حدود واضحة لأقاليم الدولة الإسلامية، من خلال تتبع الحدود التي رسمها، ويبدو واضحاً بأنه استوعب أقاليم الدولة بشكل واضح نظراً لرحلاته وجولاته الميدانية المستمرة.

واختلف المقدسي عن غيره من الجغرافيين السابقين في تقسيمه للأقاليم، وما ذكره عنها من معلومات قيمة، نتيجة رحلاته الميدانية للأقاليم، وسماعه من أهلها واختلاطه بهم، ومشاهدة كل ذلك بنفسه، فقد ذكر عن إقليم العراق أن "أكثر الناس لا يعلمون أين بابل ألا ترى إلى جواب أبي بكر لعمر لما سأله أن يبعث جيوشه إلى هذه الناحية، فقال لأن يفتح الله على يدي شبراً من الأرض المقدسة أحب إليّ من رستاق من رساتيق العراق ولم يقل رساتيق بابل"^(٢) ويتضح من ما سبق أن المقدسي قد أطلق إقليم العراق بدلاً من إقليم بابل الذي ذكره الجيهاني، ولم يعتمد ما قاله سابقه، ولم يطلق عليه بابل الناس في زمانه، ذكروا بأنه إقليم العراق، وأما بابل فلم يذكروها البتة.

اتصف كتابه بالبساطة والوضوح في الأسلوب، من أجل أن "يقرب الوصف إلى الإفهام، ويقف عليه الخاص والعام"^(٣). كما أعرض عما ذكره غيره من المؤلفين السابقين من اطلع على مؤلفاتهم، قد ذكر بأن كتاب الجيهاني احتوى على جميع أصل كتاب ابن خردادبه، علاوة على أن كتاب ابن الفقيه مشابه لكتاب الجاحظ، في حين أن كتابه ينفرد عنها بما وصل إليه من مشاهدة وترحال وتنقل بين بلاد الإسلام، وهذا واضح من قوله: "فرايت أن أقصد علماً قد أغفلوه، وانفرد بفن لم يذكروه"^(٤).

(١) المصدر نفسه، ص ٦٢-٩٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩.

(٤) المقدسي، أحسن، ص ١.

ويضيف قائلاً: "وأما ابن الفقيه الهمداني فإنه سلك طريقة أخرى ولم يذكر إلى المدائن العظمى ... وأدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم"^(١).

واجتهد المقدسي قدر الإمكان بأن لا يذكر شيئاً قد سبق ذكره، ولا يذكر أمراً إلا عند الضرورة، وقال: "اجتهدنا في أن لا نذكر شيئاً قد سطره، ولا نشرح أمراً قد أوردوه إلا عند الضرورة لئلا نبخس حقوقهم، ولا نسرق من تصانيفهم"^(٢).

امتاز بذكره للأسماء التي يختلف فيها أهل البلاد والأقاليم، حتى لا يحدث الالتباس بين سكان العالم الإسلامي، فمثلاً ذكر أن مدينة السوس كورة بأقصى المغرب وأخرى بهيطل بخوزستان^(٣)، كما اشتمل كتابه على الطرق والمسالك التي تربط بين أجزاء الدولة الإسلامية، مع الاهتمام بذكر المسافات بين مدن الأقاليم^(٤).

وقد فضل المقدسي استخدام كور الأقاليم بدلاً من أجناد، مما جعله ينفرد عن غيره من الجغرافيين بهذا المجال، ولم يسبقه أحد إلى هذا العمل، مما أعطى كتابه أهمية خاصة^(٥). علاوة على تقسيمه مملكة الإسلام إلى أربعة عشر إقليماً، وفصل أقاليم العجم عن أقاليم العرب، ثم حدد كور كل إقليم، وذكر أمصارها وقصباتها، إضافة إلى ترتيب مدن الأقاليم وأجنادها^(٦).

(١) المصدر نفسه، ص ٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦.

(٣) المقدسي، أحسن، ص ٢٥، خوزستان: بضم أوله، وهو اسم لجميع بلاد الخوز، والخوز هم أهل خوزستان ونواحي الأهواز بين فارس والبصرة وواسط وجبال اللور المجاورة لأصبهان، أنظر: ياقوت، معجم، مج ٢ ص ٤٠٤-٤٠٥.

(٤) المقدسي، أحسن، ص ٦٣-٦٤، ١٩٠-١٩٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢.

(٦) المصدر نفسه، ص ٤، ٩.

بينما ذكر في مقدمة كتابه أنه لابد من كتاب قيم ينتفع به الخلق، ويرجع إليه طلبة العلم للاستفادة منه، وقد قال في ذلك: "فإنه ما زالت العلماء ترغب في تصنيف الكتب لئلا تدرس آثارهم، ولا تنقطع أخبارهم، فأحببت أن اتبع سننهم، وأقفوا سننهم، وأقيم علماً أحبي به ذكري، ونفعاً للخلق أرضي به ربي"^(١).

وواضح مدى التناقض بين النصين السابقين، حيث يذكر في النص الثاني أنه يريد خدمة الناس على طبقاتهم، وتقديم فائدة للجميع، في حين في النص الأول لم يذكر مملكة الكفار، ولم ير فائدة في ذكرها على الرغم من معرفته بها. بعد الاطلاع على كتاب المقدسي نلاحظ أنه يعد مصدراً تاريخياً إلى جانب كونه مصدراً جغرافياً، حيث وردت به الكثير من الإشارات التاريخية والاقتصادية والاجتماعية، أما منهجه فقد تميز بما يلي:

اعتماده على مصادر متعددة، نذكر أنه تأثر بالمؤلفين السابقين أمثال الجاحظ (٢٥٥هـ/٨٦٩م) وكتابه الأمصار وعجائب البلدان، وابن خردادبة (٢٧٢هـ/٨٨٤م) المسالك والممالك، وكتاب ابن الفقيه الهمداني (ت ٢٩٠هـ/٩٠٢-٩٠٣م) المسالك والممالك، وكتاب قدامة بن جعفر (ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م) الخراج وصناعة الكتابة، وكتاب أبي زيد البلخي (ت ٣٢٢هـ/٩٣٤م) صور الأقاليم، كما اطلع على كتاب البلاذري^(٢).

وقد اطلع المقدسي على المصادر المتنوعة الموجودة في خزائن الملوك ومكتباتهم، وهي ذات فائدة كبرى له، فقد قال: لم نسطر شيئاً قد ذكره، ولا نعترض لأمر قد أوردوه، لأن العلم في هذا الباب عندنا أوسع من أن نكرره أو ننقله من كتاب أو نسرقه^(٣). وواضح مدى أمانة المقدسي العلمية فيما ينقل بقوله:

"وما لم يقر في قلبي ولم يقبله عقلي أسندته إلى الذي ذكره"^(٤).

(١) المصدر نفسه، ص ١.

(٢) المقدسي، أحسن، ص ٤-٦، سالم، التاريخ والمؤرخون، ص ١٩١-١٩٢.

(٣) المقدسي، أحسن، ص ٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣.

وتتضح بعض الآراء الجغرافية والفلكية الخاصة بالمقدسي^(١)، فهو يعتقد بأن الأرض كرة موضوعة في جوف كالمحة في جوف البيضة^(٢)، علاوة على تقسيمه الأرض إلى قسمين، نصف الكرة الشمالي، ونصف الكرة الجنوبي، يفصل بينهما خط الإستواء^(٣).

اهتم المقدسي بذكره خصائص أقاليم العالم الإسلامي واختلافها عن الأقاليم الأخرى^(٤)، فقد قال عن جزيرة العرب مثلاً بأنها: "أشد حراً وقحطاً"^(٥)، في حين وصف مسقط رأسه بيت المقدس بأنها "لا شديدة البرد وليس بها حر"^(٦).

انفرد المقدسي عن غيره بذكر باباً للبحار والأنهار نظراً للحاجة الماسة إليها، فهناك بحرين، أحدهما يقع بين السودان والصين، ويدور حول جزيرة العرب، والثاني يخرج من المحيط الأطلسي حتى بلاد الشام^(٧).

اشتمل كتابه على فصل كامل عن ذكر المذاهب الشائعة في مملكة الإسلام، وحددها بثمانية وعشرين مذهباً، أربعة في الفقه، وأربعة في الكلام، وأربعة في الحكم بينهما، وأربعة مندرسة، وأربعة في الحديث، وأربعة غلب عليها أربعة، وأربعة رستاقية^(٨). في حين يؤخذ عليه عدم التعرض لممالك الكفار، لأنه لم يدخلها، ولم ير فائدة من ذكرها بقوله: "ولم نذكر إلا مملكة الإسلام، وحسب، ولم نتكلف ممالك الكفار لأنها لم ندخلها ولم نر فائدة في ذكرها"^(٩).

(١) المصدر نفسه، ص ٥٨، محمد، دراسات في التراث، ص ٤٦.

(٢) المقدسي، أحسن، ص ٥٨، صالحة وآخرون، الموسوعة الفلسطينية، مج ٣ ص ٣٦٥-٣٦٦.

(٣) المقدسي، أحسن، ص ٥٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٢-٣٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٣، محمد، دراسات في التراث، ص ٤٧.

(٦) المقدسي، أحسن، ص ١٦٥.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٠-٢٤.

(٨) المقدسي، أحسن، ص ٣٧.

(٩) المصدر نفسه، ص ٩، أنظر: متر، الحضارة الإسلامية، مج ٢ ص ١١.

وتتضح بعض الآراء الجغرافية والفلكية الخاصة بالمقدسي^(١)، فهو يعتقد بأن الأرض كرة موضوعة في جوف كالمحة في جوف البيضة^(٢)، علاوة على تقسيمه الأرض إلى قسمين، نصف الكرة الشمالي، ونصف الكرة الجنوبي، يفصل بينهما خط الإستواء^(٣).

اهتم المقدسي بذكره خصائص أقاليم العالم الإسلامي واختلافها عن الأقاليم الأخرى^(٤)، فقد قال عن جزيرة العرب مثلاً بأنها: "أشد حراً وقحطاً"^(٥)، في حين وصف مسقط رأسه بيت المقدس بأنها "لا شديدة البرد وليس بها حر"^(٦). انفرد المقدسي عن غيره بذكر باباً للبحار والأنهار نظراً للحاجة الماسة إليها، فهناك بحرين، أحدهما يقع بين السودان والصين، ويدور حول جزيرة العرب، والثاني يخرج من المحيط الأطلسي حتى بلاد الشام^(٧).

اشتمل كتابه على فصل كامل عن ذكر المذاهب الشائعة في مملكة الإسلام، وحددها بثمانية وعشرين مذهباً، أربعة في الفقه، وأربعة في الكلام، وأربعة في الحكم بينهما، وأربعة مندرسة، وأربعة في الحديث، وأربعة غلب عليها أربعة، وأربعة رستاقية^(٨). في حين يؤخذ عليه عدم التعرض لممالك الكفار، لأنه لم يدخلها، ولم ير فائدة من ذكرها بقوله: "ولم نذكر إلا مملكة الإسلام، وحسب، ولم نتكلف ممالك الكفار لأنها لم ندخلها ولم نر فائدة في ذكرها"^(٩).

(١) المصدر نفسه، ص ٥٨، محمد، دراسات في التراث، ص ٤٦.

(٢) المقدسي، أحسن، ص ٥٨، صالحة وآخرون، الموسوعة الفلسطينية، مج ٣ ق ٢ ص ٣٦٥-٣٦٦.

(٣) المقدسي، أحسن، ص ٥٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٦-٣٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٣، محمد، دراسات في التراث، ص ٤٧.

(٦) المقدسي، أحسن، ص ١٦٥.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٠-٢٤.

(٨) المقدسي، أحسن، ص ٣٧.

(٩) المصدر نفسه، ص ٩، أنظر: متز، الحضارة الإسلامية، مج ٢ ص ١١.

بينما ذكر في مقدمة كتابه أنه لابد من كتاب قيم ينتفع به الخلق، ويرجع إليه طلبة العلم للاستفادة منه، وقد قال في ذلك: "فإنه ما زالت العلماء ترغب في تصنيف الكتب لئلا تدرس آثارهم، ولا تتقطع أخبارهم، فأحببت أن اتبع سننهم، وأقفوا سننهم، وأقيم علماً أحيي به ذكري، ونفعاً للخلق أرضي به ربي"^(١).

وواضح مدى التناقض بين النصين السابقين، حيث يذكر في النص الثاني أنه يريد خدمة الناس على طبقاتهم، وتقديم فائدة للجميع، في حين في النص الأول لم يذكر مملكة الكفار، ولم ير فائدة في ذكرها على الرغم من معرفته بها.

بعد الاطلاع على كتاب المقدسي نلاحظ أنه يعد مصدراً تاريخياً إلى جانب كونه مصدراً جغرافياً، حيث وردت به الكثير من الإشارات التاريخية والاقتصادية والاجتماعية، أما منهجه فقد تميز بما يلي:

اعتماده على مصادر متعددة، نذكر أنه تأثر بالمؤلفين السابقين أمثال الجاحظ (٢٥٥هـ/٨٦٩م) وكتابه الأمصار وعجائب البلدان، وابن خردادبة (٢٧٢هـ/٨٨٤م) المسالك والممالك، وكتاب ابن الفقيه الهمداني (ت ٢٩٠هـ/٩٠٢-٩٠٣م) المسالك والممالك، وكتاب قدامة بن جعفر (ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م) الخراج وصناعة الكتابة، وكتاب أبي زيد البلخي (ت ٣٢٢هـ/٩٣٤م) صور الأقاليم، كما اطلع على كتاب البلاذري^(٢).

وقد اطلع المقدسي على المصادر المتنوعة الموجودة في خزائن الملوك ومكتباتهم، وهي ذات فائدة كبرى له، فقد قال: لم نسطر شيئاً قد ذكره، ولا نعترض لأمر قد أوردوه، لأن العلم في هذا الباب عندنا أوسع من أن نكرره أو ننقله من كتاب أو نسرقه^(٣). وواضح مدى أمانة المقدسي العلمية فيما ينقل بقوله:

"وما لم يقر في قلبي ولم يقبله عقلي أسندته إلى الذي ذكره"^(٤).

(١) المصدر نفسه، ص ١.

(٢) المقدسي، أحسن، ص ٤-٦، سالم، التاريخ والمؤرخون، ص ١٩١-١٩٢.

(٣) المقدسي، أحسن، ص ٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣.

وقد زار المقدسي الأماكن والمواقع حتى يتحقق من الأمور، فجاءت معلوماته دقيقة نتيجة جولاته في الأقطار، والمواقع، ومشاهدته للأقاليم، ومقابلة العلماء الأجلاء، وخدمته للملوك ومجالسته للقضاة، وتلمذه على أيدي الفقهاء، واختلاطه بالأدباء والقراء وكتبه الأحاديث، واختلاطه بالزهاد والمتصوفين، واجتماعه بمجالس القصاص، عمل بالتجارة في البلاد التي مر بها، كما قدر مساحة الأقاليم بالفراسخ^(١). ويتضح ذلك من قوله " وما تم لي جمعه إلا بعد جولاتي في البلدان، ودخولي أقاليم الإسلام، ولقائي العلماء، وخدمتي الملوك، ومجالستي القضاة، ودرسي على الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقراء، وكتابة الحديث، ومخالطة الزهاد والمتصوفين، وحضور مجالس القصاص والمذكرين، مع لزوم التجارة في كل بلد، والمعاشرة مع كل أحد، والتفطن في هذه الأسباب بفهم قوي حتى عرفتها، ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها "^(٢).

تجول المقدسي في البلاد والأقاليم، وسمع الكثير من الأقوال، ولكنه اعتمد على مصادر موثوقة لم يثبت إلا ما أخذه من الرجال النقات، وإذا شك في أمر لم يقبله عقله أو يقره قلبه أرجعه إلى قائله، وهذا واضح من قوله : "تجنب الكذب والطغيان، وتحززت بالحجج من الطعان، ولم أودعه المجاز والمحال، ولا سمعت إلا قول النقات من الرجال" (٣) .

علاوة على قوله : "أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة، وأسندته بدعائم قوية، وتحريت جهدي الصواب، واستعنت بفهم أولي الألباب"^(٤)، وذكر في موضع آخر : "سؤال ذوي العقول من الناس"^(٥).

(١) الفرسخ يتألف من ٣ أميال، أي أن طول الفرسخ ٦ كم، أنظر: هنتس، المكايل، ص ٩٤، أحمد، الرحلة والرحالة، ص ١٣٢.

(٢) المقدسي، أحسن، ص ٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣.

(٤) المقدسي، أحسن، ص ٣

(٥) المصدر نفسه، ص ٣.

كثيراً ما لجأ المقدسي إلى المشاهدة والاطلاع بدلاً من السماع والنقل، فخروجه للاطلاع على منطقة أو إقليم يريد الكتابة عنه، تعطيه الدقة في التعبير، اختيار الألفاظ المناسبة التي تتناسب مع ذلك وقد قال : " وقد ذكرنا ما رأيناه، وحكيما ما سمعناه، فما صح عندنا بالمعينة وأخبار التواتر أرسلنا به القول، وما شككنا فيه أو كان ممن طريق الأحاد أسندناه إلى الذي منه سمعناه، ولم نذكر في كتابنا إلا صدراً مشهوراً أو عالماً مذكوراً، أو سلطاناً جليلاً، إلا عند ضرورة أو خلال حكاية ولوقارة ذلك نسميه رجلاً ونذكر محله لئلا يدخل في جملة الأجلة، واعلم أنني مع هذه الوثائق والشروط، لم أظهره حتى بلغت الأربعين ووطئت جميع الأقاليم وخدمة أهل العلم والدين" (١)

وقال: "وسألت الله عزَّ اسمه أن يجنبني الخطأ والزلل، وبيلغني الرجاء والأمل فأعلي قواعده، وأرصف بنيانه ما شاهدته وعقلته، وعرفته وعلَّقته، وعليه رفعت البنيان وعملت الدعائم والأركان"^(٢).

وذكر أيضاً : "ليعلم الناظر في كتابنا أنا لم نصنفه جزافاً، ولا رتبناه مجازاً ويميزه من غيره، فكم بين من قاسى هذه الأسباب، وبين من صنف كتابه في الرفاهية، ووضعه على السماع"^(٣).

وذكر المقدسي في حديثه عن اليمن : "واعلم أن اليمن موضع واسع، وقد أقمت به حولاً كاملاً، ودخلت هذه البلدان التي وصفت، وغاب عني منه الكثير"^(٤). بينما ذكر عن إقليم السند "أني قد درت على تخوم هذه الإقليم، وبلغت سواحله كلها، ورأيت وسمعت ما سأذكره، وأكثرت السؤال عن أساميهِ، وتفحصت عن أخباره، وعرفت مدنه، ومع هذا فلا أضمن وصفه، ما أضمن من غيره، ولا أصف إلا أمصاره، ولا استقصي في شرحه"^(٥).

(١) المصدر نفسه، ص ٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٧٥.

المصادر التاريخية الأخرى^(١). علاوة على أهمية معلوماته بحكم كونه من أهل الشام وخصوصاً من بيت المقدس، حيث تميزت بالدقة، لأنه جمعها بنفسه وشاهدها بعينه^(٢) كما تحدث المقدسي عن تنظيم الدعوة العباسية فيقول: "أما الكوفة وسوادها فشيعة علي، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف، وأما الجزيرة فحرورية صادقة وأعراب كأعلاج ومسلمون في أخلاق النصارى، وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية، وطاعة بني أمية وعداوة راسخة وجهل متراكم، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان، وأن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء"^(٣). وواضح مدى اهتمام المقدسي بدراسة تاريخ الدولة العباسية وغيرها من الدول الأخرى.

أما بالنسبة للخرائط، فنلاحظ أن كتابه يخلو تماماً من خرائط، ولكن هناك دلائل تشير إلى أنه رسم خرائط متعددة، بعد اطلاعه على خرائط سابقه، فكانت خرائطه أفضل من خرائط سابقه، وما يؤكد أنه رسم خرائط حيث قال في وصف كتابه: "وطولناه بوصف المدن لمعان شتى، وذكرنا الشؤون لفوائد لا تخفى، وأوضحنا الطرق لأن الحاجة إليها أشد، وصورنا الأقاليم لأن المعرفة بها أروج"^(٤) كما قال في ذكر مملكة الإسلام: "وسنجهت في تقريب الوصف وتصويره لذوي العقول والإفهام إن شاء الله تعالى"^(٥)، كما قال عن إقليم الشام: "قد قسمنا الإقليم ورسمنا الحدود فلا ينبغي لنا أن ندخل في إقليم غيره"^(٦)، وذكر في موضع آخر: "ورتبنا مدنها وأجنادها بعد ما مثلناها ورسمنا حدودها"^(٧). وأشار المقدسي في حديثه عن البحار: "وقد اختلف الناس في وصفه والمصورون في تمثيله... ورأيت معهم

كثيراً ما لجأ المقدسي للتحري والاستفسار والسؤال من أهل العلم والمعرفة، حتى لدرجة أن جاءت معلوماته في غاية الدقة والصواب، وقال في ذلك: "ومن قواعده أيضاً وأركانها ما استعنت به على تبيانها، سؤال ذوي العقول من الناس، ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس، عن الكور والأعمال في الأطراف التي بعدت عنها، ولم يتقدر لي الوصول إليها، فما وقع عليه اتفاقهم أثبتته، وما اختلفوا فيه نبذته، وما لم يكن لي بد من الوصول إليه والوقوف عليه قصدته، وما لم يقر في قلبي ولم يقبله عقلي أسندته إلى الذي ذكره، أو قلت زعموا، وشحنته بفصول وجدتها في خزائن الملوك"^(٨).

يعد كتاب المقدسي مصدراً لا غنى عنه للباحث في التاريخ الاقتصادي للدولة الإسلامية، فهو يعطي معلومات عن النشاط الزراعي في دولة الإسلام فقد ذكر عن عمان بأنها: "ذات قرى ومزارع رستاقها البلقاء معدن الحبوب والأغنام بها عدة أنهار"^(٩).

أما عن النشاط التجاري فقد ذكر مثلاً عن أن من صادرات فلسطين الكثير من السلع بقوله: "يرتفع من فلسطين الزيت والقطن والزبيب... إلخ"^(١٠). كما ذكر شيئاً عن النشاط الصناعي بإقليم الشام وقال أن: "أكثر الجهابذة والصباغين والصاريفه والدباغين بهذا الإقليم يهود، وأكثر الأطباء والكتبة نصارى"^(١١)، وقال أيضاً عن الشام: "وبه معادن الرخام وعقاقير كل دواء ويسار وتجار، ولباقة وفقهاء وكتاب وصنّاع وأطباء"^(١٢).

ويشكل كتاب المقدسي مصدراً للباحث في تاريخ بيت المقدس الاقتصادي بصفة خاصة، والعالم الإسلامي بصفة عامة، فقد أورد فصلاً كاملاً عن إقليم الشام^(١٣)، كما تحدث بشكل خاص عن أوضاع بيت المقدس السياسية والاقتصادية والاجتماعية إضافة إلى النواحي الجغرافية. وتكمن أهمية هذه المعلومات في استكمال جوانب النقص في

(١) المقدسي، أحسن، ص ٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٨٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٨٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٥٢.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٥١-١٩٢.

(١) المصدر نفسه، ص ٢٩٣-٢٩٤. زنيد، التجارة في بلاد الشام، ص ١٩.

(٢) لسرآنج، بلدان، ص ٢٨، زنيد، التجارة في بلاد الشام، ص ١٧.

(٣) المقدسي، أحسن، ص ٢٩٣-٢٩٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٨، الشامي، الإسلام والفكر الجغرافي، ص ١٢٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٦٢.

(٦) المصدر نفسه، ص ٦٢.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٥٢.

مصادر ومراجع البحث

- أحمد، أحمد رمضان
الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع،
جدة، (د.ت).
- حميدة، عبد الرحمن
أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، ط ٣، دار الفكر بالاشتراك مع
دار الفكر المعاصر، دمشق/بيروت، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
- الزركلي، خير الدين
الأعلام، قاموس لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين
والمستشرقين، ٨ أجزاء، ط ٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م.
- زنيد، خالد أحمد سلمي
التجارة في بلاد الشام حتى نهاية العصر العباسي الأول، (رسالة ماجستير).
الجامعة الأردنية، عمان، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- سالم، السيد عبد العزيز
التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- الشامي، صلاح الدين
الإسلام والفكر الجغرافي العربي، منشأة دار المعارف، الإسكندرية، ١٨٧٨م.
- صالحية، محمد عيسى وآخرون
الموسوعة الفلسطينية، ٦ مجلدات، بيروت، ١٩٩٠م.
- العسلي، كامل جميل
القدس في التاريخ، منشورات الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، مطبعة
الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

دفاتر في ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ... ثم قال هذه صفة هذا البحر، لا صورة
له غيرها، أنا أصوره ساذجاً وأدع الشعب والخلجان إلا شعبة ويلة لشهرتها وشدة
الحاجة إلى معرفتها وكثرة الأسفار فيها وأدع ما اختلفوا فيه وأرسم ما اتفقوا عليه^(١).
وواضح مدى اهتمامه بالخرائط، وقد أرفق كتاباته بالخرائط مبيناً عليها مواقع
المدن التي زارها.

(١) المقدسي، أحسن، ص ١٠-١١.
(٢) المقدسي، أحسن، ص ١٠-١١.
(٣) المقدسي، أحسن، ص ١٠-١١.
(٤) المقدسي، أحسن، ص ١٠-١١.
(٥) المقدسي، أحسن، ص ١٠-١١.
(٦) المقدسي، أحسن، ص ١٠-١١.
(٧) المقدسي، أحسن، ص ١٠-١١.
(٨) المقدسي، أحسن، ص ١٠-١١.
(٩) المقدسي، أحسن، ص ١٠-١١.
(١٠) المقدسي، أحسن، ص ١٠-١١.

- فاعور، علي

المدينة العربية نشأتها وموقعها في كتابات الجغرافيين العرب، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع ١٢، مركز الإنماء القومي، بيروت، أيار، ١٩٨١م.

- هنتس، فالتر

المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٢م.

- كحالة، عمر رضا

معجم المؤلفين، تراجم مصنفى الكتب العربية، ١٤ جزء، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/دمشق، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.

- كراتشكو فسكي، اغناطيوس يوليانوفتش

تاريخ الأدب الجغرافي العربي، قسمان، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، مراجعة أيغور بليان، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٣-١٩٦٥م.

- لسترانج، كي :

بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

- منتر، آدم

الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، أو عصر النهضة في الإسلام، مجلدان، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، فهرسة رفعت البدرابي، ط ٤، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة بالاشتراك مع دار الكتاب العربي بيروت، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

- محمد، صباح محمود

دراسات في التراث الجغرافي العربي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، ودار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١م.

- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٣٩٠هـ/١٠٠٠م)

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق م. ج. ديه غوييه، بريل، ١٩٠٦، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة خياط ببيروت.

- ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي، (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م).

معجم البلدان، ٥ مجلدات، نشر دار صادر، بيروت، ١٩٧٩-١٩٨٦م.

مفهوم الجهاد عند صلاح الدين الأيوبي

جبر خضير

جامعة النجاح الوطنية

يقوم هذا البحث بمعالجة إشكالية طرحها المستشرق هاملتون جب في كتابه دراسات في حضارة الإسلام يقول فيها : "ليس صحيحاً بأن صلاح الدين حارب الفرنج في سبيل الإسلام، ولم يكن لهذه الحقيقة أي صلة بالموضوع. بل إن صلاح الدين كان من القادة الذين لا يحفزهم إلا الطموح الشخصي، وشهوة الفتح، ولا يفعلون شيئاً سوى استغلال الشعارات، والعواطف الدينية في سبيل تحقيق أهدافهم".

ولذا رغبت في تناول مفهوم الجهاد عن صلاح الدين الأيوبي، من خلال المصادر الأساسية التي تناولت شخصية صلاح الدين. منها : ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ. والذي استقى أكثر مرويَّاته، من كتب العماد الأصفهاني مع إضافات متعمدة لا تعطي صلاح الدين حقه، كما كان يتعامل معه من خلال سرد الأحداث والوقائع، ولكنه لم يخصص دراسة مستقلة عن صلاح الدين، أما ابن أبي طي فلم يصلنا من تاريخه إلا إشارات وفقرات متفرقة، وأوردها أبو شامة المقدسي في كتابه الروضتين في أخبار الدولتين.

وثالث مصادرنا هو العماد الأصفهاني في كتابيه البرق الشامي، وكتاب الفتح القسي في الفتح القدسي، وعماد الدين الكاتب كان من أشهر كتاب وأدباء ذلك العصر. إلا أنه كان يحتفل كثيراً بإبراز براعته في استخدام السجع والمحسنات البديعية، والكتاب مصدر مهم عن حياة صلاح الدين، إذ أن العماد في كتابه البرق الشامي بأنه ينهج أسلوب السير الذاتية، وهو يعرض لنا شخصيته صلاح الدين جليلاً بالسلطان وملازماً له.

لكم أهم مراجعنا في تناول مفهوم الجهاد عن صلاح بهاء الدين بن شداد في كتابه الموسوم بـ النوارد السلطانية والمحاسن اليوسفية والكتاب عبارة عن ترجمة وافية لسيرة صلاح الدين أوردها ابن شداد كونه قاضياً لجيوش صلاح الدين الأيوبي وشاهد عيان، تناول فيها مناحي النشاط العلمي في حياة صلاح الدين وقد نهج المؤلف أسلوب المعاش والمشارك في الوقائع والأحداث التي حدثت مع صلاح الدين فلقد لازمه حتى وفاته سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م. وهو من أهم المصادر التي تناولت سيرته.

يعد يوسف بن أيوب بن شادي، المعروف بـ صلاح الدين ٥٣٢ - ٥٨٩ هـ / ١١٣٧ - ١١٩٣ م من أشهر الشخصيات العسكرية والسياسية التي يتناولها الدارسون في تاريخ الإسلام، فقد تمكن من الانتصار على أمراء الداخل، فخضعوا له، وخدموه حين أدبهم وصحح اعوجاجهم واطمأعنهم الخبيثة. كذلك فقد تمكن من إلحاق الهزيمة بالباطنية، الذين عاثوا في الأرض فساداً وكانوا يتآمرون مع الفرنجة ضد المسلمين. وتوج تلك الانتصارات حينما تمكن من إلحاق الهزيمة بالغزاة الخارجين وهم الفرنج، الذين أتوا بحملاتهم وقدموا إلى بلاد الإسلام ظناً منهم أن نظامهم الفاسد وإقطاعهم وعقيدتهم المنحرفة ستزيل أعمدة الحق والإيمان، فكان صلاح الدين لهم بالمرصاد. وصفه ابن شداد فقال : " لقد رأيت أيام مولانا السلطان، الملك الناصر فكان جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصليبان، رافع علم العدل والإحسان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين، خادم الحرمين الشريفين أبي المظفر يوسف بن أيوب بن شادي". وكانت الطريق أمامه كثيرة الصعاب، مسدودة المسالك لا تجدي فيها الحيلة وحدها، ولا الحرب وحدها. بل لابد منهما معاً. فكان عليه أن يحارب باليدين ويقاوم أعداء الداخل والخارج، فاستمر يلقي العدو لقاءً بعد لقاء، والعدو لا ينقطع ولا يخمد، فهم محاربون أشداء وكانوا يقاتلون أشد قتال، ويناضلون أحد نضال.

وأخيراً توج انتصاره عليهم في معركة حطين، وتمكن بعدها من استرجاع بيت المقدس عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م.

وعرف عن صلاح الدين عزوفه عن الدنيا وإقباله على الله فقد رجع السلطان من إحدى غزواته إلى دمشق، وكان ذلك في المحرم سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م، وجد وكيل الخزانة قد بنى له داراً عظيمة بالقلعة، فغضب عليه وعزله. وقال : "أنا لم أخلق للمقام بدمشق، ولا بغيرها من البلاد، وإنما خلقنا لعبادة الله عز وجل، والجهاد في سبيله. وهذا الذي عملته مما يثبط النفوس ويقعدها".

إن هذا الرجل المتملق، أراد أن يقدم لصلاح الدين قصراً يتلذذ فيه، فكان عقابه من صلاح الدين أن عزله من منصبه.

ومن مظاهر الجهاد عنده :

* اعتماده على الله في النصر :

كان يقينه على الله كبير . فالنصر من الله. وحينما نصر الله صلاح الدين دين برفع رأيه الجهاد ذروة سنام الإسلام أعزه الله. وكتب له النصر وفتح بيت المقدس على يديه.

* الإعداد الكامل للمعارك والقتال :

وكان يباشر بنفسه في استنهاض المسلمين وحثهم على الجهاد، ويطوف بين الناس وينادي يا للإسلام، وكان يقود الجيوش والمعارك بنفسه، كذلك كان يقوم بتصنيع السلاح والمدافع المحتوية على الزيت والنار لقذف سفن الفرنج.

* توحيد البلاد تحت قيادته :

أيقن صلاح الدين أن مفتاح النصر يكمن في الوحدة، ولهذا فقد عزم على توحيد مصر والشام والعراق واليمن والحجاز تحت قيادته. فكان له ما أراد. وكان ذلك من عوامل الانتصار في المعارك.

* إثارة الرعب والهلع في نفوس الفرنج :

فقد اتفق أنه كان يأمر بقتل الداوية والاسبتارية ولا يقبل الأسر لهم لشدة عداوتهم للمسلمين، وقد أمر بقتل مني منهم قبل معركة حطين. وكذلك قتله أرنات حينما أمسك به لغدره بالمسلمين، كي يثير الرعب في نفوسهم .

لقد تعددت جوانب شخصية صلاح الدين، فهو السلطان المظفر والقائد العسكري الفذ والسياسي المحنك.

وتتمحور هذه الدراسة في عدة جوانب هي :

أولاً : المؤثرات الجهادية

لقد كان للتنشئة التي عاشها صلاح الدين أكبر الأثر في تشكيل شخصيته العسكرية، والجهادية، فقد ولد عام ٥٣٢هـ / ١١٣٧م في تكريت . وترى في أسرة عرفت بالإمارة والفروسية . وعاش في زمن السلطان نور الدين زنكي الذي قيل عنه أنه قال : إني لاستحي من الله أن يراني مبتسماً . والمسلمون يحاصرون بالفرنج . كما كان والده أيوب بن شادي من أمراء الجهاد، وكذا كان عمه أسد الدين شيركوه . وأورد ابن جبير عن صلاح الدين فقال : "لقد كان صلاح الدين اسماً وافق مسماه، ولفظ طابق معناه، وما سوى ذلك في سواه، فزعازع ريح، وشهادات يردها التجريح، ودعوى نسبة للدين، برحت به أي تبريح.

ألقاب مملكة في غير موضعها كالأهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

ثانياً : التزامه بقواعد الدين

لقد ترسخت العقيدة الإسلامية الصحيحة في عقل صلاح الدين وقلبه فكان لها أكبر الأثر في بناء شخصيته المسلمة وتجذرها في سبيل نصرته الإسلام والدفاع عن حياض الأمة . فكان حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى . قد أخذ عقيدته عن الدليل بوساطة البحث مع مشايخ أهل العلم، وأكابر الفقهاء . وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه . وفي ذلك يقول ابن شداد عنه " بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء، فتنصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه موافقة لقانون النظر الصحيح، مرضية عن أكابر العلماء " .

لقد ظهرت عقيدته هذه على عبادته وسلوكه وجهاده المشتركين فأما الصلاة : فإنه كان شديد المواظبة عليها بالجماعة، حتى أنه ذكر يوماً أن له سنين ما صلى إلا جماعة حتى في مرضه . كما كان يواظب على السنن الرواتب، وقيام الليل.

وأما الزكاة : فإن صلاح الدين مات، رحمه الله، ولم يحفظ ما وجبت عليه الزكاة. وتصدق بجميع ما يملكه . وفي ذلك يقول ابن شداد عنه : " مات صلاح الدين ولم يخلف مئكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً، ولا قرية، ولا مزرعة، ولا شيئاً من أنواع الأملاك " .

وأما صوم رمضان : فإنه مات وعليه فوائت بسبب الجهاد والمرض .

وأما الحج : فإن جهاد الفرنج منعه من تأديته، ولكنه لم يزل عازماً عليه وناوياً له . سيما في العام الذي توفي فيه.

ثالثاً : تعظيمه الدين

كان يحب سماع القرآن العظيم، ويشترط في إمامه أن يكون عالماً بعلوم القرآن العظيم، متقناً لحفظه . وكان رحمه الله، رقيق القلب، خاشع الدمعة.

رابعاً : حقيقة الجهاد في نظره

لقد كان صلاح الدين يعظم شعائر الدين وكتاب الله العظيم . فكان حسن الظن بالله . كثير الاعتماد عليه، مما حوى به لتفهم حقيقة الجهاد، كما أراده الإسلام العظيم، وكما شرعه رب العزة في قرآنه . فلقد احتل الجهاد صفحات كثيرة في القرآن العظيم، فالحق لا بد له من قوة تحميه، وكم من باطل رفع لأن له أنصاراً ورجالاً يضمنون من أجله .

والجهاد يقوم على ركنين هما : الصبر، الذي يظهر شجاعة القلب والجنان والكرم : وهو بذل المال والروح . والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

والجهاد نوعان :

١ . طلب الكفار في بلادهم . وهو فرض كفاية . وأقلها سد الثغور بالمؤمنين لإرهاب أعداء الله . وإرسال جيش في السنة على الأقل .

٢ . جهاد الدفع (دفع الكفار من بلادنا) . وهذا يكون فرض عين . بل أهم فروض العين ويتعين في حالات :

أ . إذا دخل الكفار بلدة من بلاد المسلمين .

ب . إذا التقى الصفان، وتقابل الزحفان .

ج . إذا استنفر الإمام أفراداً أو أقواماً وجب عليهم النفير .

د . إذا أسر الكفار مجموعة من المسلمين .

الحالة الأولى : دخول الكفار بلدة من بلاد المسلمين، ففي هذه الحالة، اتفق السلف والخلف وفقهاء المذاهب الأربعة والمحدثون والمفسرون إطلاقاً : "أن الجهاد في هذه الحالة يصبح فرض عين على هذه البلدة التي هاجمها الكفار، وعلى من قرب منهم، بحيث يخرج الولد دون إذن والده. والزوجة دون إذن زوجها. والمدين دون إذن دائته". وهو ما عمل به صلاح الدين وطبقه.

يقول ابن تيمية : "وأما قتال الدفع، فهو أشد أنواع ودفع الصائل عن الحرمه والدين واجب إجماعاً. فالعدو الصائل الذي يفسر الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه". قال تعالى في سورة التوبة : "قتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم، وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين"، "إلا تتفروا يعذبكم عذاباً أليماً، ويستبدل قوماً غيركم".

وعن مفهوم الجهاد قال الأصوليون : الجهاد دعوة قهرية، فتجب إقامته بقدر الإمكان حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسالم .

وقد أخذ صلاح الدين مفهوم الجهاد كما أراد رب العالمين، وترسخ في قلبه ووجدانه. فصار الجهاد شغله الشاغل.

واهتم صلاح الدين بالجهاد استجابة لقول رب العالمين : "والذين جاهدوا فينا لنهديم سبلنا. وأن الله مع المحسنين".

وعن مفهوم الجهاد يقول صلاح الدين : قد أمرنا الله بالجهاد لأعداء الدين، وافترضه علينا فنحن قائمون في طاعته بأداء ما افترض علينا منه، وهو الذي يقدرنا على فتح البلد ولو اجتمع علينا أهل الأرض لتوكلنا عليه تعالى".

ولقد كان صلاح الدين كما يقول ابن شداد : "شديد المواظبة على الجهاد عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الإرفاد لصرف وبر في يمينه".

"ولقد كان الجهاد حبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوارحه استيلاء عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه. ولا نظر إلا في آتته. ولا كان له اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحثه عليه. ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله ووطنه وسكنه وسائر ملاذه. وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة".

"وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد أو يذكر شيئاً من أخبار الجهاد . ولقد ألف له كتب عدة في الجهاد، وكان يطالعها دائماً".

خامساً : شجاعته

ولقد كان صلاح الدين من عظماء الشجعان، قوي النفس، شديد البأس، عظيم الثبات، لا يهوله أمر، ولما كان الصبر من أهم أركان الجهاد فكان صلاح الدين يتميز بقوة الصبر وتحمله الأخطار والمعارك وعن رباطته أورد ابن شداد وقائع وأحداثاً كثيرة تدل على شجاعته وتحمله، فقال : "ولقد وصل في ليلة واحدة منهم سبعون مركباً على عكا . وأنا أعدةا من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس . وهو لا يزداد إلا قوة نفس".

ومن شجاعته أنه كان لا بد له من أن يطوف العدو في كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريباً منهم . وكان إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد، ويحرق العساكر من الميمنة والميسرة . ويرتب الأطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف . وكان يشارف العدو ويحاوره .

ويقول عنه ابن شداد : وما رأيته استكثر العدو أصلاً . ولا استعظم أمرهم قط.

فتح بيت المقدس

خاض صلاح الدين أكثر من سبعين معركة ضد الفرنج، غير تلك المعارك التي خاضها ضد أمراء الدنيا وسلطينها ومحاربة الباطنية. فبعد انتصاره في معركة حطين توجه إلى بيت المقدس لفتحها، كيف لا والمسجد الأقصى أرض الإسراء. والمسجد المؤسس على التقوى، وهو مقام الأنبياء، وموقف الأولياء وبعد الأتقياء. وحذار إبدال الأرض وملائكة السماء . ومنه المحشر والمنشر.

روى أن صلاح الدين تباطأ بعد معركة حطين في فتح بيت المقدس لما كان يعلم من قوة الفرنج فيها فأرسل إليه شاب مأسور في بيت المقدس بهذه الأبيات الشعرية :

لمعالم الصليبان نكس

تسعى من البيت المقدس

وأنا على شرفي منكس

يا أيها الملك الذي

جاءت إليك ظلامه

كل المساجد ظهرت

تحرير القدس في عهد صلاح الدين الأيوبي وانعكاساته على الوضعين

العربي والأوروبي

الدكتور طارق فتحي الديلمي

جامعة الموصل

يعد تحرير مدينة القدس في عهد القائد صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م إنجازاً عظيماً ضد الوجود الفرنجي في بلاد الشام فبعد هذا الانتصار، وجد صلاح الدين أن من الأفضل له استثمار هذا الانتصار بالتوجه إلى مدينة طبرية ومحاصرتها وأمن ملكيتها إشيافيا زوجة ريموند الثالث، ثم استمر إلى مدينة عكا وهذه التفاته مهمة لأنها تتيح له الاستيلاء على المدن الساحلية التي كانت على اتصال بالحملة الفرنجية وعندما علم حاكمها جوسلين الثالث دي كورتناي تقدم القوات الإسلامية، أعلن استسلامه وأرسل مفاتيح مدينة عكا بشرط تأمين أهلها على أرواحهم وممتلكاتهم إلى القائد صلاح الدين الأيوبي .

وتبعت عكا مدن أخرى بالسقوط مثل : الناصرة، قيسارية، حيفا، صفورية، معلية الشقيف، القولة، الطور، مجدل يابا، نابلس، يافا، سبسطية، قلعة تبنين، صرند، صيدا، بيروت، جبيل، الرملة، بينا، غزة، النطرون، بيت جبرين وعسقلان حلقة للوصل بين مصر والشام .

أما مدينة القدس فقد أطلق صلاح الدين الأيوبي الأمير الأسير باليان الثاني دي ابلين ابن بارزان في المصادر العربية والذي تزوج من أرملة عموري الأول ملك بيت المقدس، لأخذ زوجته من مدينة القدس دون أن يبقى فيها ليلة واحدة، ولكن باليان الثاني نكث بوعده وأخذ يعد العدة لمواجهة صلاح الدين الأيوبي وقام بتحسين المدينة، فاستعد له صلاح الدين وقام بحصارها ودخلها يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ٥٨٣هـ/ ١٢ تشرين الأول ١١٨٧م .

وقد ترتب على الفتح القيام بعدة إجراءات منها تقسيم الفرنج إلى ثلاثة مجموعات لغرض مغادرتهم بيت المقدس، فقاد المجموعة الأولى الداوية، أما الثانية فقد قادها الإسماعيلية وقاد المجموعة الثالثة باليان ملك بيت المقدس، وكان صلاح الدين الأيوبي يهدف من هذا الإجراء إلى الحفاظ على هؤلاء الفرنج من غارات البدو، لكن الخطر هذه المرة لم يأت من جانب المسلمين، بل جاءهم من الفرنج أنفسهم فبعد وصول

فرح صلاح الدين وجيشه إلى بيت المقدس بعد أن احتل عكا وقيسارية. وحاصرها مدة شهر ونصب صلاح الدين المنجنقات. وتقاتل الفريقان أشد قتال رآه الناس وكل منهم يراه فرضاً واجباً في دينه. ولما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين. وأنهم قد أشرفوا على الهلاك. فاتفق رأي الفرنج على طلب الأمان وتسليم القدس للسلطان وامتنع السلطان في البداية من إجابته إلى أن : لا أفعل إلا كما فعلتم بأهله حين ملكوه من المسلمين سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩هـ من القتل والسبي. وجزاء السيئة بمثلها. لكنه وافق بعد ذلك لأنه رأى في تسليمهم مصلحة للمسلمين. أعطاهم الأمان ولم يغدر بهم، وكان هذا الفتح عظيماً.

عقد الصلح مع الفرنج :

لقد عقد صلاح الدين صلحاً مع الفرنج بعد أن استرجع القدس، فأراد أن يستريح الجيش الإسلامي، فوافق حينما طلب ملك الإنجليز الصلح معه . إذ أرسل له رسولاً قال له : قد هلكنا نحن وأنتم والأصلح حقن الدماء . ولا يجوز لله أن تهلك المسلمين. ولا يجوز لي أن أهلك الفرنج . فتم الصلح لمدة ثلاث سنوات تكون فيه القدس للمسلمين وللنصارى زيارتها فقط وللفرنج الساحل من عسقلان إلى صور ولصلاح الدين وعسقلان إلى الساحل المصري. والجبال لصلاح الدين . وهذا لا يتعارض مع الإسلام .

الفرنج إلى أطراف طرابلس هاجمهم بعض الأمراء الفرنج وأغلق أهل طرابلس أبواب مدينتهم أمامهم بل أن أهل طرابلس نهبوا ما مع إخوانهم الفرنج من أموال ومتاع تركها لهم صلاح الدين وتجدد هذا مرة أخرى عند إطلاق صلاح الدين بعض الأسرى فيما بعد، إذ لم يسمح لهم سكان المناطق الساحلية بدخول مدنهم .

وبعد تحرير القدس من دنس الفرنج، قام القائد صلاح الدين بإصلاح أوضاعها الإدارية وتحصينات المدينة الدفاعية، وأعاد عمارة المسجد الأقصى، وسمح للنصارى الأرثوذكس واليعاقبة بالبقاء في بيت المقدس، مقابل دفع الجزية والفدية، وسمح أيضاً لمن يريد الحج إلى بيت المقدس من النصارى واليهود .

وعندما تلقى المسلمون في أرجاء العالم الإسلامي نبأ تحرير مدينة القدس أتوا صلاح الدين رجالاً وركباً من كل جهة لزيارته، وقد شاعت الفرحة في عموم العالم الإسلامي حيث أعلن هذا النصر في المساجد، كما أرسل القائد صلاح الدين رسالة إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، يبشره فيها بتحرير بيت المقدس، كما أعاد هذا النصر ثقة المسلمين بأنفسهم إذ أن هذا النصر يعد مكسباً عظيماً لهم، وبالمقابل فإنه قضى على آمال الفرنج في التوسع صوب بلاد الحجاز واحتلال الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة، وأزال الوجود الفرنج من المنطقة الداخلية في بلاد الشام وفلسطين وحصرهم في المناطق الساحلية. وأكد هذا النصر في تحرير بيت المقدس، للفرنجيين قبل أوروبا، حسن معاملة الأسرى من قبل المسلمين سواء أكانوا ملوكاً أمراء أو من عامة الناس بما يتفق وروح الإسلام ومبادئ العروبة، وربما كان يهدف صلاح الدين من وراء هذه المعاملة الكريمة والمتسامحة جداً إلى عدم إثارة الغرب الأوروبي ضده .

وبعد أن نظم القائد صلاح الدين الأمور في بيت المقدس انطلق إلى دك معاقل الفرنج في أنطاكية، اللاذقية، صهيون، بلاطنس، العيون، بكاس، الشجر، سرمانية، برزية، دربساك، والكرك وغيرها. أما مدينة صور فقد أخطأ صلاح الدين في تأخير تحريرها، فتجمعت فيها بقايا الفرنج من الحصون والمدن والقلاع المحررة بعد أن كادت تستسلم لصلاح الدين، كما وصل إلى مدينة الأمير كونراد دي مونتفرات فأخذ في تدعيم تحصينات المدينة .

وحصل تعاون بين صلاح الدين الأيوبي والموحدين، فقد أرسل صلاح الدين رسالة إلى زعيم الموحدين أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن جاء فيها " أن يمد غرب الإسلام والمسلمين بأكثر بما أمد به غرب الكفار الكافرين " وأن يعد السفن "ليقطع عنهم وعن الفرنج مادتهم من جهة البحر".

أما عن أصداء تحرير صلاح الدين لمدينة القدس فقد كانت عظيمة وشديدة الوطأة على الغرب الأوروبي وعلى البابوية فثارت تائراً الغرب عندما أرسل كونراد دي مونتفرات رئيس أساقفة صور جوسياس إلى البابا جريجوري الثامن في أواخر صيف عام ٨٥٣هـ / ١١٨٧م .

وقد استجاب لنداء البابا وليم الثاني ملك صقلية فأرسل من فوره أسطولاً كان له أثر في تأخير تحرير مدينتي طرابلس واللاذقية، واستجاب أيضاً لنداء البابا ثلاثة من ملوك أوروبا هم : ١. فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا . ٢. فليب أوغسطس ملك فرنسا . ٣. ريشارد قلب الأسد ملك انكلترا. وقادوا الحملة الصليبية الثالثة التي كان من نتائجها سقوط مدينة عكا بيد الفرنج من جديد حيث اتخذوها قاعدة لاستعادة بيت المقدس وغيره من المدن التي كانت خاضعة للفرنج.

ويتبين من أصداء تحرير بيت المقدس، لجوء الغرب إلى الكذب وتشويه الحقائق ضد صلاح الدين والمسلمين، فصوروا المسيح عليه السلام، وجعلوا معه صورة رجل عربي يضربه بعصا، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح، وقالوا : هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين، وقد جرحه وقتله!! كما لبس الرهبان السواد حزناً على ما حل بالفرنج، ووعد البابا من يخرج لحرب المسلمين بالغفران ودخول الجنة. يضاف إلى ذلك استغلال الغرب المسيحي الجنس كوسيلة لإلهاء المسلمين "قوصلته سفينة فيها ثلاثمائة امرأة ... وذكرن أنهن قصدن بخروجهن تسبيل فروجهن" حتى لقد قال أحد الفرنج : "رحمك اللهم أبمثل هذا السلاح يسترد ميراث الرب".

دروس وعبر

١. يظل المسلمون حملة مبادئ ورسالة، وأصحاب شهامة وفروسية على طول الخط سواء في الحرب أو السلم.
٢. يبقى الغرب الأوروبي متعصباً حاقداً مهماً غلف حملاته وأساليبه وتضليلاته، فهو يسعى بكل الوسائل إلى ضرب العرب والمسلمين متى سنحت له الفرصة بذلك، ولا أدل على ذلك من قتل حامية عكا على يد ريشارد قلب الأسد، وما أشبه اليوم بالبارحة في دير ياسين والخليل وما يدبر ضد العرب والمسلمين.

حول صلاح الدين وحملته

د. أحمد العلمي
جامعة القدس

كل من أرخ لصلاح الدين قال أنه كردي الأصل. وكانوا قد اعتمدوا أنه جاء من شمال العراق فإن هو كردي. ولا أعرف لماذا لم يكلف الباحثون أنفسهم بالاطلاع على كتب المؤرخين العرب الأوائل؟ فلو فعلوا ذلك لوجدوا أن صلاح الدين عربي مائة بالمائة وليس كردياً. إذ يورد ابن خلكان ما يلي:

إن أيوب هو ابن شادي بن مروان بن ابن علي بن عنتر بن الحسن بن سنان بن عمرو بن حمزة بن عوث بن أسامة بن بيهس بن الحارث بن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن شبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن سعد بن عدنان.

والمعروف أن اسم صلاح الدين هو الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب. ويقول ابن خلكان أن صلاح الدين وعائلته من دوين وهي بلدة من أذربيجان من الروادية وهي بطن من الهذليانية. وهكذا فيرجع ابن خلكان نسب صلاح الدين إلى عدنان ولا كلام أكثر من ذلك. ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن بعض المؤرخين يعودون بنسب صلاح الدين إلى بني أمية، ومهما كان الأمر فدون شك بأن صلاح الدين عربي.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن كثيراً من المؤرخين يصفون حملة صلاح الدين بأنها حملة إسلامية وإن كثيراً منهم يبرزونه بأنه حارب من أجل نصرة الإسلام. لا ننكر هنا بأنه حارب من أجل نصرة الإسلام، فهو في حروبه حرر المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين من الفرنج. وبذلك فسح المجال لجميع المسلمين بزيارة المسجد الأقصى والصلاة فيه من أجل التقرب من الله وأملاً في الرحمة.

ولكن هذا لم يكن دافعه الوحيد، لقد كان هناك سببان آخران لشنه الحرب ضد الفرنجة. أحدهما أن الفرنجة كانوا يحتلون أرضاً عربية فهم إذن غرباء عن البلاد ومحتلون، وقد استولوا على أرض عربية بالقوة والقهر وسفك الدماء.

تاريخ التعليم في القدس

الدكتور عليان عبد الله الحولي
الجامعة الإسلامية غزة - كلية التربية

جاء البحث للتعرف على المسيرة التعليمية في القدس الشريف عبر العصور منذ الفتح الإسلامي حتى عام ١٩٨٤م، مركزاً على فترة الازدهار والنهضة العلمية، مستخدماً المنهج الوصفي التاريخي، مقتصرراً على مراكز التعليم (كتاتيب - مدارس - معاهد - المنهاج - وبعض العلماء المبرزين في كل عصر).

تمهيد

بقيت القدس منذ أن فتحها المسلمون مدينة إسلامية، حيث ذابت فيها كل الثقافات الأخرى وظلت الهوية الإسلامية هي الأساس الذي حفظ للقدس ملامحها الخاصة التي بقيت عبر تاريخها الطويل دليلاً أكيداً على أن عودة القدس ليس مطلباً قومياً فقط، وإنما هي ضرورة إسلامية بالدرجة الأولى، ولقد أسهمت مدينة القدس بقدر هائل في نمو الحضارة الإسلامية وازدهارها من خلال الحركة العلمية التي شهدتها المدينة المقدسة، وكانت المدارس والمعاهد والمكتبات مقومات أساسية لدفع الحركة العلمية التي نجم عنها أجيال من العلماء يصعب حصرهم في شتى مجالات المعرفة مما طبع المدينة بطابع إسلامي جعلها صورة مكررة من القاهرة ودمشق وبغداد. وقد شهدت القدس منذ البداية حركة علمية نشطة بفضل مكانتها الدينية، قال يعلى بن شداد بن أوس: "شهدت مع معاوية ببيت المقدس فجمع بنا، فإذا جل من فسي المسجد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم".

أولاً: عصر الخلفاء الراشدين

كانت المساجد أهم مراكز العلم في بلاد الشام وذلك لأن هذه المساجد كانت ملتقى المسلمين من الصحابة والتابعين، ولأن لهذه المساجد مكانة خاصة في نفوس المسلمين، ومن ثم كان الصحابة والتابعون في بلاد الشام يعقدون حلقات العلم فيها ويتعلم على أيديهم طلاب العلم، كما كان أولئك الصحابة والتابعون يحثون الناس على أن تكون المساجد مصادر للعلم، وقد كان ببيت المقدس العديد من المجالس.

ثالثاً : العصر الفاطمي

كانت أماكن التعليم في هذا العهد كالعهد الذي قبله مثل الكتاب والمسجد، وكان المحتسب في عهد الفاطميين منوطاً به " تفقد الكتاتيب وكان يمنع المعلمين من ضرب الصغار ضرباً شديداً"، والصغير الذي يتم تعليمه في الكتاب يلتحق - إذا أراد - بالمسجد وبه ينتقل من حلقة إلى أخرى للاستفادة من دروس شيوخها، وكانت الإملاء تعد أرقى مراتب التعليم، ثم اقتصر على تدريس كتاب يقرأ منه أحد الطلبة والمدرس يشرح ويطلب في شرحه وتدرسه، ومعلم الحديث يعتبر أعلى درجة من غيره من المدرسين، وأصحاب القراءات أي مقرأو القرآن (القراء) يأتون في الدرجة الثانية من الناحية العلمية والدينية، ولم تكن حرفة التعليم تدرّ كثيراً، وقد ذهب بعضهم أنه لا يجوز للمعلم أن يأخذ أجراً عن تعليمه القرآن والحديث، وكان الطلبة يحضرون كتبهم في شيء يسمى قارورة وهو يشبه الصندوق ومن الذين أقرأوا القراءات في فلسطين نذكر الداجوني الصغير (ت ٣٧٠هـ).

ولقد تطورت الدراسات الطبية وتدرّسها في القرن الرابع في بيت المقدس، وكان أعلام هذه الحركة الأطباء من آل التميمي. واعتبر أول مستشفى في بيت المقدس، وهو من المعاهد الكبرى التي أسسها الفاطميون.

وبالنسبة لموضوعات التعليم، كانت دراسة القرآن محور الدراسات كلها، ثم رواية الحديث، وعن هذين الأصلين تفرعت العلوم الإسلامية الأخرى من فقه ونحو وجدل وتاريخ ... في القرن الثالث وما بعده، أما طرق التدريس فكان الحفظ والاستظهار من أهم وسائل التحصيل لدى الطلبة، وكان من طرق التدريس التي تدور بين الأساتذة والطلبة، والمناظرات التي تدور بين الأساتذة أنفسهم، وبالنسبة لسن الدراسة فكان الصبيان يظلون في الكتاب حتى سن البلوغ (١٣ أو ١٤ سنة) كما كانت في جميع العهود، أما طلبة العلم في المساجد فلم تكن هناك سن محددة للدراسة بالنسبة إليهم، ولا كانوا مقيدون بشروط خاصة فكان حضورهم الدرس اختياريًا، وكان عددهم غير محدد، كما أن ارتباطهم الوحيد بالشيخ.

وإن مؤسسات التربية في الشام بشكل عام والقدس بشكل خاص جاءت لتحقيق الهدف البعيد للتربية الإسلامية وهو تعليم الدين ونشره، ولقد كان المسجد من أهم هذه المؤسسات، فللمسجد مكانة عظيمة في حياة المسلمين، فقد كان يقوم قديماً مقام المعهد الذي يتعلمون فيه أمور الدين، والمنندى الذي يؤمنه ليتصل بعضهم ببعض، ويتداولوا شؤونهم الإدارية والسياسية والعسكرية، والساحة التي يجتمعون فيها لسماع قرارات أمرائهم وأخبار فتوحهم، ودار القضاء التي يلجأون إليها لحل خلافاتهم، وكان أحياناً مضافة الغريب وصومعة الناسك، وأحياناً أخرى موضع بيت المال، أو مستقر التربية للمسجد كانت تحتل مكان الصدارة. ولقد مر ببيت المقدس زائراً وماكثاً لفترة قصرت أو طالت عدد كبير من الصحابة والتابعين والعلماء.

ثانياً : العصر الأموي والعباسي

اهتم خلفاء بني أمية اهتماماً خاصاً ببيت المقدس، وكان أعظم مآثرهم مسجد الصخرة، والمسجد الأقصى. وكان التعليم في العصر العباسي ومنها فلسطين في الكتاتيب والمساجد وقصور الخلفاء وبيوت الوجهاء والأمراء، ففي الكتاب يحفظ الأولاد القرآن الكريم ويتعلمون فيه تلاوته ومبادئ الدين الإسلامي والقراءة والكتابة، وقد ازداد عدد الكتاتيب في القرن الثاني للهجرة حتى أصبح في كل قرية كتاب وأكثر من واحد في المدينة، كما اتخذت كتاتيب لليتامى منذ أيام هارون الرشيد، وكان جزء صغير من القرآن الكريم يحفظ كل يوم عن ظهر قلب، ثم يتلى بصوت عال، وكان الهدف الذي يريده كل متعلم أن يحفظ الكتاب عن ظهر قلب. وبعد الكتاب يلتحق الطالب إذا شاء بالمسجد حيث تعقد حلقات التدريس للرجال من مختلف الأعمار، ويلقى فيها مشاهير الفقهاء والعلماء والمدرسين في الفقه والحديث والتفسير، وغيرها من العلوم الدينية والعربية، وقد ظل العلماء يقصدون المساجد ويؤدون عملهم هذا دون انتظار من يحثهم عليه وكانت في معظم المساجد مكتبات.

رابعاً : العصر الأيوبي

استرد صلاح الدين الأيوبي القدس ومعظم أنحاء فلسطين بعد (٨٨) عاماً من الاحتلال الفرنجي، وقام بتثبيت دعائم الحكم الإسلامي في القدس وأعاد إلى المسجد الأقصى صبغته الإسلامية، وشرع ببناء المدارس والخوانق والمكاتب والبيمارستانات للمعالجة وتعليم الطب. وأنشأ المدارس لأول مرة في فلسطين ومصر، وكانت كثيرة العدد بحيث تمكنت من إشاعة السنة في نفوس الأهلين في وقت قصير، ويمتاز هذا العهد بأن الأمراء والأميرات والتجار وغيرهم من الأهلين حتى الخدم أسهموا في إنشاء المدارس وفي رعاية العلم.

ولم تقتصر الحركة العلمية في بيت المقدس على المدارس وحدها بل وجد إلى جانبها ما عرف بالخوانق والزوايا، وبدأ إنشاء أول هذه الزوايا والخوانق على يد صلاح الدين، حيث أنشأ بعضها ومن ثم توالى إنشاء الخوانق والزوايا، وكان الطلاب يقصدونها، حيث يقوم بتعليمهم بعض الشيوخ الكبار، وقد تنوعت موضوعات التدريس في المدارس والخوانق والزوايا والربط، فشملت العلوم الشرعية : القراءات، الحديث، التفسير، الفقه، علوم اللغة العربية، وكان في المدينة عدة أماكن من الزوايا والربط ومجالس العلم.

خامساً : العصر المملوكي

من مظاهر ازدهار الحياة العلمية والعملية الواسعة النطاق في بيت المقدس، وجود عدد كبير من المؤلفات، والتي ارتبطت ولادتها ببيت المقدس لتجعل من هذه المدينة مركزاً خصباً من مراكز الفكر الإسلامي في عصر سلاطين المماليك، فقد قسم مجير الدين العلمي صاحب كتاب الأنس الجليل العلماء حسب مذاهبهم الدينية كالتالي: بالنسبة لعلماء الشافعية فقد ذكر ترجمة لمائتين وثمان وتسعين فقيهاً، أما بالنسبة للحنفية فقد ذكر لنا ترجمة لخمسة وستين فقيهاً، أما المالكية فقد أورد تراجم لثلاثة وثلاثين فقيهاً، وفي النهاية أورد تراجم لأربعة عشر فقيهاً.

وقد كانت عشرات المدارس في القدس، وإن هذا الكم الكبير من المدارس يجعل الإنسان منا يتساءل عن البواعث التي حملت أصحاب المؤسسات التعليمية على إنشائها، والواقع أن هذه البواعث متعددة فمنها : التقرب إلى الله - التقرب إلى الرعية - يأس الأمراء من بقاء ثروتهم بأيديهم - حرص حكام المماليك على أن يظهرُوا بمظهر المتصلين والمشجعين للثقافة الإسلامية.

سادساً : عصر العثمانيين

فتح العثمانيون فلسطين سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م واستمر حكمهم فيها أربعمئة سنة، وكان القرن الأول من هذه القرون الأربعة قمة الازدهار والمنعة التي بلغتها الدولة، وقد اهتم السلطان سليمان القانوني (٩٢٦-٩٤٧هـ) بشكل خاص بالقدس، فأقام فيها كثيراً من المنشآت الهامة وبني سور القدس وعمر المسجد الأقصى، ولم ينشأ بالقدس في عهده مدارس ذات شأن، ولكن الحركة التعليمية ظلت ناشطة في المسجد الأقصى والمدارس المملوكية، وأقامت روكسلانه زوجة سليمان تكية خاصكي سلطان التي كانت تحوي مدرسة، كما أسس بايرام جاويش من رجال السلطان سليمان في القدس مكتباً لتعليم الأطفال ورباطاً، وقد بدأ الضعف يدب في الدولة العثمانية، وازمحت الأوقاف التي وقفت على المدارس وغيرها من دور العلم بسبب سوء الإدارة واعتداء المتولين على الأوقاف إلى توقف كثير من المدارس عن العمل خلال القرنين (١١-١٢هـ/١٧-١٨م) وقد انعكس ذلك على أوضاع التعليم والحركة العلمية في فلسطين وبخاصة القدس.

وفي عام ١٨٥٧م أنشئت وزارة التربية والتعليم في الامبراطورية العثمانية ودعية باسم معارف عمومية نظارتي وكانت مراحل التعليم ثلاثة هي المرحلة الابتدائية - المرحلة الرشدية - المرحلة الإعدادية.

وقد كان للحكومة التركية في فلسطين (٩٥) مدرسة ابتدائية، وثلاث مدارس ثانوية. وفتحت بعض المدارس الخاصة وزاد عدد الكتاتيب الملحقة بالمساجد، وقد قدرت السلطات التركية سنة ١٩١٤م عدد ما اسمته المدارس الإسلامية الخاصة، كان معظمها من نوع الكتاتيب الملحق بالمسجد بـ (٣٧٩) مدرسة، إضافة إلى ذلك كان هنالك عدد قليل من المدارس الأجنبية التي كان معظم تلاميذها من المسيحيين أو

معلمة في العام الدراسي ١٩٤٢/١٩٤٣م، وكان السلم التعليمي المتبع يتكون من أحد عشر عاماً دراسياً ينال الناجحون فيه شهادة متريكوليشن فلسطين الذي صار فيما بعد معادلاً لمتريكوليشن لندن ضمن معدلات نجاح معينة، ومن، أهم المدارس المعاصرة في القدس : دار المعلمين والمعلمات - المدرسة الرشيدية - دار الأيتام السورية - مدرس دار الأيتام الإسلامية - المدرسة الإبراهيمية.

ووجد في مطلع القدس عام ١٩٤٧ (٢٠٥) مدرسة.

من خلال العرض السابق يمكن التوصل إلى النتائج التالية :

- القدس وفلسطين بقعة مقدسة مباركة، وقف إسلامي، مركز الصراع وجوهره.
- لمدينة القدس مكانة خاصة في تاريخ البشرية لأنها من الناحية التاريخية من أقدم مدن العالم كما أنها مهوى أفئدة أكثر من نصف سكان العالم، ففيها تلتقي الديانات السماوية، وعلى أرضها نشأت أعرق الحضارات، وإن مكانة بيت المقدس في الإسلام تستند إلى مرتكزات رئيسية ثلاثة : هي أن بيت المقدس هو " البيت الذي بنته وعمرته الأنبياء - المكان الذي أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم إليه ومنه وكان معراج - القبلة الأولى التي اتجه إليها المسلمون بالصلاة قبل أن يأمرهم الله بالتوجه نحو الكعبة ".
- شهدت القدس منذ البداية حركة علمية نشطة بفضل مكانتها الدينية، ولقد أسهمت مدينة القدس بقدرة هائل في نمو الحضارة الإسلامية وازدهارها من خلال الحركة العلمية التي شهدتها المدينة المقدسة، وكانت المدارس والمعاهد والمكتبات مقومات أساسية لدفع الحركة العلمية التي نجم عنها أجيال من العلماء.
- يشكل الإحساس بالطمأنينة والأمن والسلام، السند والركيزة الأساسية لحالة الاستقرار الحضاري فيها، فالخوف والقلق يخلقان جواً من التوتر لا يمكن أن يباشر الإنسان في ظله عملاً صالحاً مثمراً، وهذا ما حدث للقدس عبر التاريخ.
- بيت المقدس مدينة دينية كانت دائماً مقصد العلماء ومجمع الزهاد والمتعبدين.

اليهود، كما كان هناك عدد قليل من المدارس اليهودية الخاصة. وقد أورد شاهين مكاريوس سنة ١٨٨٣م إذ قال إن عدد مدارس لواء القدس كان يزيد على السبعين مدرسة وتلامذتها (٣٠٠٠) ومعلميها نحو مائة.

ولقد كانت معاهد العلم تتمثل في البداية بالكاتيب المنتشرة في جميع أنحاء البلاد وإذا رغب في إتمام دراسته التحق بإحدى المعاهد التالية : دور القرآن - الجوامع - المدارس العالية - المدرس السلطانية.

وفي نهاية القرن التاسع عشر كانت المدارس الحكومية تضم الأنواع التالية: مدارس ابتدائية، ومدارس رشيدية، ومدارس إعدادية، الثلاث الأولى منها رشيدية.

سابعاً : عهد الانتداب البريطاني

أنشأت حكومة الانتداب البريطاني على فلسطين سنة ١٩٢٠م نظامين مفصولين للتربية، خصص أحدهما للعرب وهم أكثرية السكان، وخصص الثاني لليهود، وهم أقلية وكان إلى جانب هذين النظامين عدد من المدارس الأهلية الخاصة للعرب ولليهود. ووضع النظام الأول تحت إدارة المعارف العامة التي كان يرأسها مدير بريطاني يتحكم فيها وفق نظام غاية في المركزية، بينما وضع النظام الأول تحت إدارة يهودية مستقلة هي الفعاد لثومي أي المجلس الملي اليهودي أو اللجنة القومية اليهودية في فلسطين، وقد ظل النظامان منفصلين الواحد عن الآخر تماماً، وكان النظام اليهودي متوجاً بالجامعة العبرية في القدس، بينما كانت على رأس النظام العربي الكلية العربية التي كان يؤمل لها أن تتطور إلى جامعة، وكان كل من النظامين يؤكد بطريقته الخاصة قومية مغايرة وثقافة مغايرة في هذه البلاد الواحدة.

النظام التعليمي

ولما رأى العرب أن الحكومة المنتدبة تقصر تقصيراً كبيراً، قامت البلديات والمؤسسات الوطنية والأفراد بالتبرع بمبالغ وفيرة لبناء المدارس. وكان في بيت المقدس في العام الدراسي ١٩٣٠/١٩٣١م تسع مدارس حكومية، وفي عام ١٩٣٧/١٩٣٨م بلغ عدد المدارس الرسمية فضلاً عن الكلية العربية ودار المعلمين، تسع مدارس منها خمس للبنين وأربع للبنات، وكان أعلى صفوفها وهو الرابع الثانوي، في الرشيدية، وقد ضمت هذه المدارس ٣٥٤٥ طالباً وطالبة يعلمهم ٦٤ معلماً و٥٦

- كانت الأوقاف التي وقفت على المسجد الأقصى ابتداء من أواخر القرن السادس الهجري كثيراً جداً بحيث مكنته من أداء رسالته الدينية والاجتماعية والثقافية (التعليمية)، بل مكنته من أن يصبح جامعة من كبريات الجامعات الإسلامية آنذاك، ومن هذه الأوقاف ما جعل للانفاق على المسجد بصورة عامة، وفي أوجه نشاطه المختلفة.

- إن التعليم في فلسطين لم يختلف عنه في المناطق والبلاد العربية والإسلامية الأخرى من حيث المناهج وأساليب التدريس والمؤسسات التعليمية، ولكن مدينة القدس خصت باهتمام بالغ من قبل الحكام والمحسنين الذين أسسوا فيها مؤسسات تعليمية كثيرة.

التوصيات

- ضرورة تضمين القدس عقيدة وموقعاً وتاريخاً وقضية في منهاج التعليم بالعالمين العربي والإسلامي لشحذ الهمم، وتوقيد المشاعر بين أبناء الإسلام انتظاراً للفرج القريب.

- يجب دعم المؤسسات الدينية والتعليمية الأثرية بمدينة القدس، والتوسع فيها لتقوم بدورها الريادي في المحافظة على الطابع الإسلامي للمدينة المقدسة.

- ضرورة إحياء الأوقاف للمؤسسات التعليمية الفلسطينية في القدس وعموم فلسطين للمحافظة على استقلاليتها، وتوفير مصدر تمويل ثابت لها.

- الإكثار من عقد الندوات والأيام الدراسية والمؤتمرات العلمية التي تتناول القدس وفلسطين من النواحي التاريخية، والجغرافية، والأثرية، والتربوية، والاجتماعية.

التطورات في التعليم والمدارس في القدس

خلال العصرين الأيوبي والمملوكي

السيد حاتم محمد محاميد

مدرسة أم الفحم الثانوية

كان تأثير السيطرة الفرنجية سلبياً على الحركة العلمية في مدينة القدس، الذي استمر منذ سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م وحتى تحريرها على يد السلطان صلاح الدين عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م. حيث خمدت النشاطات الدينية والتعليمية فيها بعد تحويل مسجدي الأقصى والصخرة إلى مؤسسات لخدمة الداوية والإسبتارية. كذلك أدت إلى هجرة الكثير من العلماء المقداسة إلى دمشق وغيرها من البلاد الإسلامية، كهجرة بني قدامة في سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م.

بعد الفتح الصلاحي لمدينة القدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وضع صلاح الدين أسس النهضة العلمية عندما أوقف أربع مؤسسات لخدمتها : الخانقاه والمارستان، التي عرفت باسمه، وكذلك أوقف الزاوية الختنية في المسجد الأقصى. إضافة إلى ذلك، عمل صلاح الدين على ترميم وإصلاح ما أفسده الفرنج في مسجدي الأقصى والصخرة، وإعادة النشاطات الدينية والتعليمية، التي كانت مهملة في عهد الحكم الفرنجي. وقد أوقف صلاح الدين الأوقاف الكثيرة للصرف على مصالح بيت المقدس الدينية والتعليمية، منها ثلث إقطاع نابلس.

قلّد الحكام الأيوبيون صلاح الدين في إنشاء المؤسسات التعليمية والدينية ليس في مدينة القدس فقط، بل في جميع أنحاء المناطق الواقعة تحت سيطرتهم، مثل : مصر والشام. وكانت الصبغة الواضحة من إنشاء المدارس في هذا العصر هي دينية محضة، وذلك لإحياء العلوم الدينية السنية ومحاربة البدع والتشيع، ثم فرض السيطرة الدينية الإسلامية من خلال هذه المؤسسات والجهاد ضد الفرنج.

يلاحظ أن الأيوبيين قد عملوا على دعم المذاهب السنية المختلفة في إنشاء مدارس خاصة بها في مدينة القدس، وتخصيص الأوقاف للصرف عليها، من جوامك وجرايات. كان الأيوبيون ينتمون إلى المذهب الشافعي وتفقها به، ما عدا الملك المعظم عيسى، الذي كان متفقاً بالمذهب الحنفي ومغالياً به. وبالرغم من

على الرغم من تأسيس الأيوبيين للمدارس ودعم الحركة العلمية في القدس، نلاحظ أن عدد المؤسسات العلمية، التي بنيت في المدينة في العهد الأيوبي قليلة بالمقارنة مع عددها في العهد المملوكي.

تعرض القائمة التالية التطورات في إنشاء المدارس في القدس في العصورين الأيوبي والمملوكي وفقاً للمعلومات التي أوردها مجير الدين الحنبلي في كتابه، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل.

قبل سنة	٦٥٨-٥٨٣	٦٥٩-٨٠٣	بعد سنة	غير	المجموع
١١٨٧/٥٨٣	١٢٦٠-١١٨٧	١٤٠٠-١١٦١	١٤٠٠/٨٠٣	معروف	
-	١١	٤٧	١٠	٦	٧٤

إن إنشاء هذا العدد القليل من المؤسسات العلمية في القدس في العصر الأيوبي (إحدى عشرة مؤسسة)، كان متأثراً بالتطورات السياسية التي حدثت في القدس بعد سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م. ففي هذه السنة هدم الملك المعظم عيسى أسوار القدس خوفاً من سيطرة الفرنج على المدينة وتحصنهم بها بعد الاتفاق الذي حصلوا عليه من السلطان الملك الكامل في مصر. وفعلاً سيطر الفرنج على المدينة سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، إلى أن استعادها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٢/١٢٤٤. وحتى أواخر العصر الأيوبي في بلاد الشام سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م لم تذكر لنا المصادر المختلفة معلومات عن إنشاء مدارس جديدة في مدينة القدس.

إن السيطرة المجددة للفرنج على مدينة القدس في هذه الفترة (٦٢٦-٦٤٢هـ/١٢٢٨ - ١٢٤٤م)، قد سببت ركود العملية التعليمية في المدينة. كذلك هاجر كثير من العلماء من المدينة خوفاً من السطيرة الفرنجية، مثل شيخ المدرسة الصلاحية، تقي الدين بن الصلاح (ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م)، والشيخ شرف الدين محمد بن عروة الموصلية، الذي عمّر دار الحديث العروية في جامع دمشق بعد هجرته من القدس سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م. إضافة إلى ذلك، نقل الأمير عز الدين أيبك المعظمي (ت ٦٤٥هـ/١٢٤٧م) أوقافه، التي خصصها لإنشاء مدرسة له

كونهم شافعية، فقد كانوا متسامحين مع المذاهب الأخرى. بدأ السلطان صلاح الدين أولاً في دعم المذهب الشافعي حين أوقف مدرسته بالقدس على الشافعية، وأصبحت هذه المدرسة تحظى بمكانة مرموقة، من حيث تعيين المدرسين البارزين من قبل السلاطين الأيوبيين ثم المماليك من بعدهم، ومن حيث أهمية منصب شيخ المدرسة في المدينة.

أما الملك الأفضل بن صلاح الدين فقد اهتم بتوفير المؤسسات العلمية والمنشآت لمصلحة أتباع المذهب المالكي، حيث بنى لهم مدرسة سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م، عرفت بالأفضلية، ثم خصص للمغاربة، الذين كانوا ينتمون إلى المالكية، حارة منفردة وأوقافاً لخدمتهم. من هنا بدأت طائفة المغاربة بالقدس تأخذ مكانة مميزة في إدارة شؤونها. أما السلطان الملك المعظم عيسى، الذي خالف أهله وكان حنفياً مغالياً، متفهماً بالفقه الحنفي، فإنه عمل على نشر هذا المذهب في مناطق سلطته في بلاد الشام. فقد بنى المدارس وأوقف عليها الأوقاف لدعم طلاب الحنفية ولخدمة علمائها في كل من دمشق والقدس. أنشأ المعظم عيسى مدرسة في دمشق، كما بنى مدرسة أخرى في القدس، وكلاهما عرفتا بالمعظمية، على اسمه، وعمّر أيضاً في القدس المدرسة الناصرية والنحوية.

أما أتباع المذهب الحنبلي فكما يبدو أنهم لم يلقوا الدعم الكافي من الحكام الأيوبيين وكذلك المماليك من بعدهم. فيلاحظ مثلاً أن أغلبية مؤسساتهم في بلاد الشام قد بنيت من قبل علمائهم، أو بدعم من أناس مدنيين أثرياء. وكانت هناك منافسة واضحة بين أتباع الحنابلة وبين أتباع بقية المذاهب في بلاد الشام، ودليل على ذلك، بناؤهم لمدينة الصالحية خارج دمشق وبناء المؤسسات العلمية والدينية الخاصة بهم هناك، مثل: دير الحنابلة (دير المقادسة) والمدرسة العمرية وغيرها. فقد اعتزم السلطان الأيوبي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨ - ١١٩٩م) على إخراج الحنابلة من بلاده، ويكتب إلى بقية إخوانه بإخراجهم من البلاد، ولكنه توفي في العام نفسه.

خدمت هذه المدارس السلطة السياسية للحكام والأمراء إضافة إلى الاعتبارات الدينية والاقتصادية، التي أقيمت من أجلها. فقد كانت الوظائف والمناصب في هذه المدارس عاملاً لبسط نفوذ الحكام بين طبقة العلماء والطلبة وغيرهم ممن انتفع من أوقاف تلك المدارس. نرى مثلاً المدرسة التتكريزية، التي بناها والي الشام سيف الدين تنكز سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٨م، قد شملت على عدة مؤسسات: مدرسة للفقهاء الحنفي، خانقاه، رباط وجامع. وعندما أنشأ السلطان الأشرف قايتباي مدرسته الأشرفية (السلطانية)، في أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، كانت عظمة الشأن بمصادر وقفها، الذي بلغ أكثر من خمسين مصدراً، وكذلك بعدد المرتبين بها من طلبة، متصوفين، مدرسين وغيرهم. وحسب وصف مجير الدين الحنبلي للمدرسة فإنها أصبحت جوهرة ثالثة في بيت المقدس بعد مسجدي الأقصى والصخرة.

ما يسترعي الملاحظة هنا أن الحركة العلمية بقيت تؤدي دورها على الرغم من الهبوط الملحوظ في إنشاء مؤسسات جديدة في المدينة في القرن الخامس عشر الميلادي. فإن الفعاليات العلمية في القدس حافظت على استمراريتها بعكس مدن الشام الشمالية، مثل: حلب ودمشق، وذلك بفضل عدة عوامل أهمها:

أ- العامل الديني: إن قدسية المدينة جذبت إليها الزوار، الطلبة والعلماء، جماعات من الصوفية وأعيان الدولة من أمراء مطرودين أو منفيين. فمنهم من جاء زائراً، ومنهم من جاء مجاوراً أو منقطعاً أو مقيماً بالقرب من الأماكن المقدسة بها. مثل: برهان الدين بن جماعة (٦٧٥هـ/١٢٧٦م)، الذي هاجر من مدينة حماة إلى القدس ليدفن فيها. وتذكر المصادر المختلفة مدى اهتمام سلاطين المماليك وأمرائهم بصيانة أوقاف القدس في العصر المملوكي الأخير، في حين شهدت مدن الشام الأخرى، مثل: دمشق وحلب، تدهوراً كبيراً في صيانة الأوقاف وتعميرها. فقد عمرت أوقاف القدس في زمن السلطان الأشرف برسباي، والظاهر جقمق، والأشرف قايتباي وأمرائهم، مما ساعد على استمرار الحركة العلمية في المدينة.

في القدس، للصرف على حلقة للتدريس في جامع دمشق سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، والتي عرفت باسمه المدرسة العزية الحنفية، وذلك بالإضافة لمدرستيه في دمشق، العزية البرانية والجوانية.

ومنذ السيطرة المملوكية أخذت مدينة القدس تنعم بالاستقرار السياسي بالنسبة لبقية مناطق الشام، مما ساعد على ارتفاع مكانتها وأهميتها. فقد تطورت بها حركة عمران المدارس والمؤسسات الدينية والعلمية الأخرى. هذا جعل من مدينة القدس عامل جذب لكثير من العلماء وطلبة العلم من جميع أنحاء العالم الإسلامي مشرقه ومغرب، والذي عصفت به الأزمات السياسية نتيجة للسيطرة المغولية على بلاد الشرق، ونتيجة للضغط الفرنسي على المسلمين في الأندلس والنزاعات الداخلية بين أمرائها. لذا أخذت القدس تستقطب فئات مختلفة من العلماء والزوار وطلبة العلم وأصحاب الطرق الصوفية. نلاحظ حسب القائمة السابقة أنه أنشئت سبع وأربعون مؤسسة تعليمية في العصر المملوكي الأول، من: مدارس، خانق، ربط وزوايا. وبعد الهجوم المغولي على بلاد الشام سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، نلاحظ هبوطاً في إنشاء المدارس على أثر الظروف السياسية والاقتصادية الصعبة، التي شهدتها الدولة المملوكية في القرن الخامس عشر الميلادي وحتى أواخر عهدها.

أنشئت أكثرية مدارس القدس على يد الطبقة الحاكمة من سلاطين، وملوك وأمراء. فقد بنيت إحدى عشرة مؤسسة من قبل السلاطين والملوك الأيوبيين والمماليك، وخمس وثلاثون مؤسسة بنيت على يد أمراء مختلفين. وإذا نظرنا إلى القائمة الآتية نلاحظ مدى الفروق في توزيع المؤسسات العلمية في القدس حسب مكانة المؤسسين (الواقفين):

سلطان / ملك	أمراء	مدنيون	نساء	غير معروف	المجموع
١١	٣٥	٢٠	٤	٤	٧٤

ب- العامل الأمني والسياسي : الذي تمثل باستقرار الأمور السياسية في مدينة القدس وخاصة عدم تضررها من الهجمات المغولية الثلاث على بلاد الشام بشكل مباشر (٦٥٨هـ/١٢٦٠م، ٦٩٩هـ/١٢٩٩م، ٨٠٣هـ/١٤٠٠م). لذا بقيت مؤسساتها تعمل بانتظام بسبب صيانة الأوقاف بها إلى حد ما، بعكس ما حدث للمدن الشامية الأخرى بعد هدم الكثير من مؤسساتها العلمية وإهمال أوقافها من جراء الغزو المغولي الأخير لبلاد الشام سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م.

ج- العامل الإداري : منذ أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي أصبحت مدينة القدس مستقلة عن دمشق بالشؤون الإدارية. حيث بدأ السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ / ١٣٨٢-١٣٩٨م) بصلاحيات تعيين نائب القدس مباشرة، وليس من صلاحيات والي دمشق كما كان سابقاً. كذلك حصلت القدس على استقلالية في القضاء للمذاهب الأربعة بعد أن كان القاضي الشافعي يقوم بهذه الصلاحيات. فقد عين أول قاضي حنفي مستقل سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م، والمالكي سنة ٨٠٢هـ / ١٣٩٩م، والحنبلي سنة ٨٠٤هـ / ١٤٠١م.

العمارة العثمانية في مدينة القدس

محمد غوشه
وزارة السياحة والآثار

دخل الجيش العثماني مدينة القدس بقيادة يونس بك^(١) في يوم الأحد الرابع من ذي القعدة سنة ٩٢٢هـ / ٢٨ كانون أول سنة ١٥١٦م من دون قتال، وقد عين السلطان سليم الأول إسكندر بن أرنوس^(٢) حاكماً على مدينة القدس، ثم زار السلطان سليم الأول الديار القدسية يوم الثلاثاء السادس من ذي القعدة سنة ٩٢٢هـ / ٣٠ كانون أول سنة ١٥١٦م، واستقبله أهالي المدينة مرحبين وقدموا له مفاتيح المسجد الأقصى فسجد حامداً وقال : " الحمد لله فأنا اليوم حامي القبة الأولى"^(٣) وأقام في المدينة يومين^(٤) زار فيهما المسجد الأقصى وقبة الصخرة وصلى فيهما المغرب والعشاء، وتبنّت دولته المذهب الحنفي^(٥) ورعاية الطرق الصوفية .

وتولى الأمير دولتباي^(٦) نيابة القدس وغزة والرملة وحواليها ثم عين السلطان سليم الأول جان بردى الغزالي نائباً للشام^(٧) في الخامس من صفر سنة ٩٢٤هـ / ١٦ شباط سنة ١٥١٨م فشملت نيابته جلّ المدن الشامية الكبرى كان من أبرزها مدينة

(١) فريدون بك، منشآت السلاطين، استانبول، ١٢٧٤هـ / ١٨٧٥م، ج ١، ص ٤٨٣.

(٢) فريدون بك، منشآت السلاطين، ج ١، ص ٤٨٣.

(٣) Beatrice st. Laurent. The Restoration of the Dome of the Roke, ص ٥٧ كتاب يوم

القدس، أبحاث الندوة الرابعة، عمان، ١٩٩٤م

(٤) فريدون بك، منشآت السلاطين، ج ١، ص ٤٨٤، كامل العسلي، القدس تحت حكم العثمانيين، ص ٢٣٣.

(٥) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، ط ٢، ١٩٧٨م، عكا، ص ٥٢.

(٦) الشيخ أحمد بن زنبيل الرمال، كتاب تاريخ السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان مع قانصوه الغوري سلطان مصر، (طبع حجر)، ص ٣.

(٧) جان بردى بن عبد الله الجرکسي الشهير بالغزالي نسبة إلى قرية تدعى منية غزال، كافل دمشق وصفد وغزة والقدس وأعمالها على زمن السلطان سليم الأول، قُتل في ٢٦ صفر سنة ٩٢٧هـ / الخامس من شباط سنة ١٥٢١م. أنظر : الغزي، الكواكب السائرة، ج ١، ص ١٦١، ١٦٨-١٧١، ج ٢، ص ١٢٥، ج ٣، ص ١٥٦، ابن زنبيل الرمال، تاريخ السلطان سليم خان، (طبع حجر)، ص ١٢٠-١٢٩، رافق، العرب والعثمانيون، ص ٦٥.

القدس التي تمتعت بإدارة مستقلة على نحو جزئي، ويذكر مصدر مجهول في العام ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م عن فتح السلطان سليم الأول لمدينة القدس قائلاً: "عين فيها وزراء أكابر وأفندية وباشوات واستمر على هذا الترتيب والحكم إلى الآن..^(١)

ومن الذين تقلدوا إمارة لواء^(٢) القدس في القرن العاشر الهجري / القرن السادس عشر الميلادي الأمير علوان بك^(٣)، والأمير مصطفى بك^(٤)، والأمير حسن بك المظفري^(٥)، وقيطاس بك^(٦)، ورضوان باشا بن مصطفى^(٧) سنة ٩٧٢هـ / ١٥٦٤م، وفروخ جري باشي^(٨) سنة ٩٧٣هـ / ١٥٨٨م، وسليمان بك^(٩)

(١) مؤلف مجهول، مجموع يتضمن تواريخ أورشليم، (مخطوط).

(٢) أعلى منصب إداري في اللواء، ويتبع أمير اللواء مباشرة للسلطان العثماني الذي يصدر قراره بتعيينه.

(٣) سجل شرعي ٦.

(٤) سجل شرعي ٧.

(٥) سجل شرعي ١٢.

(٦) سجل شرعي ٣٠.

(٧) حاكم سنجد القدس وغزة وحاكم اليمن من سنة ٩٧٢هـ / ١٥٦٤م - ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م، وسنجد الحبشة: محمد ابن أحمد النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، مراجعة حمد الجاسر، ط٢، الرياض، ١٩٦٧م، ص: ١٥٧؛ سجل شرعي ٤٧.

(٨) سجل شرعي ٤٦ والجري باشي هي وظيفة عسكرية تعني رئيس المشرفين على حرس المدينة.

(٩) سجل شرعي ٥٤.

ابن قباد باشا سنة ٩٧٧هـ / ١٥٩٢م وخسرو بك^(١) وحسين بك^(٢) سنة ٩٩٨هـ / ١٥٨٩م، ومحمد بك في أواخر القرن العاشر الهجري^(٣).

وقد بلغت واردات القرى المحيطة بلواء القدس في أوائل الحكم العثماني أكثر من ثلاثمائة ألف آقجة^(٤) في حين بلغت واردات تيمار القدس في الفترة نفسها أكثر من ١٧٠٠٠ آقجة^(٥).

العمارة العثمانية في مدينة القدس

تولى السلطان سليمان القانوني^(٦) سلطنة الدولة العثمانية في أواخر العام

(١) سجل شرعي ٥٩، والبك أو بيك كلمة تركية أصلها فارسي تعني الحكيم أو الرئيس وكانت عند التركمان من ألقاب التشريف، وأول من حمله هو طغرل بك مؤسس الدولة السلجوقية سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م مصطفى عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ١٩٩٦م، دار الرسالة، ص ٨٣، ويرى رافق أنها تعني رئيس القوات البرية أو رئيس الأسطول. رافق، العرب والعثمانيون، ص ١٢٨، بينما يعرفها صاحباً المصطلحات المملوكية بأنها تعني الكبير. أنظر: محمد محمد أمين وليلى علي إبراهيم، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٠م، ص ٢٢٥.

(٢) سجل شرعي ٦٩.

(٣) سجل شرعي ٧٧.

(٤) دفتر اجمال لواء القدس الشريف ٢٨٣، ٣١٩.

(٥) دفتر تحرير طابو ٥١٦.

(٦) الغزي، الكواكب السائرة، ج٣، ص ١٥٦-١٥٧، بولس مسعد، الدولة العثمانية في لبنان وسورية، ط١، ١٩١٦م، ص ١١-١٣، ابن زنبيل الرمال، تاريخ السلطان سليم خان، (طبعة حجرية)، ص ١٢٠-١٢٩، إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٨٨-٩٧، حضرة عزتو يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، مكتبة مذبولي، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ٦٠-٦٦، محمد فريد المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٧م، ص ٧٩-١٠٧، إبراهيم أفندي الطبيب الأول للعساكر الشاهانية في بيروت، مصباح الساري ونزهة القاري، ١٢٧٢هـ، ص ١٢٩-١٣٧، عبد الرحمن شرف، تاريخ دولة عثمانية، (بالتركية)، ط٢، استانبول، ١٣١٥هـ، ص ٢٢٥ وما بعدها، أبو إياس أحمد بن يوسف الدمشقي القرماني، أخبار الدول وآثار الأول، مكتبة المثني، القاهرة، ص ٣١٧.

وقد عُرف بالقانوني نظراً للدور الذي لعبه المفتي في التوفيق بين القوانين التي أصدرها السلطان سليمان وبين الشريعة. رافق، العرب والعثمانيون، ص ٥٢.

ومن الأعمال المهمة للسلطان سليمان القانوني تجديد بناء قبة الصخرة سنة ٩٥٩هـ / ١٥٥١م حيث عهد بكتابة نقش الإعمار في القبة إلى عبد الله التبريزي^(١)، وأمر بصنع سنة عشرة شبكاً من الزجاج المذهب في رقبة قبة الصخرة^(٢)، ووضع القاشاني الجديد^(٣) في المثلث الخارجي للقبة في الفترة ما بين سنة ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م وحتى سنة ٩٦٩هـ / ١٥٦١م حيث بلغ مجموع القطع القاشانية التي أشرف فتح الله ابن ميرك جان على وضعها في مثلث القبة ٢٤٥٠ قطعة بكلفة ٩٤٨٠ آقجة^(٤)، وتقدينا حجة شرعية مؤرخة في العام ٩٥٦هـ / ١٥٤٩م إلى تسلم بيرم جاويش ٨٨٢٥٧ آقجة سليمان في إنفاقها على تزيين مثلث القبة بالقاشاني^(٥) وفي الفترة ما بين ٩٧١هـ / ١٥٦٣م حتى ٩٧٢هـ / ١٥٦٤م جدد السلطان سليمان خان القانوني ثلاثة أبواب^(٦) لقبة الصخرة المشرفة وصفحها بقطع نحاسية أحضرت من استانبول إلى القدس.

لقد اهتم السلطان سليمان بعمارة قلعة القدس سنة ٩٣٨هـ / ١٥٣١م^(٧)، وإعمار مصادر المياه في مدينة القدس، فكان من أبرز المنشآت التي ما زالت شاهداً على فن العمارة العثمانية المبكرة، الأسبلة الكائنة في حارات القدس وظاهرها، لا سيما سبيل باب السلسلة وسبيل باب الأسباط والسبيل المقابل للباب العثم وسبيل باب الناظر وسبيل الواد وسبيل بركة السلطان^(٨)، كما حظيت قناة السبيل وبرك سليمان باهتمام بالغ من العثمانيين وعلى الأخص السلطان سليمان القانوني^(٩).

^(١) Berchem, Corpus, . p. 339

^(٢) عارف العارف، تاريخ الحرم القدسي، مطبعة دار الأيتام الصناعية، القدس، ١٩٤٧م، ص ٢٧؛

T. Richmond, The Dome of the Rock in Jerusalem, . p. 24.

^(٣) سجل شرعي ٢٤؛ عارف، تاريخ الحرم، ص ٢٦.

^(٤) سجل شرعي ٢٤، ٢١.

^(٥) سجل شرعي ٢٤.

^(٦) Berchem, Corpus, . p. 339

Berchem, Corpus, . p. 146-148

^(٨) كامل العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، عمان، ١٩٨٢، ص ٢٦٠، ٢٦٧، ٢٧٤، ٢٨١.

^(٩) العسلي، من آثارنا، ص ١٥٠-١٥١.

٩٢٦هـ / ١٥٢٠م، وقد منح السلطان سليمان مدينة القدس اهتماماً خاصاً نظراً لقدسيتها ومكانتها بين ديار الإسلام، ومن أبرز العماير التي أمر بإنشائها في مدينة القدس السور الذي يحيط المدينة من جهاتها الأربعة في الفترة ما بين ٩٤٣هـ / ١٥٣٦م وحتى ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م كما يرد في نقوش تذكارية^(١) نُبتت في السور بعد إنشائه.

وقد أشرف على بناء سور القدس وصرف الأموال محمد جلبلي النقاش^(٢) الذي كان أميناً على الأموال السلطانية وعلى بناء سور القدس^(٣)، وقد استلم محمد جلبلي النقاش^(٤) من متحصل أمانته في ناحية الرملة حسن بن علي في العام ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م ستة آلاف قطعة سليمان لصرفها في بناء السور، وقد نالت أبواب القدس أيضاً نصيباً وافراً من هذا الإعمار^(٥)، فظهرت أبواب جديدة احتضنت حارات كانت ظاهر السور، وترممت أبواب أخرى، ثم اختفت آثار أبواب كانت مفتوحة في العصر المملوكي وحتى العام ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م مثل باب الداعية وباب الرحبة وباب دير السرب^(٦) وغيرها.

^(١) سجل شرعي ٦، ١٠، ١٣؛ Van Berchem, Corpus Inscriptionum Arabicarum, p. 442-437;

Amnon Cohen, The Walls of Jerusalem, The Islamic World, New Jersey, 1989, p. 471

^(٢) سجل شرعي ٩.

^(٣) كامل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، عمان، ١٩٨٩م، المجلد ٣، ص ١١٥.

^(٤) سجل شرعي ١٠.

^(٥) محمد غوشه، بوابات القدس، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، ١٩٩٢م، ص ١٤. ابن هشام الأنصاري، تحصيل الأنس لآثار القدس، (مخطوط) مكتبة بلدية الإسكندرية، ص ١٠؛ إلياس الحلبي، رحلة إلياس غضبان الحلبي إلى زيارة الأماكن المقدسة، (مخطوط) مكتبة القديس يوسف؛ محمد بن عمر العلمي، المستقصى في فضائل المسجد الأقصى، (مخطوط) عارف حكمت؛ مؤلف مجهول، مجموع تواريخ أورشليم، (مخطوط)، مؤلف مجهول، فضيلة المسجد الأقصى، (مخطوط) مكتبة جامعة جاكوتا، ص ٩.

^(٦) بحر الدين، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٥٦؛ سجل شرعي ١٢.

وأنشأ الأمير حاجي بك زاوية علاء الدين علي الخلوتي سنة ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م في رأس درج المولى^(١)، وأنشأ الشيخ علاء الدين علي الخلوتي مسجد المئذنة الحمراء^(٢) جوار زاويته في حارة بني زيد، وفي العام ٩٥٦هـ / ١٥٤٩م وقف السلطان سليمان القانوني الدير المجاور لثربة النبي داود على مصالح الشيخ أحمد الدجاني وذريته^(٣)، وجدّد بيرم جاويش مكتباً^(٤) له سنة ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م، وأنشأ الرباط^(٥) الذي أخذ يُعرف بإسمه جوار المدرسة الماوردية، وحوش الخنافة في العام نفسه، ثم وقفه في سنة ٩٥٢هـ / ١٥٤٥م.

وحظي الحرم القدسي الشريف باهتمام كبير من سلاطين العثمانيين وأمرائهم وقادتهم، فقد أنشئ فيه عمائر عديدة ما زالت قائمة حتى يومنا هذا، من أبرزها سبيل قاسم باشا والي القدس^(١) الذي أنشأه سنة ٩٣٣هـ / ١٥٢٧م إلى الغرب من قبة الصخرة المشرفة مقابل المدرسة الأشرفية السلطانية، ومسطبة سبيل السلطان سليمان القانوني المقابلة للباب العثماني والتي تعود إلى فترة إنشاء السبيل^(٢)، ومحراب قبة النبي^(٣) الكائن شمالي غرب قبة الصخرة والذي أنشئ سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٩م، وخلوة^(٤) خدوردي بك أبو سيفين^(٥) التي أنشأها محمد آغا سنة ٩٩٦هـ / ١٥٨٧م.

وبالقرب من الباب الذي أصبح لاحقاً يعرف باسم الباب الجديد أو باب السلطان عبد الحميد الثاني، أنشأ نائب قلعة القدس في أوائل العهد العثماني المسجد القيمري، ووقف عليه جملة من العقارات وإلى جانب هذا المسجد كانت تسكن امرأة صالحة تُسمى قمر بنت عبد الله التركية^(٦) فأوقفت العقار الذي كانت تملكه على مصالح المسجد رغبة في فعل الخير.

(١) رائف نجم ويوسف التنشيه وعبد الله كلبونه وبسام الحلاق، كنوز القلنس، منظمة المدن العربية، ١٩٨٣م، ص ٣٣٩.

(٢) العارف، تاريخ الحرم، ص ٧٧-٧٨؛ العارف، تاريخ قبة الصخرة، ص ٢٠٠؛ نجم والتنشيه وكتبونه والحلاق وعبد المهدي، كنوز القلنس، ص ٣٥١.

(٣) العسلي، من آثارنا، ص ٢٥٥-٢٥٧؛ العارف، تاريخ قبة الصخرة، مكتبة الأندلس، القدس، ١٩٥٨م، ص ٢١٣-٢١٤؛ العارف، تاريخ الحرم، ص ٩٩.

(٤) الخلوة حجرة صغيرة تكون غالباً من دون شبابيك يختلي فيها المتصوف وتُجمع على خلوي الصوفية. أمين وليلى إبراهيم، المصطلحات المملوكية، ص ٤٣.

(٥) Berchem, Corpus, . p. 189-190
(٦) فهمي الأنصاري، المسجد القيمري، قسم التراث الإسلامي، ١٩٩٥م، ص ٧٥.

(١) دفتر أوقاف لواء القدس الشريف ٢٤٣.

(٢) سجل شرعي ١٢.

(٣) أمل الدجاني، مسجد النبي داود ومقامه، رسالة جامعية غير منشورة، المعهد العالي للآثار الإسلامية، جامعة القدس، ١٩٩٦م، ص ٣٧.

(٤) دفتر أوقاف لواء القدس الشريف ٥٢٢ ص ١٥-١٦٦؛ سجل شرعي ١٧.

توفي بيرم جاويش بن مصطفى في ٦ ربيع أول سنة ٩٧٠هـ / ١٥٦٢م أنظر: خضر سلامه، سجلات محكمة القدس ووثائقها، كامل العسلي وقضية القلنس، ص ٢٧٠، ودُفن في مكتبه، وقد تزوج من محبوبة بنت عبد الله الرومية، وخلف إبنته ست الدنيا خاتون، وسكن في المدرسة الماوردية الملاصقة لرباطه. أنظر: سجل شرعي ١٢، ١٧، ٥٤.

(٥) كامل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، عمان، ١٩٨١م، ص ٣٢٥؛ عارف العارف، الفصل، ص ٣٠٧.

وكان في عقبة البطيخ حمام موقوف على الصخرة المشرفة يُعرف بإسم حمام أولاد السعدي أو حمام باب العمود^(١)، وأنشأ طورغود آغا^(٢) بن محمود بك الزعيم^(٣) متولي وقف العمارة العامر مكتباً له وأوقف مصبنة عُرفت بإسمه، وأنشأ أيضاً يحيى بن أبي شريف في أوائل العهد العثماني مكتباً لتأديب الأطفال بالقرب من باب السلسلة تألف من غرفة واحدة^(٤)، وأنشأ خدوردي بك سنة ٩٩٥هـ/١٥٨٦م الخانقاه المولوية^(٥) في حارة السعدية.

ومن أبرز العماثر التي جرى ترميمها في أوائل العهد العثماني المدرسة المحدثية^(٦) التي رممها الشيخ محمد بن الشيخ علي الخلوتي سنة ٩٤٠هـ/١٥٣٣م، وخان القطانين^(٧) الذي استأجره وعمره الحاج قاسم بن أحمد الصعبي سنة ٩٤٤هـ/١٥٣٧م وخان الجاولي^(٨) الذي رممه الشيخ محمد بن الشيخ علي الخلوتي والمعمار محمد بن إسماعيل سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م، والمدرسة الماوردية^(٩) في سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م والمدرسة الطازية^(١٠) التي جرى ترميمها سنة ٩٥٢هـ/١٥٤٥م وغيرها.

(١) دفتر إجمال لواء الشام ٣١٩؛ دفتر أوقاف لواء القدس الشريف ٥١٦.

(٢) سجل شرعي ١٧، الآغا : رتبة عسكرية تعني الرئيس أو القائد وقد تطلق كذلك على شيوخ الأكراد، حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧م، ص ١١٨.

(٣) سجل شرعي ١٨، الزعيم في اللغة هو السيد أو الكافل، وهو لقب عسكري يوازي أمير اللواء أو المحافظ. الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ٣١٠.

(٤) سجل شرعي ٢٢.

(٥) سجل شرعي ٦٦.

(٦) سجل شرعي ٣.

(٧) سجل شرعي ٦.

(٨) سجل شرعي ٧.

(٩) سجل شرعي ٨.

(١٠) سجل شرعي ١٧.

ووقفت خاصكي سلطان^(١) زوجة ومحبوبة السلطان سليمان القانوني العمارة العامرة سنة ٩٥٩هـ / ١٥٥١م والتي اعتبرت أكبر مؤسسة خيرية في فلسطين طوال العهد العثماني وكانت تتألف من خمس وخمسين غرفة^(٢)، ومن محبساتها قرى ومزارع وضياح وخانات وحمامات في القدس وطرابلس والرملة وبيت لحم وغيرها، ثم أوقف السلطان سليمان القانوني^(٣) قرى إضافية على مصالح التكية الخاصكية في أواخر سنة ٩٦٤هـ / ١٥٥٦م.

وقد أنشأت خاصكي سلطان كذلك حمامين أحدهما للرجال والآخر للنساء^(٤) في حارة الغوانمة سنة ٩٦٣هـ / ١٥٥٥م وأوقفتها^(٥) على مصالح العمارة العامرة سنة ٩٦٤هـ / ١٥٥٦م، وأشرف على عمارتهما بيرام جلاويش وفرهاد بن ياسف في حين أنشأهما المعمار محمد ابن مصطفى الإستانبولي والمعلم خليل بن نمر، ثم أنشأت مسجداً^(٦) أضيف إلى العمارة العامرة وكان ذلك سنة ٩٦٤هـ / ١٥٥٦م، وخاناً عُرف بإسمها^(٧).

(١) كانت جارية في بلاط السلطان سليمان القانوني قبل أن يتزوجها، وهي روسية الأصل أو بولونية تُسمى روكسيلانه، أطلق عليها خازن الكسوة في بلاط السلطان اسم خرم، توفيت في رجب سنة ٩٦٦هـ / ١٥٥٨م ودفنت في جامع السليمانية في استانبول. أنظر : رولاند لامب، سليمان القانوني سلطان الشرق العظيم، ترجمة شكري محمود نديم، بغداد/نيويورك، ١٩٦١م، ص ٨٩-٩٠، العسلي، من آثارنا، ص ١٤، والخاصكية فئة من الممالك السلطانية ظهرت في العصر المملوكي، وكان الخاصكية عند العثمانيين من حاشية السلطان المقرين. الخطيب، معجم المصطلحات، ص ١٥٧.

(٢) كتاب وقف خاصكي سلطان، (مخطوط)، الجامعة العبرية في القدس.

(٣) سجل شرعي ٢٧٠.

(٤) سجل شرعي ٣١، ٤٦.

(٥) وقد أنشئ في مكان حمامي خاصكي سلطان بطيركية الأرمن الكاثوليك. أنظر : العسلي، من آثارنا، ص ٢٠٥-٢٠٦.

(٦) كتاب وقف خاصكي سلطان، (مخطوط).

(٧) سجل شرعي ٢٧.

(٨) العسلي، من آثارنا، ص ٨٩.

وقد عُمِّرت أيضاً المدرسة السلامية^(١) سنة ٩٤١هـ / ١٥٣٤م والزاوية اللؤلؤية^(٢) سنة ٩٥٢هـ / ١٥٤٥م والزاوية الرفاعية^(٣) التي رممها الشيخ بابا فريد كنج، شيخ طائفة الهنود في القدس سنة ٩٦٣هـ / ١٥٥٥م، والمدرسة الأمينية^(٤) التي عَمَرها الشيخ محي الدين أفندي بن عبد القادر على نفقته الخاصة سنة ٩٨٣هـ / ١٥٣٥م وغيرها.

وتبدأ المرحلة الثانية من العمارة العثمانية في مدينة القدس بدخول القرن الحادي عشر الهجري / القرن السابع عشر الميلادي، وفي هذه المرحلة أنشأ العثمانيون وعمروا عدداً كبيراً من آثارهم، فقد عَمَر أحمد باشا سنة ١٠١٠هـ / ١٦٠١م الخلوة الجنبلاطية على سطوح الصخرة^(٥)، وأنشأ أبو بكر ابن عمر الحلبي سنة ١٠٦٣هـ / ١٦٥٢م مسجد خان الزيت^(٦)، ورممت الزاوية المهمزية^(٧) سنة ١٠٢٦هـ / ١٦١٧م، وحمّام جاري في وقف العنبوسي^(٨) سنة ١٠٤١هـ / ١٦٤١م وغيرها.

وقد أنشأ ووقف عثمان بك الصوفي الزاوية النقشبندية^(١) سنة ١٠٢٥هـ / ١٦١٦م، وأنشأ وأوقف محمد باشا بن سليمان باشا بن قباد باشا الشهير بأبي الفول^(٢) محافظ القدس سنة ١٠٤٣هـ / ١٦٣٣م الزاوية القادرية في حارة الغوانمة، وأنشأ علي باشا^(٣) محراباً بين بابي الحديد والقطّانين سنة ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م، وأنشأ والي القدس يوسف آغا^(٤) قبة جوار المسجد الأقصى سنة ١٠٩٢هـ / ١٦٨١م، ثم أنشأ عبد الكريم جوربجي^(٥) سبيلاً في سويقة باب العمود وأوقفه سنة ١٠٩٧هـ / ١٦٨٥م.

لقد ترك العثمانيون بصمات واضحة جلية عند ترميمهم أو بنائهم للعمائر الأثرية في القدس، غير أن عمائر عديدة غابت بدخول العثمانيين إلى هذه المدينة بعد أن كانت قائمة في زمن حكم سلاطين المماليك واستمرار وجود بعضها في أوائل العهد العثماني، ومن أبرز هذه الآثار خان الليمون، وخان ذو النون، وخان اللبن^(٦)، وخان المصرف^(٧) الذي تخرّب في العام ٩٣٨هـ / ١٥٣١م، وخان الظاهر^(٨) ببيرس الذي أعيد استعمال حجارته في بناء أبواب القدس لا سيما باب الأسباط حيث رنك ببيرس على جانبي الباب.

(١) سجل شرعي ١٢١ ص ٢٣٣.

(٢) العسلي، معاهد العلم، ص ٣٥١، ٣٥٣، العسلي، أجدادنا في ثرى بيت المقدس، عمان، ١٩٨١م، ص ٣٦، عارف العارف، المفصل، ص ٤٩٩.

(٣) الشيخ محمد الخليلي، تاريخ القدس والخليل عليه الصلاة والسلام، (مخطوط) مكتبة البودليان في أكسفورد.

(٤) العارف، تاريخ قبة الصخرة، ص ٢٠١.

(٥) وثائق التراث.

(٦) سجل شرعي ١، مجر الدين، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٧٨.

(٧) سجل شرعي ١٤.

(٨) أنشأه الظاهر ببيرس سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م، كان يقع خارج السور غربي القدس، أنظر أيضاً: تقى الدين أحمد المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة، ١٩٥٧م، ج ١، ص ٤٩١، مجر الدين، الأنس

الجليل، ج ٢، ص ٨٧، العسلي، من آثارنا، ص ٩٢-٩٣.

Borgoune and Amal Abu Al-Hajj, *Twenty Four Inscriptions From Jerusalem, Levant, II*, 1979, p. 126

خان بوضع قنديلين كبيرين بسلسلتين من ذهب في قبة الصخرة^(١) ثم أعيد تركيب هلال القبة بعد أن سقط سنة ١٠٢٦هـ / ١٦١٧م إثر عاصفة شديدة^(٢).

وقد وقف الشيخ محمد الخليلي سنة ١١١٢هـ / ١٧٠٠م قبة له في صحن الصخرة عرفت باسم القبة المحمدية^(٣)، وأنشأ الشيخ مصطفى بك سبيلاً أمام دار الشيخ محمد بدير قرب باب الناظر عُرِف باسمه^(٤)، وعمر^(٥) محمد باشا محافظ القدس وبيرم باشا محافظ مصر سبيل شعلان سنة ١٠٣٧هـ / ١٦٢٧م، ثم أجرى سنان قلاق محافظ القدس^(٦) سنة ١١١٧هـ / ١٧٠٥م إعماراً في المسجد الأقصى، ورُمِّم رجب باشا محافظ القدس^(٧) بعض جوانب قبة الصخرة وجدد قصارة مغارة الصخرة من الداخل.

وفي العام ١٢٣٣هـ / ١٨١٧م جدد السلطان محمود خان رخام قبة الصخرة^(٨)، وأجرى السلطان عبد المجيد إعماراً في قبة الصخرة سنة ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م، وعمر السلطان عبد العزيز^(٩) مئتين القبة سنة ١٢٩١هـ / ١٨٧٤م ثم جدد السلطان عبد الحميد الأول الباب الغربي لقبة الصخرة^(١٠) وهو الذي أمر بكتابة سورة ياسين بخط الثلث حول مئتين الصخرة بمعرفة الخطاط محمد شفيق سنة ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م.

وغاب أيضاً حمام علاء الدين البصير^(١) في خط مرزبان، واندثر رباط الجاولي^(٢) وأصبح حاكورة قبل سنة ٩٤٣هـ / ١٥٣٥م، وتحول خان الجبيلي^(٣) إلى مدبغة للجلود سنة ٩٤٩هـ / ١٥٤٢م، وأصبح خان فخر الدين بن نسييه^(٤) يعرف باسم خان الحاج قاسم ابن الناظر سنة ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م، واكتشفت آثار خان الملك المنصور قلاوون^(٥) سنة ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م أثناء اعمار دار شمس الدين الجوهري^(٦)، وأنشئ في مكان حمامي السلطان كنسية، وغابت كذلك زاوية الظاهرية^(٧) وأصبحت الزاوية والتربة المحمدية منسية عن أقلام الباحثين^(٨) وغيرها من الآثار المنسية في مدينة القدس.

لقد ركّز سلاطين العثمانيين جل اهتمامهم لإعمار المسجد الأقصى وقبة الصخرة والمنشآت التذكارية حواليهما، فقد أمر السلطان محمد الثالث سنة ١٠٠٦هـ / ١٥٩٧م بفتح شباكين في الحائط الخارجي لمئتين قبة الصخرة المشرفة^(٩)، وفي العام ١٠٢٠هـ / ١٦١١م أمر السلطان أحمد بن السلطان محمد

(١) العسلي، من آثارنا، ص ١٢٩، ٢٠٨، سجل شرعي ١٢، ١٥، ٢٢.

(٢) سجل شرعي ٦.

(٣) بحر الدين، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٣١٠.

(٤) سجل شرعي ١٧.

(٥) سجل شرعي ١ أنشأه الملك المنصور قلاوون في محرم سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م بالقرب من باب الناظر حيث يشير نقش عُثر عليه أثناء اعمار الدار المذكورة سنة ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م جاء في فيه: "هذا الخان المبارك وقفه السلطان الملك المنصور في محرم ٧٤٢هـ".

(٦) بائع الجواهر، والجواهر في اللغة كل حجر يُستخرج منه شيء يُنتفع به كالناس والياقوت والزمرد والذهب، ويعرف الجوهري عند العثمانيين إسم جوهري. محمد سعيد القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ط ١، دمشق، ١٩٨٨م، ج ١، ص ٨٥.

(٧) سجل شرعي ١، العسلي، معاهد، ص ٣٦٨، بحر الدين، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٥٤.

(٨) تقع في عقبة التكية، أوقفها محمد بك بن زكريا الأنصاري الذي دُفن في تربتها سنة ٧٥١هـ / ١٣٥٠م. أنظر: محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٦، ص ١٤٩، العسلي، معاهد، ص ٣٥٣، بحر الدين، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٤٤ وهي غير القبة المحمدية الكائنة في صحن الصخرة والمنسوبة إلى الشيخ محمد الخليلي المتوفى سنة ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م.

(٩) سجل شرعي ٤٦.

(١) سجل شرعي ٧٩.

(٢) العارف، تاريخ الحرم، ص ٢٨.

(٣) الشيخ محمد الخليلي، تاريخ القدس والخليل، (مخطوط).

(٤) العارف، تاريخ الحرم، ص ٩٧-٩٨.

(٥) العسلي، من آثارنا، ص ٢٣٧.

(٦) سجل شرعي ٦٥ ص ٢٦٦.

(٧) الشيخ الخليلي، تاريخ القدس والخليل، (مخطوط).

(٨) العارف، تاريخ الحرم، ص ٢٩.

(٩) العارف، تاريخ الحرم، ص ٣٠.

(١٠) العارف، تاريخ الحرم، ص ٣٠.

طائفة المغاربة بين الواقع والطموح

السيد عبد الرحمن المغربي

وزارة التربية والتعليم

الإدارة العامة للمناهج التربوية

١. عبر الماضي

١:١ الموطن

لقد كان الموطن ... إنه المغرب العزيز، أما مفهوم المغرب حتى نهاية حكم الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م، فيصعب تحديده بدقة، وما يزال هذا المصطلح موضع خلاف بين جمهور الجغرافيين والمؤرخين، وهو يمثل المنطقة الممتدة من حدود مصر الحالية وحتى شواطئ الأطلسي غرباً، ومن صحراء النوبة والصحراء الكبرى جنوباً، حتى البحر المتوسط شمالاً، وفي أحيان كثيرة، كانت تتم إضافة مصطلح المغربي إلى اسم البلد الأصلي للشخص الذي هاجر إلى الشرق أو استقر في مدينة بيت المقدس كقولهم التونسي المغربي، التلمساني المغربي أو المالكي، والفاسي المغربي والمراكشي المغربي، وأحياناً أخرى يذكر اسم البلد الذي قدم منه دون إضافات.

وما يهمنا من ذلك كله المغرب الجواني، أو ما يعرف اليوم بالمملكة المغربية. وقد شكلت الطائفة المغربية المنتمية إلى هذا البلد الغالبية العظمى من المغاربة في بيت المقدس، وسكن إلى جانبها بعض العائلات الجزائرية والتونسية.

من المغرب تبدأ الرحلة إلى الشرق، وكان وراء رحلاتهم عوامل عدة، منها الأحداث الخاصة بالمغرب من جهة، مثل الضغط الإسباني والبرتغالي عليها برأ وبحراً، والاستعمار الفرنسي من جهة أخرى.

كما حفز هذه الرحلة أحياناً وجعلها فريضة في غالب الأحيان، تحول الشرق الإسلامي وخصوصاً فلسطين إلى مسرح للصراع الدولي ابتداء من حروب الفرنجة، وانتهاء بالحركة الصهيونية، التي ابتلعت كافة فلسطين، وحاولت تدمير مقدساتها بكل الطرق وما تزال تمارس هذه السياسة إلى اليوم.

على أن هناك عوامل أخرى لا يمكن إغفالها وهي الارتباط الروحي وشرف مجاورة المقدسات الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس، إضافة إلى عوامل أخرى مثل : العمل بالزراعة، وقوات الأمن، والجيش.

٢:١ البدايات

كانت البدايات على أرض فلسطين، فقد ارتبطت فلسطين بذاكرتهم وتعلقوا بها وخصوصاً بيت المقدس منذ أن دخل الإسلام بلاد المغرب وتعمق الإسلام في نفوسهم، فكانت الرحلة إلى بيت المقدس قبل الحج إلى الديار المقدسة الحجازية أو بعدها. كما أنهم عملوا كجنود للدفاع عن فلسطين من الهجمات الاستعمارية وتجنّدوا في سبيل ذلك بالجيش الفاطمي تحت إمرة الوزير الأفضل بن بدر الجمالي (ت ٥١٥هـ / ١١٢١م)، وكان لهم دور مميز في هذه المعارك، تحملوا من المسؤولية تجاه فلسطين، ووصل بعضهم إلى بغداد حاضرة الخلافة العباسية، وخطب في مساجدها محاولاً إثارة الرأي العام الإسلامي وتوحيد جهود المسلمين للتصدي للفرنجة وإخراجهم من الشرق.

كانت الحوادث التي ترك فيها المغاربة بصمات في ميادين الجهاد دفاعاً عن ثرى بيت المقدس وفلسطين خاصة والمشرق الإسلامي عامة كثيرة لا تحصى، وعلى سبيل المثال لا الحصر كان لهم شرف الجهاد تحت راية السلطان نور الدين زنكي (ت ٥٦٩هـ / ١١٧٣م) في مواجهة الفرنجة الذين أدركوا الضربات الموجهة التي كالتها لهم المغاربة، ففرضوا على المواطنين والتجار منهم ضرائب وغرامات مالية عالية مقارنة مع ما فرض على سواهم من المسلمين، وقاموا بملاحقتهم في البر والبحر، الأمر الذي دفع السلطان نور الدين وأعيان وتجار المسلمين للعمل على تحريرهم واقتنائهم من الأسر.

ولسنا في معرض التفصيل عن الوقائع الفردية للأبطال المغاربة سواء في الحملة الفرنجية الثانية ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، أو مهاجمة ميناء عكا عام ٥٧٥هـ / ١١٧٩م أو الدفاع عن مثنوى رسولنا الكريم عليه السلام أمام حملة أرناط Renaud de Chatillon (قتل عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م وكان أمير الكرك الفرنجي)، أو اشتراكهم في الحصار البحري لمدينة صور الذي فرضه السلطان صلاح الدين الأيوبي (ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م) إثر معركة حطين عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م.

لكن اشتراكهم الفاعل والمؤثر كان في استعادة بيت المقدس من يد الفرنجة، إضافة إلى محاولة السلطان صلاح الدين تغيير الطابع السكاني لمدينة القدس، وإيجاد أغلبية سكانية مسلمة في هذه المدينة، لذلك قام ابنه الملك الأفضل (ت ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م) بإقطاع المغاربة حارة كاملة غرب الحرم القدسي مباشرة، وذلك في عام ٥٨٨هـ / ١١٩٣م، وقد أوقفها على المغاربة على اختلاف أجناسهم، ذكورهم وإناثهم، وحجاجهم وفقهائهم، وطلابهم، وغنيهم وفقيرهم، وكان الأفضل قد حكم بيت المقدس بعد وفاة والده، واهتم خلال حكمه بتعمير هذه المدينة، وصرف عليها مبالغ طائلة إلى حد جعل العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) يقول : "... ونقص الأكياس، حتى خلنا به الإنفاض والإفلاس ... " .

لقد تفاعل المغاربة في الحياة العامة داخل مدينة بيت المقدس، وكان لهم نشاطاً واضحاً فيها، وأسهموا بشكل فاعل في تطويرها، وقد ذكرهم المؤرخ الكبير أبو شامة (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م) كأحد الفئات الفاعلة في بيت المقدس منذ عهد الأفضل، وقد زارهم عدد من الرحالة المسلمين على سبيل المثال الرحالة أبو بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م)، والذي رافق والده الإمام عبد الله (ت ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م) في سفارته إلى المستنصر العباسي (ت ربيع أول ٥١٢هـ / ١١١٨م) من قبل يوسف بن تاشفين (ت ٥٠٠هـ / ١١٠٦م).

والرحالة أبو عبد الله العبدري (ت ق ٧هـ / ١٣م)، والرحالة الكبير محمد بن عبد الله بن بطوطة (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)، الذي تحدث عن عدد من علماء بيت المقدس ومنهم : العالم المغربي عبد الله محمد بن مثبت عالم المالكية (ت؟) في بيت المقدس، والرحالة خالد بن عيسى البلوي (ت قبل عام ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م) وتحدث عن مسجد المغاربة المالكية، والرحالة العياشي (ت ١٠٩٠هـ / ١٦٧٩م)، الذي نزل بزاوية المغاربة ببيت المقدس والتقى بقاضي القدس محمد النفاتي التونسي (ت؟)، كما أشار الرحالة أوليا جلبي (ت ١٠٩٠هـ / ١٦٧٩م) إلى مسجد المغاربة غرب المسجد الأقصى، وكذلك الرحالة عبد الغني النابلسي (ت ١١٤٣هـ / ١٧٣١م) الذي أشار إلى المدرسة الأفضلية ومقام الشيخ عيد في رحلته المعروفة باسم

الحضرة الإنسانية في الرحلة القسسية، ورحلته الأخرى المعروفة باسم الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، الذي أشار فيها إلى علماء المالكية وإمامهم الشيخ محمد المالكي (ت؟)، ولا ننسى الوزير المغربي أبو القاسم الزباني (ت ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م) الذي زار القدس والشرق ووضع وصفاً لرحلته في كتاب الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برأ وبحراً، وكانت رحلته نقلاً عما ورد عند البلوي وخصوصاً في الحديث عن مدينة القدس.

وقدم لهم الملوك المغاربة وما يزالون يقدمون كل دعم ممكن مادياً ومعنوياً، وأوقف عليهم المحسنون الأوقاف، فقد أوقف عليهم القطب أبو مدين الغوث، قرية عين كارم وأوقاف أخرى كثيرة، وكذلك الشيخ عمر المصمودي، وكانت لهم أوقاف أخرى في الرملة وغزة.

وقد عاش المغاربة ببيت المقدس آمنين مطمئنين تربطهم علاقات ممتازة مع إخوانهم المسلمين بالمدينة المقدسة، وتميزوا بالشرف والاستقامة وحسن الجوار، وكانوا يعاملون الطوائف غير الإسلامية معاملة حسنة. فعطفوا على اليهود الذين سكنوا القدس بعد الفتح الصلاحي للمدينة إثر معركة حطين عام (٥٨٣هـ/١١٨٧م)، وجدير ذكره هنا أن متولي وقف المغاربة الشيخ كمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الوارث (ت؟)، وقف إلى جانب يهود بيت المقدس في خلافهم مع صاحب شرطتها حول تركة أحد اليهود المتوفين في هذه المدينة.

وعكس المغاربة حياة اجتماعية واقتصادية وعلمية متطورة أشارت لها وثائق الحرم القدسي الشريف، وأسهب في ذكرهم مؤرخ القدس المشهور مجير الدين الحنبلي (ت ٩٢٧هـ/١٥٢١م) وذكر عدداً من مؤسساتهم، وأحصى أكثر من اثنين وثلاثين عالماً وقاضياً مغربي الأصل، مالكي المذهب، فلسطيني النشأة والهوية والوطن؛ وذلك في سفره الكبير الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل.

٢. الجوار المقدس

١:٢ حي المغاربة "الموقع - المساحة - الحدود"

أقام المغاربة في حيهم المقدسي الذي امتد من المسجد الأقصى وقبة الصخرة شرقاً إلى الحي اليهودي غرباً، ومن سور القدس جنوباً إلى بوابة السلسلة والمحكمة الشرعية شمالاً، وبمساحة تقدر بحوالي ٤٠ دونماً.

وكان هذا الحي يضم ٢٤٥ عقاراً فيها ١٣٨ منزلاً سكنياً يسكنها ٢٥٠ عائلة، وصل تعدادها إلى ٦٠٠ شخص، ومنزل كبير يسكنه متولي الوقف يسمى قصر الإمام وخمسة مساكن للوافدين، وكانت مساكن المغاربة صغيرة كحال مساكن القدس الأخرى؛ ذات جدران سميكة، تحوي آباراً للمياه المتساقطة شتاءً على أسطح المنازل، وفيها مخازن على شكل سراديب تخزن بها المواد حتى لا تفسد بسرعة، وهناك عدد من البيوت بطابقين، وحي المغاربة حي غير مسقوف به زقاقين زقاق البراق المجاور لحائط البراق الشريف وزقاق الترجمان الذي يقع في وسط الحارة تقريباً.

كان المغاربة يعيشون في هذا الحي محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم وتآلفهم في المطعم والملبس، متخذين من المذهب المالكي مرجعاً لهم، وقد انتمى هؤلاء إلى عدد من العائلات مثل : عائلة الفكيكي والمغربي والمصلوحي والمهدي والفاسي والفيلالي وبوحمالة والتازي والعلمي وغيرهم.

وقد أشرف على أمورهم وكيل أو متولي وقف أو أكثر على مصالحهم وتميز متولو الوقف بالأمانة والقدرة الكافية، ووقفوا في وجه أية محاولات للاعتداء على وقفهم سواء من ولاية الدولة العثمانية أو غيرها.

٢:٢ الزوايا والمدارس

كان حي المغاربة يأخذ شكل مستطيل يرتبط بباقي أجزاء المدينة داخل وخارج السور، فهو يصل خارج القدس بباب المغاربة وبالحرم القدسي الشريف بباب المغاربة "الحرم" وبباب الخالدية من جهة الشمال، ونفق البراق من جهة الغرب. وكان في هذه الحارة عدد من المؤسسات الدينية والعلمية كالتالي :

١:٢:٢ المدرسة الأفضلية

وقفها الملك الأفضل على فقهاء المالكية، وتقع في وسط حارة المغاربة، وكانت تعرف بالقبة، وفيها قبر لأحد الصالحين يعرف بالشيخ عيد، وكان له حوش يحمل اسم الشيخ عيد في حارة المغاربة، وهناك مدرسة دارسة تحمل نفس الاسم في حارة النصارى.

٢:٢:٢ زاوية المغاربة

تقع في غرب حارة المغاربة، وهي مكونة من طابقين، وفيها أكثر من عشرين غرفة صغيرة وثلاثة دور ومسجد وإيوان، وقد وقفها الشيخ عمر بن عبد الله بن عبد النبي المصمودي سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، وتوفي ببيت المقدس (ت؟)، ودفن بمقبرة ماملا في حوش البسطامية، وكان لهذه الزاوية مشيخة تولاهها عدد من الفقهاء المالكية، وفي الطابق العلوي يوجد قبر لأحد الأولياء يطلق عليه المغاربة خطأ قبر أبو مدين الغوث، ويسمونها أيضاً العامة خطأ بزاوية أبو مدين الغوث، خاصة وأن هناك لوحة حديثة تنعتها بزاوية أبو مدين، ويسكنها اليوم عدد من العائلات المغربية حفاظاً عليها من الاستيلاء الصهيوني وهي البقية الباقية من حارة المغاربة.

٣:٢:٢ زاوية أبو مدين الغوث

أقامها عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م، أبو مدين شعيب بن محمد وتنسب إلى جده أبو مدين الغوث، وهي مكونة من طابقين على مدخل قنطرة أم البنات مقابل مدخل المكتبة الخالدية مباشرة، وتشتمل على إيوان وبيتين وساحة مع مرافقها في الطابق العلوي، وفي الطابق السفلي مخزن وبجانبه قبر لأحد الأولياء غير المعروفين، وهي اليوم تحت تصرف وزارة الأوقاف، وقد أوقفت على ذكور المغاربة فقط.

وهناك بعض المساجد والزوايا الصغيرة مثل : جامع البراق وزاويته ويقع خارج الحرم وداخل سورته في حارة المغاربة، وجامع الأفضل وزاويته ومقام الشيخ حسن، وجميعها هدمت مع هدم حارة المغاربة إضافة إلى مؤسسات أخرى نسبت إليهم في بيت المقدس مثل تكية المغربي وجامع المغاربة.

٤:٢:٢ حائط البراق الشريف

يشكل حائط البراق جزء من السور الغربي للحرم القدسي الشريف، وطول المساحة المكشوفة منه ٤٨ متراً تقريباً، وارتفاعه ١٧ متراً وطول بعض حجارته ٥ أمتار، وهو وقف إسلامي، بناؤه يعود إلى فترات تاريخية مختلفة، ولا آثار فيه لما يسمى بالحائط الخارجي للهيكل الأول أو الثاني الذي دمر سنة ٧٠م، وأمامه رصيف أبعاده ٣٦×٣م، وهو ضمن أوقاف السادة المغاربة.

وهذا الحائط بالرغم من إسلاميته وكونه وقفاً إسلامياً إلا أن اليهود يعتبرونه الحائط الخارجي للهيكل الثاني، وقد منع اليهود من دخول القدس منذ عام ٧٠م، إلا أنهم زاروها خفية وبشكل فردي ومتفرق، وكانوا يقفون على جبل الزيتون لإلقاء نظرة على الهيكل المهدم بعد أن منعوا من دخول بيت المقدس كلياً.

وفي ظل التسامح الإسلامي دخل اليهود بيت المقدس بالرغم من طلب البطريرك صفرونيوس عدم دخولهم المدينة كما جاء في العهدة العمرية. وكانوا يكون عند الصخرة المشرفة.

وبعد بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة أخذوا يكون عند حائط الحرم القدسي الشريف دون تحديد لأي جهة من الحائط، ويقومون بالصلاة عنده وزيارته. إن زيارة الحائط والصلاة الفردية بجانبه كانت مستمرة في ظل التسامح الإسلامي مع أصحاب الديانات الأخرى، وكثيراً ما ادعى اليهود أشياء لم تكن لهم، تسامح لهم بها المسلمون، وسمح المسلمون لهم بزيارة الأماكن المقدسة الإسلامية والدخول إليها شرط الاحتشام والالتزام بقواعد الآداب العامة، وأشار بعض الرحالة والمؤرخين اليهود إلى مثل هذه الزيارات في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين.

ولا تسعفنا المصادر المتوفرة بين أيدينا عن تاريخ السماح لليهود بإقامة صلاة منتظمة فقط دون جلب الأدوات أو الستائر الفاصلة بين الذكور والإناث قرب حائط البراق الذي أطلقوا عليه **حائط المبكى**، وقد رجحت بعض المراجع أن مثل هذه الصلاة أقيمت تقريباً بين منتصف القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي وحتى منتصف القرن الذي يليه، وارتبط ذلك بعاملين الأول: تهجير اليهود من الأندلس، والثاني: تدهور الوضع المالي للدولة العثمانية وقيامهم بالاستدانة من اليهود مع العلم أن صلاتهم حتى عام ٩٢٦هـ/١٥١٩م كانت عند السور الشرقي للحرم قرب بوابة الرحمة.

وكانت صلاة اليهود بكاءهم أمام حائط البراق دون إحضار أية أدوات معهم، واستمر ذلك في ظل تسامح المسلمين، ولكنهم استغلوا فترة سيطرة محمد علي باشا (ت ١٢٦٦هـ/١٨٤٩م) على بلاد الشام من عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م إلى ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م عام، وصراعه مع الدولة العثمانية ومع الدول الغربية، فأخذوا يدعون حقوقاً لم تكن لهم من قبل، وأخذوا يتقدمون بمطالب جديدة بخصوص حائط البراق، حيث دفعوا القنصل الإنجليزي في القدس لأن يطلب تبليط الممر القائم أمام حائط البراق "... إن واحد من الرعايا حاصل له لطف، ونذر نفسه أن يبليط زقاق البراق ويستدعي رخصة بذلك..." وكان ذلك في ١٤ شوال ١٢٥٥هـ/٢١ كانون أول - ١٨٣٩م وقد استجابت الحكومة المصرية إلى مطلبهم فما كان من متولي وقف المغاربة الشيخ محمد (ت؟) بالقدس الشريف إلا أن رفع مذكرة احتجاج إلى إسماعيل عاصم بك حاكم حلب (ت؟)، وكان حاكماً عاماً لبر الشام ومما جاء فيها: "... واليهود من قديم يزوروا ذلك الحائط في (الإصابات) [يوم السبت] من غير رفع أصواتهم وإظهار مفالهم، ومن ذو أكام سنة كمالهم في الأذية برفع أصواتهم كثرة جمعياتهم بحيث أن تلك المحل المذكور كل صباح يظن أن به كنيسة لهم ..."، ويرجو أيضاً في المذكرة عدم الاستجابة إلى مطالبهم، وتحويل الأمر إلى مجلس شورى القدس.

وبالفعل حول حاكم دار حلب الأمر إلى مجلس شورى القدس الذي رد كالاتي: أولاً: أن الممر ملاصق لحائط الحرم الشريف ومحل ربط البراق الشريف. ثانياً: أنه لا يوجد به حق لليهود حتى يبطلوه فهو طريق يصل بين الحرم وحارة المغاربة.

ثالثاً: لم يسبق لليهود أن قاموا بمثل ذلك ولا يجوز للأجانب التعمير في بلاد المسلمين.

رابعاً: لا يحق لليهود شرعاً أن يحدثوا أية زيادة على القديم بل يبقى القديم على قدمه.

خامساً: بموجبه يمنع اليهود من الأعمار، ومن رفع الأصوات في الصلاة. وقد صدرت هذه التوصيات إلى متسلم القدس. أحمد باشا الدردار (ت؟) في ٥ ذي الحجة ١٢٥٥هـ/١٠ شباط ١٨٣٩م.

وقد رفع أحمد باشا الدردار ذلك إلى مصر وعلق عليه، ومع ذلك صدر الأمر بتبليط الزقاق في ٨ ذي الحجة ١٢٥٥هـ/١٣ شباط ١٨٣٩م، وضرورة حضور متولي وقف المغاربة إلى مجلس الشورى وإفهامه الأمر، وقد حضر متولي الوقف وقدم الحجة والبرهان على أن هذا الزقاق غير نافذ إلا إلى حارة المغاربة، وأنه من وقف أبي مدين الغوث ولا لليهود أو غيرهم حق فيه، وأن قيامهم بالبلاط معناه استملاكهم له، وأن من ينذر بالبلاط ينذر في كنيسة، ولا ينذر في وقف المسلمين، وأنه يخشى من غضب الأولياء الصالحين.

وبعد أن قدم متولي الوقف حججه مع تأييد من مجلس شورى القدس، ورفعت إلى مصر، صدر الأمر من محمد علي باشا إلى ابنه إبراهيم باشا بعدم تبليط الزقاق، أو رفع اليهود أصواتهم أثناء الصلاة بتاريخ ٢٣ محرم ١٢٥٦هـ/٢٧ آذار ١٨٤٠م، وفي اليوم التالي رفع إبراهيم باشا مذكرة بذلك إلى متسلم القدس أحمد باشا الدردار، ويبدو أن منع تبليط الزقاق مرتبط بعدم تخوف محمد علي من موقف الدول الأجنبية وخصوصاً بعد أن أجبر على الانسحاب من بلاد الشام.

وعادت الأمور إلى سابق عهدها واستمر اليهود في دفع مبلغ ٣٠٠ دينار ذهبي سنوياً مقابل السماح لهم بالصلاة قرب حائط البراق، وعادت الدولة العثمانية وتخلّى اليهود عن أطماعهم مؤقتاً انتظاراً لفرصة سانحة جديدة.

٣. الصراع والجذور الثابتة

٣ : ١ الأطماع الصهيونية

لم تتوقف أطماع الصهاينة ببيت المقدس بعد خروج محمد علي باشا من بلاد الشام، وإنما استمرت بأشكال مختلفة، فقد حاول أحد حاخامات مدينة بومبي في الهند شراء حائط البراق في منتصف القرن الماضي تقريباً، وفي الوقت نفسه عرض السير موسى مونتيوري، ثري إنجليزي الأصل، يهودي، عاش خلال القرن التاسع، وزار فلسطين عدة مرات السماح لليهود بوضع مظلات وطاولات في الرصيف الواقع أمام حائط البراق.

وفي عام ١٣٠٥هـ/١٨٨٧م عرض روتشيلد؟ - ثري يهودي، وجه إليه بلفور وعده المشؤوم - شراء حي المغاربة، وفي عام ١٣٣٠هـ/١٩١١م حاول اليهود وضع طاولات دون إذن الدولة العثمانية، إلا أن محاولتهم فشلت بعد اعتراض وشكوى متولي وقف المغاربة، كما عرض بنك أنجلو فلسطين شراء حارة المغاربة قبيل الحرب العالمية الأولى.

وقد تنبّه المغاربة إلى الأطماع الصهيونية، وتصدوا بكل طاقاتهم لهذه المؤامرات، التي تحاك أيضاً بتواطؤ مع بعض الدول الأجنبية، ورغم ذلك لم يمانعوا من السماح لليهود بزيارة حائط البراق الشريف والنظر إليه وإقامة صلواتهم أمامه يوم السبت.

وقد تجددت الأطماع الصهيونية بدخول القوات البريطانية إلى القدس عام ١٣٣٦هـ/١٩١٧م، حيث قام السير رونالد ستورز، حاكم القدس في ٢٥ صفر ١٣٣٦هـ/٩ كانون أول ١٩١٧م واستدعى مفتي القدس، وطلب منه بيع الممر المؤدي لحائط البراق الشريف والمنازل المجاورة له، فكان رد المفتي على ذلك : بأن ما يطلبه ستورز مكان مقدس عند المسلمين، وهو غير قابل للبيع أو المساومة بأي رقم كان وتحت أي ظرف من الظروف.

وقد هبّ الاحتلال الإنجليزي للقدس خاصة وفلسطين عامة مجالاً للجنود اليهود في الجيش البريطاني لزيارة حائط البراق والصلاة بجواره، وعلى إثر ذلك استغل حايم وايزمن - أول رئيس لدولة إسرائيل - الوضع، ورفع نداءً إلى بلفور يطلبه بتسليم الحائط إلى اليهود أو شرائه من المسلمين. وكانت هذه النداءات حافزاً للصهاينة بالتحرك، فقاموا بعد سيطرة الإنجليز على الأوضاع في القدس الشريف بجلب الكراسي والشمعدانات وإقامة ساتر بين الرجال والنساء، الأمر الذي رفضه متولي وقف المغاربة، وضح بالشكوى إلى المجلس الإسلامي الأعلى وإلى الحاكم البريطاني، وقاد رئيس المجلس الإسلامي الأعلى حملة منظمة بخصوص ذلك منذ عام ١٣١٤هـ/١٩٩٢م، حيث رفع عدة اعتراضات على تصرف الصهاينة وتماديهم المستمر وشعر المغاربة بالخطر يحيط بهم وبأوقافهم المسجلة في المحكمة الشرعية، وقاموا بتسجيل أوقافهم تلك بسجل خاص، وكان المتولون على وقف المغاربة يقرؤون المستقبل والصراع على هذه المنطقة وخصوصاً بعد أن حاولت السلطات البريطانية وضع اليد على أوقافهم في عين كارم.

وتجدد الخلاف عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م، عندما أحضر الصهاينة أثاثاً معهم عند صلاتهم أمام حائط البراق الشريف، وأدى هذا إلى قيام ثورة عارمة في القدس وعموم فلسطين، فتخوفت بريطانيا وأعدت الوضع إلى سابق عهده، وكرر اليهود العملية عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م.

واستمرت الأطماع الصهيونية في حائط البراق وفي حارة المغاربة، واستمر المسلمون المقدسيون مغاربة وغيرهم في التصدي لهم، وظل الموقف البريطاني متردداً، وطالبت الدولة المنتدبة بإقامة نظام من الإشراف المشترك على حائط البراق عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م.

وبسبب ازدياد الضغط البريطاني واليهودي على حارة المغاربة وحائط البراق الشريف، عقد المؤتمر الإسلامي الأول في بيت المقدس عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، وكانت أول قضية على جدول أعماله هي قضية البراق الشريف، ورغم الدعم الإسلامي والعربي والفلسطيني لهذه القضية فإن الصهاينة استمروا في تماديهم، واعتدوا على المسلمون، وتظاهروا قرب الحائط عام

أجبرهم على الهرب، وقد تم ذلك دون منحهم أية فرصة ولو ساعة لنقل أمتعتهم، ومع صباح يوم الأحد كانت العملية شبه منتهية، وحتى صباح الثلاثاء كانت حارة المغاربة قد سويت بالأرض. وعند عودة أصحاب البيوت التي سكنها المغاربة أصبح العديد منهم بلا مأوى، وقد وعدهم الصهاينة ببناء ٢٠٠ شقة سكنية لهم، إلا أن ذلك لم ينفذ إلى اليوم، وما أن انتشرت أخبار هذه المأساة حتى تحرك جلاله الملك الحسن الثاني، واستجاب للنداء الجريح الذي وجهه إليه أهله في فلسطين، فاحتضن مؤتمرين واحد للقمة الإسلامية، وآخر للقمة العربية في عام النكسة، وأرسل لأهله مساعدات عاجلة في القدس الشريف.

والحديث عن حي المغاربة يشمل أولئك الذين يكتب عليهم الشتات في وطنهم فلسطين إلى جانب إخوانهم، ومنهم من لم يتحمل حياة التشرد المريرة، ففكر عدد منهم في العودة إلى وطنهم الأم، وأرسل لهم جلالته طائرة لتعيدهم إلى الأرض التي خرج منها الأجداد، وكان في استقبالهم الصدور الرحبة والأهل الأعزاء، ومع ذلك نتج عن أنظارهم إلى القدس التي عاش عليها الأجداد منذ مئات السنين، ومع اعتزازهم بوطنهم الأم إلا أن روح فلسطين وروح القدس ستظل مهيمنة على كل وجدانهم ومشاعرهم.

وجاءت المرحلة الثانية من الهدم في أواخر عام ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م عندما قررت السلطات الصهيونية العمل على توسيع ٨٢ متراً عند الزاوية الجنوبية الغربية للحرمة.

ثم جاءت المرحلة الثالثة في ١٢ ربيع أول ١٣٨٧هـ/ ٢٠ حزيران ١٩٦٩م. عندما تمت مصادرة ١٤ مبنى في حارة المغاربة غربي الحرم الشريف، ومهدوا لحفريات وصل عمقها ٣٥ متراً بجوار حائط البراق، وذلك للبحث عما يثبت وجود الهيكل المزعوم.

وفي ٥ رجب ١٣٨٩هـ/ ١٧ أيلول ١٩٦٩م ادعت صحيفة معاريف الصهيونية أنه تم اكتشاف البوابة الغربية للهيكل بواسطة علماء الآثار الصهاينة تحت التلة الترابية الواصلة إلى باب المغاربة، الذي يصل إلى الحرم القدسي

١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م، ورد عليهم المسلمون واندلعت ثورة عارمة في جميع أنحاء فلسطين عرفت بثورة البراق، وأرسلت بريطانيا لجنة دولية للتحقيق عام ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م، مكثت في فلسطين لمدة شهر كامل، عقدت خلالها ٢٣ جلسة، استمعت فيها لليهود والعرب، وأصدرت قراراتها لصالح المسلمين، وأصدرت بريطانيا على ضوءها الكتاب الأبيض رقم ٢٢٩ يثبت حق العرب في حائط البراق، ومع ذلك استمرت محاولات اليهود شراء الحائط ولكنها باءت بالفشل، واستمر المغاربة يتصدون لكافة المحاولات الهادفة للسيطرة على البراق الشريف.

٣ : ٢ الاحتلال الصهيوني عام ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م

رغم أن المغاربة فقدوا كثيراً من أوقافهم في عين كارم وغيرها من مدن فلسطين إثر نكسة عام ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م، فقد استمروا في وجودهم على أرض القدس الشريف، وبعد أن احتل الصهاينة الضفة الغربية وقطاع غزة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م، شقت قوات الاحتلال طريقها إلى بيت المقدس في ٢٨ ربيع أول ١٣٨٧هـ/ ٧ حزيران ١٩٦٧م، وعندما وصل قادة الجيش إلى حائط البراق، فكروا في إيجاد متسع أو ساحة تتسع لحوالي ٢٠٠ ألف يهودي عند زيارتهم لحائط البراق في الأعياد، وكانوا يرون أن الأسوار الخارجية للهيكل الثاني تصل إلى ٤٨٥ متراً، وهي الأسوار الواقعة حول الحرم القدسي حالياً حسب ادعائهم، تقلصت بسبب البناء إلى ٢٨ متراً، ثم أصبح مكان الصلاة لا يزيد عن ١٦ متر بعرض ٣,٥١ متر، ولذلك قرروا هدم حارة المغاربة على عدة مراحل، وفي مساء السبت ٢ ربيع ثاني ١٠/ حزيران بدأت المعاول اليهودية بالهدم في حارة المغاربة، معلنة بداية المرحلة الأولى، ورفض السكان العرب إخلاء مساكنهم، ولكن تحت التهديد والوعيد وإيجاد البديل، بدأ السكان، المغاربة يرحلون نحو المجهول. وقد سكنوا في بعض البيوت الفارغة قريباً من منازلهم ولم يحملوا معهم سوى أمتعتهم الشخصية، وفي الليل أحضرت الجرافات وتم طرد السكان، إلا أن الحاجة رسمية علي ماتت تحت الانقراض، وقد حاول بعض السكان المغاربة التثبت بمساكنهم، إلا أن إصرار الصهاينة وهدمهم جزءاً من منازلهم عليهم

الشريف، فالتلة تحوي في داخلها البوابة التي كان يصل منها سكان القدس العليا إلى داخل الهيكل المزعوم، وكان الهدف من ذلك هو توسيع حائط المبكى أمام المصلين، وفتح ثغرة للتنقيب داخل الحرم القدسي الشريف، وإغلاق باب المغاربة أمام المصلين المسلمين، واقترحوا إقامة جسر شفاف يمر عليه المسلمون للوصول إلى الحرم القدسي، ولكنهم تراجعوا بعد ثورة أهالي القدس الشريف.

وبدعم من مغاربة بيت المقدس ومتابعة جلالة الملك الحسن الثاني أصدرت منظمة اليونسكو بتاريخ ٦ ذي القعدة ١٣٩٤هـ/ ٢١ تشرين الثاني ١٩٧٢م إدانة إسرائيل لمخالفاتها اتفاق لاهاي وميثاق جنيف الخاص بحماية الممتلكات الثقافية، وتوقفت الحفريات مؤقتاً ثم استؤنفت في ربيع أول ١٣٩٤هـ/ آذار ١٩٧٤م.

وتستمر المعاناة ويستمر الشتات في الوطن، إلا أن المغاربة في القدس الشريف يصرون على إعادة كل شبر اغتصب من أملاكهم، ويرجون من هذه الندوة أن تأخذ في توصياتها ما يشير إلى ضرورة استعادة ما اغتصب من أملاكهم، ويعرضهم عن هدم حارتهم، ورفع قضيتهم إلى المحافل الدولية وعدم السكوت عنها حتى يعود الحق إلى أصحابه وتعود القدس عربية فلسطينية كما بدأت.

دير ياسين في أتون المعركة

السيد عباس نمر

وزارة الأوقاف والشؤون الدينية

نادراً ما تستمر الندوات التي يُخطط لها منشؤها. إما لخلاف في الرأي، أو لضعف في القدرات، أو لخطأ في البدء، أو لارتجال في التخطيط. والذي يبدو أن جامعة النجاح الوطنية - وقد انعقدت ندوتها الرابعة - قد ارتفعت عن مثل هذه العقبات، وتجنبت كل الهفوات، وأنها قد تنبّهت إلى قول القائل: "إِيَّاكَ مِمَّا يُعْتَذَرُ مِنْهُ".

وهكذا شرفنا بتلقي الدعوة، وسارعنا للتلبية، وإن كانت الذكرى مؤلمة، والمناسبة مبكية، إلا أنها قضية مقدسة، ونكبة منبهة، وندوة شاحنة للعزائم، رافضة للتمائم، وهي كما قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

لقد فعل المرجفون فعلتهم، واقتترف المجرمون جرائمهم، وتحالفت الأقوال والأفعال، وتعاضدت الشائعات وانحطاط الصفات، وتكالبت الغوغاء وقساة القلوب على تهجير أهل دير ياسين وغيرها من قرى ومدن فلسطين، فمنهم من غادر خوفاً على العرض، ومنهم من ارتحل إشفافاً على الصغار، ومنهم من زرع قدميه ففضى نحيبه، ومنهم من قدر له أن يكون على كل ذلك شهيداً.

إلى أين يذهب الناس، وقد تركوا بيوتهم وأرزاقهم وأحبابهم! إلى أي عدو قد ملك أمرهم، أم إلى مضيف قد يتجههم! فالعدو من خلف، والبحر من وراء.

صحيح أن الإنسان مولع بالعيش، مغرم بالحياة الناعمة، ولكنه ميت لا محالة. وقد قال تعالى لرسوله الكريم: "إنك ميت وإنهم ميتون".

وقال الشاعر:

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بَدْ فَمِنَ الْعَارِ أَنْ تَمُوتَ جَبَانًا

وماذا حدث في دير ياسين؟ وفي غيرها من بلاد فلسطين منذ خمسين عاماً؟ إنه نفسه الذي جرى في بغداد أيام هولاء وجنكيز، وهو نفسه الذي جرى في القدس ومسجدها عند احتلال الفرنجة لها.

وهو الذي تكرر وسيبقى يتكرر ويعاد في هذا العالم الموبوء بالمجرمين إلى يوم الدين، وصدق قول الله فيهم: " قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء " البقرة: ٣٠.

لقد تعاون الإجرام والتهويل على القتل والترحيل، ونشهد على أفعالهم وتصرفاتهم التي وقعت أمام أعيننا بأن قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة وصدق من قال:

والمستعمرين وإن ألانوا
قلوب كالحجارة لا ترق

والمستوطنين وإن ألانوا
قلوب كالحجارة لا ترق

لقد مثل المحتلون بالفلسطينيين تمثيلاً، واعترف بعضهم بذلك عن وحشية، وبعضهم عن خبث ومكر، حتى ينشروا الترويع في السكان، وبثوا الهلع في قلوبهم، كي يمزقوهم كل ممزق، ثم تلقفت الإذاعات العربية هذه الأخبار، فكانت معاوناً على التشييت والتهجير دون قصد منها.

فكان شوقي لم يقل إلا فيها:

لحأها الله أنباء توالَتْ
على سمع الولي بما يشق
يفصلها إلى الدنيا بريد
ويحملها إلى الآفاق برق
تكاد لروعة الأحداث فيها
تخال من الخرافة وهي صدق

وحيث أن الوقت ضيق، وخير الكلام ما قل ودل، فإني ارتأيت الوقوف عند هذا الحد لأترك الكلمة للزملاء الأفاضل، فأوزع تنمة حديثي إليكم مكتوباً، نائباً بكم عن الملل والسأم من طول الحديث والاستئثار بوقتكم الثمين.

وشكراً لحسن إصغائكم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

في غياب المصادر الموثقة والمكتوبة، فإننا لدى الكتابة عن قرانا الفلسطينية، لا بد أن نرجع إلى الرواية الشفوية من المسنين الذين ما زالوا على قيد الحياة، باعتبارهم شهود عيان يشكلون أرشيفاً ناطقاً بما اخترنته ذاكرتهم.

وعندما عزمت على الكتابة عن قرية دير ياسين، تلك القرية التي ما زالت جرحاً نازفاً في التاريخ الفلسطيني، والتي أصبحت بمعاناتها شاهداً خالداً على بطش الإنسان، فقد قررت أن أستعين بالرواية الشفوية من شيوخ القرية الذين مد الله في أعمارهم، وبارك في ذاكرتهم، وقد تدفق هؤلاء المؤرخون البررة سيلاً من الذكريات لا ينضب، ناهيك عن حرارة الصدق التي سادت نبرتهم وهم يتحدثون فتنبؤ كلماتهم في دموعهم لئلا القلم مداداً من نور! أجل، أهالي دير ياسين الدمعة التي ترقرت بالشوق والذكرى والحنين، يتحصنون بالإيمان والصبر لئلا ينزلقوا إلى حضيض اليأس والقنوط من الماضي وآلامه.

الموقع

تقع قرية دير ياسين على بعد حوالي ستة كيلو مترات إلى الغرب من مدينة القدس الخالدة.

وتقع على جبل مشرف من جبال القدس الغربية، وترتفع عن سطح البحر حوالي ٧٨٠ متراً، ويقال أن أعلى قمة في دير ياسين ترتفع ٨٠٠ متر تقريباً، وهي إلى الجنوب من طريق القدس - يافا، ولها طريق فرعية ترتبط بالطريق العام، وتتمتع بموقع صحي مشرف على المنطقة، وهواء طلق بأجواء صافية.

التسمية

تقول الرواية الشفوية إن كلمة دير جاءت نسبة إلى دير قديم موجود في القرية، وما زالت أطلاله ظاهرة، وياسين نسبة إلى شيخ يطلق عليه اسم الشيخ ياسين كان يسكن بالقرب من الدير، وكان بقرب الدير جامع يقال له جامع الشيخ ياسين، ومع الأيام أطلق اسم دير ياسين تعريفاً لاسم الموقع.

ورواية أخرى تقول إن قرية دير ياسين دعت في الماضي باسم دير النصر، ورغم البحث عن هذا الاسم في كتب التاريخ للقرون الماضية لم أجد ما يوثق ذلك. لكن في الفصل الأول من التاريخ الشعبي للقرية صفحة تسعة من كتاب (دير ياسين) لمؤلفه الدكتور شريف كناعنة ونهاد زيتاوي الصادر عن مركز الوثائق والأبحاث في جامعة بيرزيت في شباط من ١٩٨٧م قيل: "يتكون اسم دير ياسين من شقين، لكل منهما رواية تعكس أصل التسمية. فيعتقد أن كلمة دير جاءت نسبة إلى دير بناه راهب كان يسكن القرية في القرن الثاني عشر للميلاد، لذا فقد دعت قديماً دير النصر، أما كلمة ياسين فهي نسبة إلى شيخ يدعى الشيخ ياسين كان قدم إلى القرية ولا يعرف متى ولا من هو أو من أين أتى، ولكن هناك جامع في القرية مقابل الدير يقال له جامع الشيخ ياسين، ويجمع سكان القرية أن قريتهم قامت بين الدير والجامع، وسميت دير ياسين إرضاء للطرفين".

المساحة والحدود

تبلغ مساحة أراضي قرية دير ياسين ٢٨٥٧ دونماً، ويحدها من الشمال أراضي لفتا ويحدها من الشرق أراضي مدينة القدس، ويحدها من الجنوب أراضي القدس وعين كارم، ومن الغرب يحدها أراضي قريتي عين كارم وقلونيا.

عدد السكان والحمائل

بلغ عدد سكان دير ياسين في عام ١٩٢٢م نحو ٢٥٤ نسمة، وارتفع عددهم عام ١٩٣١م إلى ٤٢٩ نسمة، وكانوا يقيمون في ٩١ بيتاً، كلهم مسلمون منهم (٢٢٠) ذكراً و (٢٠٩) إناث، وفي عام ١٩٤٥ كان بها (٦١٠) نسمة، وفي عام ١٩٤٨م أصبح عددهم (٧٥٠) نسمة يقيمون في (١٤٤) بيتاً. مقسمين إلى الحمائل والعائلات التالية:

- ١- جابر.
- ٢- شحادة : وتنقسم إلى زيدان وسمور وعبد الله وحمدان وغصون.
- ٣- عقل : وتنفرع إلى عدة عائلات منها، رضوان، وعطية وزهران.
- ٤- حميدة : تنفرع إلى صلاح، قاسم، محمد.
- ٥- الجندي.
- ٦- عيد.

المختار ووجوه الإصلاح

كان أهالي قرية دير ياسين من طبقة واحدة ذات مستوى واحد، وكانوا يداً واحدة متعاونين في الأفراح والأفراح، وكان ذلك يعود إلى وجود مختار واحد للقرية، وكان زمن الدولة العثمانية المختار للقرية الشيخ إسماعيل موسى سمور، ثم جاء بعد ذلك إسماعيل عطية، ثم في عام ١٩٢٠م عين محمد خليل، وبعد تقديم استقالته انتخبت القرية في عام ١٩٢٥م تقريباً، محمد إسماعيل سمور الذي بقي مختاراً حتى عام النكبة.

أما وجوه الإصلاح الذين كانوا سبباً في تجميع وحدتهم وكلمتهم فقد عرفنا منهم :

١. الشيخ محمود صلاح حميدة
٢. الحاج جابر مصطفى جابر
٣. محمود حسين زيدان
٤. الحاج أسعد رضوان عقل

المسجد (جامع الشيخ ياسين)

يعتبر المسجد أقدم بناء في دير ياسين، وقد لعب دوراً بارزاً في حياة القرية، ويقع في وسطها، وفي داخله مقام، وسمي المسجد باسم صاحب المقام الشيخ ياسين وتبلغ مساحة المسجد المخصص للصلاة حوالي ٣٠ متراً والمساحة الخارجية مع الساحة حوالي ٢٦٠ متراً، وللمسجد غرفة كبيرة تستعمل مضافة (ساحة) لأهالي القرية، وقال أحد شيوخ القرية في روايته الشفوية : "وياما اجتمع أهل دير ياسين على الخير في هذه الساحة، وياما استقبلنا الضيف في رمضان وغيره، وياما أفطرنا رمضان في هذه الساحة المباركة".

وكانت جميع الصلوات تقام في المسجد مع العيدين، باستثناء صلاة الجمعة حيث كان الجميع يذهبون إلى المسجد الأقصى المبارك. وبالإضافة إلى تأليف القلوب، كان المسجد هو المدرسة الأولى في القرية قديماً، وكان الأطفال يجلسون في حلقات حول الشيخ في المسجد يتدارسون القرآن وأحكامه، إضافة إلى القراءة والكتابة والحساب، وكان الذي يقوم بأعمال الإمامة في المسجد تطوعاً الشيخ عبد العزيز سمور في عهد الانتداب.

مسجد الشيخ محمود

هو مسجد جديد تم بناؤه بعد نمو القرية، وهو عبارة عن غرفة واحدة قام ببنائها الشيخ محمود صلاح حميدة.

مقام الشيخ عبيد

يعتبر مزاراً ويتقرب إليه أهالي القرية بالنذور والدعاء، ويوجد هذا المقام داخل مقبرة البلد، واهتم أهالي دير ياسين بإضاءته ليلاً خصوصاً ليلة الجمعة.

الآثار

أهم المعالم الأثرية في القرية هي منطقة الدير، وما زال بناؤه ظاهراً للعيان، وهو عبارة عن عدة بنايات مقسمة إلى أجزاء مستقلة، وتقدر مساحته بحوالي عشرة دونمات.

وتقع في القرية خربة تسمى الجملونة، وهي في الجنوب الغربي للقرية، ولا يعرف إلى أي عهد ترجع ويظهر فيها بناء قديم مهدم.

وكذلك يوجد في القرية بعض الآبار القديمة، ومن المتعارف عليه عند علماء الآثار أن الآبار القديمة إجمالاً هي رومانية، وكانت تستعمل للرعاة، ومن هذه الآبار : بئر الخلّة، بئر الزبال، بئر الكروم، بئر الجوزة، بئر الحمام، بئر الراهب .

ويوجد عدد من المغر منها مغارة القبور، ومغارة البقال، وكانت تستعمل هذه المغارة لمبيت الأغنام من قبل الرعيان القادمين من خارج القرية.

التعليم

يقول الحاج علي عبد جابر (أبو يوسف) أن التعليم كان في دير ياسين منذ بداية القرن الماضي في الكتاتيب، وكان الشيخ حامد حميدة أول من درس في الكتاب، ثم جاء معه الشيخ محمد عطية عقل، وعندما تم افتتاح أول مدرسة في قالونيا، التحق طلاب دير ياسين بمدرسة قالونيا الابتدائية، وعدد من أبناء القرية أتموا تعليمهم في مدرسة لفنا الأميرية، وفي بداية عام ١٩٤٢م قرر أهل البلدة بناء مدرسة ابتدائية على حسابهم الخاص، وفي عام ١٩٤٦م تم بناء مدرسة للبنات، وكانت أيضاً على نفقة أهل القرية.

النادي الرياضي

أسس النادي عام ١٩٤٣م وأطلق عليه اسم نادي النهضة، وأهتم بالرياضة خصوصاً كرة القدم، ومن أفضل أعماله حفلة أقيمت في النادي وتم رصد ريعها لبناء مدرسة البنات في القرية، وكان النادي امتداداً لنادي الاتحاد القروي الذي تأسس في بداية الأربعينات، وكان يتألف من عدة أندية من القرى التالية دير ياسين، قالونيا، لفنا، سلوان، أبو ديس، بيت صفافا، عين كارم.

التراث الشعبي (لهجة أهل البلد)

أن اللهجة التي كانت دارجة في دير ياسين، مثلها في ذلك مثل جميع القرى المحيطة بالقدس الشريف، وهي اللهجة الفلاحية والتي تختلف عن اللهجة المدنية، والاختلاف في اللهجة وارد ولو بالشيء القليل، ولا يعرف هذا الاختلاف إلا أبناء القرى المجاورة مميزين ذلك قائلين هذه لهجة ياسيني أو لفتاوي أو مالحي .. الخ.

الأزياء الشعبية

مثلاً أنه في كل أنحاء فلسطين للرجال لباس خاص بهم، فإن للنساء لباس خاص بهن كذلك، ومن الطبيعي أن يكون اللباس بسيطاً وقليل الكلفة إجمالاً، وخصوصاً أن الكل يعمل من أجل لقمة العيش في القرية، وخاصة في الزراعة، فكان الاهتمام به قليلاً، أما ملابس الرجال فأهمها الدمايسة (القمباز)، ويلبسه عامة الناس، ويكون شتاءً من الصوف، وصيفاً من قماش الـروزا في أكثر الحالات، وفوقه يلبس الجاكييت أو المعطف، وأحياناً تلبس العباءة فوقه وأكثر لباسها في المناسبات وعند الزيارة.

أما غطاء الرأس فكان في الماضي كفية ولفة غباني، وفي زمن الانتداب أصبح أكثر رجال القرية الرأس بالحطة والعقال.

أما الزي التقليدي للنساء فهو الثوب الفلاحي، وتحدثت عن الأزياء النسوية لمنطقة القدس في حلقات سابقة لقرى القدس، ولكني أقول نفس ما تحدثت به لنساء قالونيا أردده لنساء دير ياسين :

الحياة الاقتصادية

تعتبر الزراعة العامل الرئيس في بناء اقتصاد القرية، باعتبار أن الأرض وفلاحتها شريان الحياة، وهي موارد الرزق الأساسية، ولذلك كان ٩٠٪ من أبناء دير ياسين حتى عام ١٩٢٥م يعملون في الزراعة، والبقية كان عملهم في الثروة الحيوانية. وكل عائلات القرية تملك أرضاً اتسعت مساحتها أو قلت، وكان أكثر اهتمام القرية في الدورة الزراعية الشتوية فقط، وأكثر الاهتمام كان للقمح والشعير والحمص، بالإضافة إلى البصل والثوم.

أما في الصيف فكانت زراعة المقاثي من بندوره وفقوس وكوسا، وكانت للاستهلاك الذاتي.

أما الأشجار فكان أكثر الاهتمام بالزيتون واللوز والتين والخوخ والمشمش، إضافة إلى الصبر والتوت والعنب، وكانت لهم خبرة وعناية بزراعة الأشجار.

الثروة الحيوانية

كان الاهتمام في عهد الانتداب بالثروة الحيوانية قليلاً، لكنه يفي بحاجة أهل القرية من ناحية الاهتمام باقتناء الحيوانات والعمل على تربيتها، خصوصاً الحمير والبغال والجمال واستعملت كوسائل نقل وللحراثة، أما الأبقار فتربيتها قليلة جداً، وكانت الاستفادة من لحومها وحليبها، والأغنام (الضأن والماعز) كانت تربي عند البعض، وكذلك الطيور خصوصاً الدجاج والحمائم.

المحاجر والكسارات

لقد طور أبناء فلسطين خصوصاً قرى غربي القدس حرفة قطع الصخور (المحاجر) وأطلقوا بعض هذه الأسماء على الحجارة، وما زال بعض هذه الأسماء دارجاً حتى اليوم، ومن هذه الأسماء حجر المزي، وقسم إلى ثلاثة أسماء أيضاً، أولاً المزي الحلو، ثانياً المزي الأحمر أو الحجر الدير ياسيني (الياسيني) وهو حجر جيرى وردي مبلور، ومن أماكن وجوده في فلسطين في عهد الانتداب كان في مناطق جنوب شرق القدس وبيت لحم ودير ياسين، وقال لنا الحاج علي عبد علي جابر أبو يوسف: "إن معظم البلاط الحجري الموجود في شوارع القدس والمسجد الأقصى قبل الهجرة كان من حجر دير ياسين".

" أن هذه الثياب الجميلة والمحتشمة في دير ياسين، لم تعد زياً تراثياً لنساء اليوم .. أنه عامر في الذاكرة وعلى رفوف الخزائن، إلا أن بعض النساء هذه الأيام والحمد لله أصبح التعامل لديها مع هذه الثياب وارتدائها أكثر قبولاً لدى الشابات في مناسبات الأفراح والأعراس .. فهل من عودة ليصبح الثوب الفلاحي المحتشم تقليداً وتجديداً".

الأفراح

في فلسطين عادات وأعراف ومراسيم متبعة للزواج، وتتم على مراحل، وهناك بعض الاختلاف ما بين القرى والمدن.

أما في القرى فهذه العادات والأعراف رغم بساطتها، لا يحيد عنها ابن القرية، ولا يجوز الخروج عليها، وكل الخلافات الكثيرة التي تنشأ في قرى فلسطين ومدنها بسبب الخروج عن هذه العادات والتقاليد.

نعم إن الفرحة هو أمنية للجميع دون استثناء. وفي هذه الحلقة لا أتحدث عن الأفراح في دير ياسين؛ لأنني قد تحدثت في حلقات ماضية عن الأفراح لقرى منطقة القدس، لكن الذي يميز أبناء دير ياسين عن غيرهم هو كثرة الشعراء الشعبيين (الزجالين الشعبيين) لأن ليالي السهر الجميلة، بل وأحلاها تلك الأعراس التي يشارك فيها زجالو دير ياسين، حيث قال لي أحد أبناء قرية لفتا المجاورة: كانت الأمنية المحببة لأهالي لفتا هو قدوم الشعراء من دير ياسين لإحياء الأفراح في لفتا، وقال آخر: في ليالي الأفراح، تعرض كل فنون الرجال من غناء، دبكة، تمثيليات، نكات، عروض مسرحية، شبابه، يرغول، مجوز، لكن اليسنة (هم شعراء الزجل من أبناء دير ياسين)، كانوا يتقنون فنهم بشكل مخطط ولا يعلو عليهم أحد لا في سهرة ولا في زفة ابتداء بالدلعونا وانتهاء بالشوباش.

ويجب أن أذكر أن لجنة دير ياسين كان لها قوانين تطبق على أهالي القرية، وكان من هذه القوانين تحديد مهر العروس، وكانت زمن الانتداب مضرب الأمثال في القدس وقراها، فكان مهر العروس تسعة وثلاثين جنيهاً مقدماً، وجنيهاً واحداً مؤخراً، وبقي الحال كذلك حتى الهجرة، وسميت بالجيزة الياسينية.

وبنشاط أبناء دير ياسين في عهد الانتداب البريطاني أصبح اقتصاد القرية كل اعتماده على بيع الحجارة، وكانت محاجرهم ذات سمعة طيبة لكثرة الأنواع الموجودة عندهم، منها الحجر الأحمر، والحجر الأحمر الوردي فبوراق، والحية، وأحجار المقادم، وكان في القرية عدة محاجر، وأصبح عدد من أبناء القرية من كبار تجار الحجر، وتم تأسيس أول كسارة عام ١٩٢٧م لصاحبها أحمد أسعد رضوان، وقبل الهجرة كان في القرية خمس كسارات، كان أصحابها كل من حمولة زيدان وحميده وسمور والجندي، وعرفنا من المحاجر : محجر الحاج جابر، ومحجر لدار عقل، ومحجر لدار زيدان.

المهن والوظائف

ورغم كل ما ذكرنا فقد بقيت سوق العمل والمهن والوظائف مفتوحة أمام دير ياسين، خصوصاً أنها قريبة من مدينة القدس.

ومن هذه الوظائف : البوليس الفلسطيني، الصحة، التعليم، الأشغال العامة، التلفزيون، وكاتب العرائض، وكان في القرية بعض البقالات وبعض النجارين وكهربجي، وكثير من الشباب عملوا في سياقة الشاحنات لنقل الحجارة خارج القرية، ووجد في القرية فرن لصاحبه حامد الخليلي.

من تاريخ القرية القديم

من المتعارف عليه عند الباحثين أن قرية دير ياسين حديثة بالنسبة للقرى المجاورة لها، رغم وجود آثار رومانية قديمة في أراضي القرية، وكان عمرها الحالي بهذا الاسم لا يتعدى (١٥٠) سنة أو أكثر قليلاً.

عين التوت

ورد في كتاب كل من تبقى للخالدي، أنه كان في الجنوب الغربي للقرية خربة يطلق عليها اسم خربة عين التوت، وكانت عام ١٩٥٦م قرية تابعة للقدس الشريف، وأن عدد سكانها (٣٩) نسمة، ولا يعرف هل هذه القرية اندثرت أو أن أهلها انتقلوا إلى موقع دير ياسين، الموقع الحالي للقرية.

ومن خلال زيارتي للأستاذ الباحث التراثي والفلكلوري عبد العزيز أبو هديا، رئيس مركز التراث الشعبي الفلسطيني في جمعية إنعاش الأسرة-البيرة، وأمين سر جمعية الفلكلوريين الفلسطينيين، والذي زار قرية دير ياسين يوم ١٥/٢/١٩٨٥م ضمن فريق من أجل إحياء وإظهار القدس، والتي كانت من ضمن بحوثه في ذلك الوقت، زودني ببعض صور القرية الموجودة في مكتبته البيئية قال :

لقد ورد في كتاب الجغرافيا التاريخية لفلسطين والأردن وجنوب سوريا من تأليف الدكتور كمال عبد الفتاح، والدكتور ديتير هيتروث Dieter W. Hütteroth الذي صدر عام ١٩٧٧م عن قرية خربة عين التوت، أن عدد سكانها سبع أسر، وكل أسرة تقدر بخمسة أشخاص، وهي زراعية ودفعت ضريبة للحكومة العثمانية عام ١٥٩٦م بقيمة (١٨٦٠) آقجه، وهذه الضريبة مقسمة إلى (١٠٠٠) آقجه عن القمح، و (٥٦٠) آقجه عن الشعير، و (٢٠٠) آقجه عن الزيتون، ثم (١٠٠) آقجه رسوم الزواج، والأوقجه عملة تركية مصنوعة من الفضة، وعيارها من أنواع الغالي، ولكن خف وزنها وقل عيارها في نهاية الدولة العثمانية.

بيت مزميل

ومن خلال البحث والدراسة عن القرية وعن تاريخها واسمها التقيت مع المؤرخ الأستاذ فهمي الأنصاري حيث قال :

" إن قرية دير ياسين في بداية الدولة العثمانية كان اسمها (بيت مزميل)، وعرفت فيما بعد بالاسم الحالي دير ياسين " : لكن الحاج محمد عايش زيدان (أبو عايش) قال : " أن بيت مزميل هي قرية في أراضي عين كارم، وهي على الحدود مع دير ياسين، وأقام اليهود مكانها مستوطنة سميت بيت زايد، وشمال غرب هذا الموقع بنيت مستوطنة أخرى أطلق عليها اسم بيت مزميل ".

دير ياسين في نهاية العهد العثماني

نظراً للموقع الاستراتيجي العسكري لقرية دير ياسين، قامت الحكومة التركية ببناء وحفر الخنادق والاستحكامات للمشاة والمدفعية في الأراضي الشمالية والغربية للقرية، وخصوصاً في جبل القواعد وجبل الطفطاف، وعندما أوشكت الحرب

العالمية الأولى على النشوب أخذ الجيش العثماني في فلسطين بتدريباته، وزاد من نشاطه، وقبل بدء المعارك وصلت الإمدادات العسكرية من المدافع إلى القرية عن طريق أبو غوش مروراً بالأراضي الشمالية لقرية ساريس، وتُجر هذه المدافع بالثيران إلى مواقع الجيش التركي في البلدة، وأمر قائد الحامية العسكرية للجيش، أهالي القرية بالنزوح عنها إلى القرى المجاورة والبعيدة عن أماكن المعارك المتوقعة.

بعد تقدم الجيش الإنجليزي في معارك باب الواد وهزيمة الجيش العثماني، سار الجيش الإنجليزي بجيوشه معزراً بثلاث فرق وهي (٥٢،٧٥)، وفرقة الفرسان الأسترالية) التي حشدتها قائد الجيش الإنجليزي (النبلي)، ودارت معركة في البلدة غير متكافئة، انسحب فيها الجيش التركي.

دير ياسين والانتداب

عرف عن (اليسنة) بتسكين اللام وفتح الياء - المقصود أهالي دير ياسين - حماسهم ومشاركتهم وتفاعلهم مع ما كان يدور من أحداث في فلسطين، فكانوا من أوائل القرى التي سارعت إلى شراء الأسلحة وشاركت القرى المجاورة في الهجوم على القوافل التابعة للجيش البريطاني.

وفي أحداث ثورة وإضراب ١٩٣٦م كان لهم دور مميز في مقارعة الانتداب، الأمر الذي أوقعهم تحت ظلم قوات الانتداب بممارسات قمعية على الأهالي واقتحام البيوت، ووضع نقطة (مركز) مؤقت لجيش الانتداب البريطاني، ومعهم قائمة بأسماء رجال القرية الذين يثبتون وجودهم يومياً الساعة الرابعة مساءً (إقامة جبرية لكل أبناء القرية) وكل من يتغيب بدون تصريح يعاقب.

وبالرغم من ذلك ظهر في دير ياسين العديد من أبنائها الثوار، والذين كانت مهماتهم ضرب القوافل العسكرية على الطرق الرئيسية، إضافة إلى تعطيل سكة الحديد خارج حدود القرية.

وكان هؤلاء الثوار يتخذون من الجبال بيوتاً لهم ومركزاً لانطلاقهم، ثم هدأت المقاومة تقريباً حتى نهاية عام ١٩٤٧م.

وعندما جاء قرار التقسيم الذي أشعل نار الحرب بين العرب واليهود، شعر أهل فلسطين بخيبة أمل، وأدركوا لأول مرة في تاريخهم أنهم أمام حقيقة مرة هي الدولة اليهودية، التي خلقتها بريطانيا بمساعدة أمريكا والدول التي تدور في فلكها، وعلى أثر ذلك تطلب الوضع وجود أسلحة بأي شكل من الأشكال، مما دعا أهالي دير ياسين إلى اجتماع ضمهم جميعاً، فقرروا شراء السلاح لحماية أرضهم.

ويذكر التاريخ أن أهالي دير ياسين كانوا من النشطاء في الحصول على السلاح، ولم يتخلف بيت في دير ياسين عن شرائه.

ذكرى لذكرى

إن النكبة التي حدثت لأهلنا في دير ياسين الذين فقدوا الآباء والأبناء والأمهات والأخوات وطردها من الديار، دفعت بعضهم إلى تدوين ما وصله من الرواية الشفوية وجهودهم مشكورة أمثال : المؤرخ والكاتب عارف العارف، الذي دون الحدث كما هو قبل أن ينسج الدهر عليهم خيوط النسيان، وأقول أن معظم الذين كتبوا عن دير ياسين ومذبحتها أخذوا عنه دون الإشارة إليه، فرحم الله الكاتب والمؤرخ عارف العارف، وكذلك الأخ إبراهيم رضوان الذي قدم لقرئته تفصيلاً للمذبحة في جريدة الأقصى تحت عنوان : دير ياسين .. نذكرك في القلوب باقية، ولا ننسى الدكتور شريف كناعنة والذي كانت جهوده بداية لإحياء بعض القرى منها دير ياسين.

وأود أن أقول إن مذبحة دير ياسين بأخبارها الأليمة، بحاجة إلى موسوعة خاصة، وليس إلى مقالات، من أجل حماية التاريخ، وترسيخ جذوره، ليمتزج فيها الحنين بالحزن والشوق بالأسى، والحسرة بالأمل.

بداية الهجوم

حاولت الاجتهاد لتعريف هذا الهجوم بالرواية الشفوية من كبار السن، لكن أحببت أن أطعمه بروايات مكتوبة بوقت ومكان الحدث، ولكل من هؤلاء روايته وطريقته الخاصة في نقل الصورة.

وها أنا أكتب مقتطفات من الرواية الشفوية من شهود عيان فقالوا :

بعد استشهاد القائد عبد القادر الحسيني وسقوط مدينة القسطل، ووقوع عدد كبير من أبناء دير ياسين دفاعاً عن القسطل، استغل أمر اليهود بهذه الانتصارات، فقام مناضلو أبناء دير ياسين بالسهرة وبمعنويات عالية على شكل دوريات في أطراف البلد لحراستها طيلة الليل بالتناوب، وفي تمام الساعة الواحدة ليلاً شاهد العديد من أبناء دير ياسين وسيارتهم تضرب كشافاتها بطن الواد (واد عين رواس)، فقام المناضلون بإعلام أهالي القرية، وفعلاً شوهدت سيارات ومصفحات تشرف على البلدة قادمة من مستعمرات : منتقوري، جفعات شاؤول، بيت هاكيرم، محاولة حصار البلدة، وكان الجميع ينتظر قدومها بمعنويات عالية وثقة كبيرة، في جو مشبع بوعود الدعم، وبدأ كفاح أهالي دير ياسين في تمام الساعة الثانية من فجر الجمعة ١٩٤٨/٤/٩م والبلد كلها مجندة في الدفاع عن وجودها، وبدأت زخات من رصاص الرشاشات من مواقع مختلفة على القرية، فقسم أبناء دير ياسين أنفسهم، وبادروا بشن هجمات على مواقع إطلاق النار، وما هي إلا لحظات حتى راحت المصفحات تقصف القرية بالقنابل والمدافع القوسية (المورتر)، ومناضلو القرية عدتهم حوالي ستين بندقية وبعض الرشاشات والبرنات، فبعث أبناء دير ياسين برسائل استغاثة لمواجهة هذه القوة من القرى المجاورة، وقوات جيش الإنقاذ الذي يربط في عين كارم، وكان عددهم يزيد عن المائة مقاتل، مزودين بالعتاد والسلاح ومثلما قال عارف العارف في كتاب النكبة والفردوس المفقود صفحة "١٧٢" : " فلم يركض هؤلاء أبضاً لإغاثة دير ياسين، لا، ولا زودوا المناضلين بالذخيرة والعتاد، كما أن الجيش البريطاني ورجال البوليس الفلسطيني الذين وصلهم الخبر لم يركضوا لنجدهم، ولا زودوا المناضلين بالذخيرة والعتاد، ولا الصليب الأحمر ."

ومع ذلك فقد دافعوا عن قريتهم دفاع المستميت، ولم يسلموها إلا بعد أن كانت قد نفذت ذخيرتهم، وآخر طلقة لديهم. وقتلوا ما لا يقل عن مائة من المهاجمين، وكان ذلك حوالي الساعة الثانية والنصف ظهراً ."

وحمي وطيس المعركة بسلاح أبناء البلدة الذي تم شراؤه يوم عز السلاح، وتنادوا إلى الصمود لتأدية واجبهم المقدس، ومع شروق الشمس قام القناصة من

أبناء البلدة بتشكيل حاجز وسد منيع في وجه المصفحات، وفي المنطقة الجنوبية الغربية للقرية تفوق البطل محمد عثمان ورفاقه في هذه المنطقة، ويعرف عن محمد عثمان أنه من أشهر القناصة في منطقة القدس، وفي هذه الأثناء وصل علي قاسم، ومحمود علي، كانا خارج القرية، وهما من الأبطال الأشاوس وعملا على فتح ثغرة في الحصار بألم وحسرة برغم الفخر والإعجاب من صمود أهل البلدة الذين لم يستسلموا إلا عندما نفذت ذخيرتهم.

وورد في كتاب النكبة لعارف العارف على لسان مناحم بيغن الذي كانت منظمة الأرغون تأتمر بأوامره : " لقد كثرت ضحايا اليهود بسبب نار العرب التي كانت من شارع إلى شارع ومن دار إلى دار ."

من كتاب النكبة لعارف العارف

يحدثك سكان القرية عن بطولة أبنائهم فيها، ما فعله المرحوم محمد الحاج عايش، الذي ظل يقاتل حتى قتل، ولما قتل زغردت والدته حلوة زيدان، فنزل إلى الميدان الحاج عايش، فقتل، ثم زغردت حلوة، ونزلت هي بنفسها إلى الميدان، وظلت تقاتل إلى أن وافاها أجلها. ومنها ما فعلته جميلة أحمد صلاح، وذيبة عطية، اللتان نزلتا إلى الميدان، وكانتا تحرضان الشبان على القتال، وتوزعان الذخيرة على المناضلين.

ومنها ما فعله القائد علي القاسم، الذي قتل عشرة، وفؤاد عبد الحميد سمور الذي اخترق صفوف المهاجمين ونجا بنفسه بعد أن قتل تسعة من المهاجرين، وبعد سقوط دير ياسين خرج أهلها.

وما كاد هؤلاء يلتقون بسكان بيت المقدس والقرى المجاورة، حتى راحوا يحدثونهم عما جرى، فذبَّ الرعب في قلوب الناس، وراحوا يرحلون عن منازلهم، حاملين معهم أبناء مختلفة عن الفظائع اقشعرت لها الأبدان، ولقد زاد الطين بلة بيانات الرجال المسؤولين والمقالات التي نشرت في الصحف، والبيان الذي أذاعه الدكتور حسن فخري الخالدي، أمين سر الهيئة العربية العليا، واصفاً هذه المجزرة البشرية بأسلوب كان القصد منه تنبيه الشعب العربي في فلسطين، وفي سائر الأقطار إلى الخطب الذي ألمَّ بسكان هذه البلاد.

لم يخفوا لنجدة فلسطين، ولكن الريح هبت في اتجاه معاكس، وعمل الطابور الخامس عمله، فراح ينشر بين أفراد الطبقة الساذجة أرقاماً مبالغاً فيها عن قوة اليهود الحربية وأسلحتهم ومقدرتهم على القتال، مما كان له أسوأ الأثر في صفوف العرب. ولقد أذاعت الوكالة اليهودية أثر انتشار أخبار هذه المذبحة بياناً استنكرت فيه ما جرى، وعبرت عن امتعاضها وأسفها الشديد للطريقة الوحشية التي اتبعت في الاستيلاء على هذه القرية، وأبرقت إلى الملك عبد الله بهذا المعنى، فأجابها رئيس وزرائه ببرقية جاء فيها أن :

" على الوكالة أن تتحمل وزر ما جرى، بوصفها الممثلة للشعب اليهودي، وهي التي تتكلم باسمه ضد قرية لم تقترب إثمًا فقد كانت إلى ذلك الحين مسالمة ". وختم الكاتب كلامه بقوله: " ما من عمل قام به العرب في الشهور السابقة يشبه هذا العمل الجنوني الفظيع الذي اقترفه أعداؤهم ".

وقال المستر غريفس رئيس بلدية القدس يومئذ إن مندوب الصليب الأحمر الدولي الدكتور دي رينيه الذي زار القرية فور وقوع الحادث، ورأى كل شيء بعينه، أنه " أي الدكتور دي رينيه " لم يذكر الأرقام على حقيقتها، وإنما اكتفى بالقول إن عدداً كبيراً من المدنيين غير المسلحين من كل الجنسين ومن أعمار مختلفة قد ذبحوا ذبح الأنعام "، وهذا ما جاء في تقريره الذي أرسل نسخاً عنه للحكومة والهيئة العربية العليا والوكالة اليهودية.

ويؤكد مناحيم بيغن، قائد منظمة الأرغون الذي أشرف على حملة دير ياسين أن ما جرى في دير ياسين كان بموافقة قائد الهاغاناه .

بلغ من هول هذه الجريمة وفظائعها أن وقف المستر كرينش جونز وزير المستعمرات البريطانية في مجلس العموم يندد بها قائلاً :

" إن جميع الحقائق والمعلومات التي توفرت لدينا تثبت هذه الجريمة القاسية النكراء، وأثارت شعور الأسف العميق والكرهية لمثل هذه التصرفات الوحشية، وجعلت أمر الوصول إلى تسوية نهائية للقضية الفلسطينية أكثر بعداً عن ذي قبل، حتى " قيادة الهاغاناه فقد استنكرت هذا العمل وحاولت أن تتصل من تبعته.

وشاء ربك أن يفتضح أمرهم بعد حين، فيقوم بعد أربع سنوات، أربعة من الذين جرحوا أثناء القتال يطالبون بحقهم في المبالغ التي خصصت للمشوهين، وكان هؤلاء الأربعة من جماعة الأرغون، ف قيل لهم : إن هذه المبالغ خصصت للمشوهين، الذين اشتركوا في المعارك الرسمية، تلك المعارك التي كان يديرها الجيش اليهودي. المعروف أن معركة ياسين ليست من المعارك المذكورة، ولجأ رجال الأرغون إلى القضاء فأثبتوا أن معركة دير ياسين أيضاً من المعارك الرسمية، بدليل أن رجال الهاغاناه اشتركوا فيها، وأثبت "مردخان توفمان" قائد منظمة الأرغون في القدس وواضع الخطة لمذبحة دير ياسين في معرض شهادته أمام المحكمة أنه اتفق والأدون "دافيد شالتنيل" قائد قوات الهاغاناه فيها على أن يشترك ١٢٠ محارباً من منظمتي الأرغون وشترن للقيام بمعركة دير ياسين، على أن تساندتهم مدفعية الهاغاناه، وأنه هو ودافيد شالتنيل هذا، كانا من مستعمرة جبعات شاول يشرفان على المعركة وهي قائمة في دير ياسين، وأن المعركة استمرت من الساعة الرابعة صباحاً حتى الخامسة مساءً، وقد أسفرت عن انتصار اليهود، وأن قوات الهاغاناه تقدمت عند انتهاء المعركة فتسلمت القرية ورفعت العلم عليها.

شهداء مجزرة دير ياسين

إن أهالي دير ياسين دفعوا ضريبة الدم غالية، وكان من شهدائهم :

شهداء حمولة عقل

١. الحاج أسعد رضوان ٢. محمد أسعد رضوان ٣. رضوان أسعد رضوان
٤. عمر أحمد أسعد رضوان ٥. الحاج إسماعيل عطية ٦. محمد إسماعيل عطية
٧. ربحي محمد إسماعيل عطية ٨. محمود محمد إسماعيل ٩. موسى محمد إسماعيل عطية ١٠. أمينة حسين زوجة إسماعيل عطية ١١. سارة الكوبريه
١٢. الحاجة عائشة رضوان ١٣. الحاجة صبحة سمور ١٤. الحاج محمد زهران ١٥. محمد فاطمة عيد ١٦. علي محمد زهران ١٧. محمد علي زهران
١٨. طفل صغير لعلي محمد رضوان ١٩. بسمة أسعد رضوان ٢٠. فاطمة زهران

٢١. صفية جمعة زهران ٢٢. فتحية جمعة زهران ٢٣. فتحي جمعة زهران
٢٤. يسرى جمعة زهران ٢٥. فاطمة عطية ٢٦. محمد موسى زهران ٢٧. محمد محمود زهران ٢٨. زينب المالحية ٢٩. زينب موسى زهران ٣٠. رسمية موسى زهران ٣١. الحاجة محمدية زهران ٣٢. حمدة زهران ٣٤. سميح أحمد زهران ٣٥. سميحة أحمد زهران ٣٦. نظمي أحمد زهران ٣٧. نظمية أحمد زهران ٣٨. سعيد موسى زهران ٣٩. زينب جمعة زهران .

شهداء حمولة زيدان وسمور

١. الحاج عايش زيدان ٢. حلوة زيدان ٣. محمد عايش زيدان ٤. حسن علي زيدان ٥. علي حسن زيدان ٦. فاطمة زوجة علي حسن ٧. منصور عبد العزيز سمور ٨. عبد الله عبد المجيد سمور ٩. محمد سمور الطنجي ١٠. موسى إسماعيل الشرش ١١. مصطفى زيدان ١٢. آمنة البتوني ١٣. عابده العمور ١٤. محمد علي مصطفى ١٥. تمام زوجة موسى مصطفى ١٦. ساميه مصطفى ١٧. عزيزه علي مصطفى ١٨. شفيقه موسى مصطفى ١٩. يسرى علي مصطفى ٢٠. ميسر علي مصطفى ٢١. عيشه زوجة موسى الشرش ٢٢. الحاجة فضية إسماعيل ٢٣. حسين إسماعيل سمور ٢٤. محمد علي خليل عايش ٢٥. شفيق موسى مصطفى ٢٦. آمنه علي مصطفى ٢٧. الحاج محمد سمور ٢٨. محمد جودة حمدان ٢٩. محمود محمد جودة ٣٠. سمور خليل إسماعيل .

شهداء حمولة جابر

١. الحاج جابر مصطفى جابر ٢. الحاجة صفية جابر ٣. توفيق جبر جابر ٤. جبر توفيق جبر ٥. أحمد حسن جابر ٦. سعيد محمد سعيد جابر ٧. خليل مصطفى رشيدة جابر ٨. محمد خليل مصطفى جابر ٩. سليم محمد سليم جابر ١٠. صادق جبر جابر ١١. الشيخ خليل جابر ١٢. فؤاد الشيخ خليل .

شهداء حمولة حميدة

١. يوسف أحمد حميدة ٢. عيسى أحمد حميدة ٣. محمد عيسى أحمد ٤. الشيخ حامد حميدة، واثنين من إخوانه ٥. عبد الرحمن حميدة ٦. محمد صالح حميدة ٧. علي حسين حميدة.

شهداء حمولة عيد

١. الحاج عيسى محمد عيد ٢. زوجة الحاج عيسى محمد عيد ٣. جميل عيسى محمد عيد ٤. عيسى سعيد محمد عيسى ٥. علي الحاج خليل عيد ٦. إسماعيل محمد عيد ٧. صالحه محمد عيسى عيد ٨. إسماعيل لشاكر مصطفى .

شهداء دار مصلح

١. محمد عبد حسن مصلح ٢. وطفة عبد محمد عبد ٣. الحاجة عزيزة مصلح ٤. علي حسين علي مصلح ٥. حلوه الشايب.

شهداء تواجدوا في دير ياسين

١. عبد الخليلي وولده ٢. المعلمة حياة البلبيسي، وكانت تعمل في مدرسة إناث دير ياسين.

وسقطت قرية دير ياسين في زمن الذهول والإحباط بمعاناة، وقد تجرّع أهلها أحزان المأساة في أعنف صدمة تعرضت لها هذه القرية الخالدة، وخرج من نجا منهم لا يعلمون ماذا يفعلون غارقين في الحيرة، أفكارهم مباللة، تاركين وراءهم أعز ما يملكون، مشتتين لاجئين في وطنهم، موزعين في القدس وقراها، وفي مدينة البيرة، ورام الله وقراها، على أمل العودة إلى بلدتهم الحبيبة الخالدة دير ياسين، إن شاء الله .

الجغرافيا السياسية الإسرائيلية لمدينة القدس

السيد أكرم زهران
المركز الجغرافي - دائرة الدراسات

تمهيد

القدس مدينة عربية ومن المدن المعروفة منذ أقدم عهود التاريخ، وقد بنيت قبل نحو خمسة آلاف سنة، حيث ورد اسم المدينة في الحفريات التي اكتشفت في شمال سوريا، باسم سالم وهو أول اسم عرف للمدينة، وكذلك ورد في رسائل تل العمارنة للقدماء المصريين وقد تعرضت المدينة للدمار على مر التاريخ لمرات عدة.

عرفت القدس بعدة أسماء وأقدمها ييوس نسبة إلى العرب البيوسيين الذين هاجروا إليها من الجزيرة العربية، وعند الاحتلال الروماني للمدينة أطلق عليها اسم إيلياء حتى فتحها الخليفة المسلم عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وهذا ما ورد في العهدة العمرية، وقد أطلق عليها الخليفة العباسي المأمون اسم القدس أو بيت المقدس.

تقع المدينة على مجموعة من التلال وتحيط بها الجبال من الجهات الأربع، تاركة للمدينة ممرات وثغور طبيعية توفر لها الحماية وسهولة الاتصال، وترتفع نحو ٧٥٠ متراً فوق سطح البحر، وأن موقعها الاستراتيجي يرتبط بموقع فلسطين ككل، حيث تشكل المركز لفلسطين وقلب العالم العربي، وهذا البعد أعطاه أهمية استراتيجية كمعبر وحلقة وصل بين قارات العالم القديم.

والقدس مدينة شهدت أقدم الحضارات الإنسانية ومن أول الأماكن التي عرفت مظاهر التوحيد بالله، وموقعها الاستراتيجي وأهميتها الدينية جعلتها دوماً محط أطماع الغزاة، والقدس اليوم أسيرة بيد احتلال يعمل كل يوم على تغيير معالمها وطمس هويتها العربية والإسلامية.

وفي هذه الورقة سنتناول جانباً هاماً، وهو الجغرافية السياسية للمدينة، وكيف يعمل الاحتلال الصهيوني على تشكيل الجغرافية الجديدة للمدينة وفق منظوره الاستراتيجي والذي يسعى لتكريس السيطرة الدائمة على المدينة بشقيها، وذلك بأساليب مختلفة منها التهويد بمفهومه العقائدي والديموغرافي والجغرافي والسياسي، وكذلك عزلها عن بقية أجزاء الأراضي الفلسطينية.

الجغرافيا السياسية الإسرائيلية لمدينة القدس

عند احتلال العصابات الصهيونية لفلسطين عام ١٩٤٨ مباشرة بعد جلاء قوات الانتداب البريطاني ومنها الشطر الغربي لمدينة القدس، والإعلان عن قيام دولة إسرائيل وعاصمتها القدس الغربية، عملت سلطات الاحتلال على محو المعالم العربية لذلك الجزء من المدينة، وقامت بتدمير معظم الأحياء العربية ومنها الطالبية والقطمون ومأمن الله، وسعت لضخ أكبر عدد من المستوطنين اليهود، وعملت على تكريس مظاهر السيادة الإسرائيلية على القدس.

وبعد عام ١٩٦٧ واحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة ومن ضمنها القدس الشرقية، لجأت سلطات الاحتلال إلى أساليب وخطط مختلفة لإعادة تشكيل المدينة ليخدم ذلك الأهداف الاستراتيجية بعيدة المدى، ومن ضمنها الجغرافيا السياسية للمدينة ببعدها الاستراتيجي بالسيطرة على أكبر مساحة جغرافية من الأراضي المحيطة بالمدينة بكافة الجهات.

من هنا فقد عمدت سلطات الاحتلال إلى إحداث سلسلة من التغييرات بهدف التهويد وتحقيق العمق الاستراتيجي الآمن للمدينة وباشرت بتطبيق ذلك ضمن الأبعاد التالية :

أولاً - الموضع

إن موضع مدينة القدس فريد من نوعه بما توفره من ميزة الانغلاق على نفسها والانفتاح لما يجاورها، فالمدينة تأسست على مجموعة من التلال داخل سورها الحصين، وكان أول ما بدأت به سلطان الاحتلال هو الموضع؛ لإحداث خلل في تركيبه لصالح الطرف الإسرائيلي ومن هذه الإجراءات :

- ١- هدم ١٣٥ منزلاً في حي المغاربة لتوسيع مساحة أمام حائط البراق.
- ٢- الإعلان عن قرار استملاك ١١٦ دونماً من حارة الشرف لضمها للحي اليهودي المقام على أنقاض حي المغاربة.
- ٣- هدم حي السلسلة والباشورة.
- ٤- إجراء سلسلة من الحفريات والأنفاق داخل البلدة القديمة وتحت المسجد الأقصى المبارك.

٥- منع ترميم المباني العربية، وكذلك الاستيلاء على منازل عربية عديدة بأساليب مختلفة.

إن الإجراءات السابقة الذكر تهدف في مجملها إلى تهويد قلب المدينة بزرع البؤر الاستيطانية اليهودية ومضايقة سكانها الفلسطينيين الذين سيعيشون في جو من التغريب الاجتماعي، وهذا يدخل ضمن سياسة التجريف العرقي لخلق واقع ديموغرافي جديد يتفق مع الطابع اليهودي ويطمس المعالم العربية والإسلامية للمدينة بنمطها التاريخي والمعماري المعهود.

ثانياً - الموقع

إن موقع مدينة القدس الذي تحيط به الجبال من الجهات الأربع، وهي جبل الزيتون من الشرق والنبي صموئيل من الغرب، وجبل المشارف من الشمال والمكبر من الجنوب، إضافة لموقعها الاستراتيجي كمركز لكل فلسطين، وبهدف السيطرة الدائمة على المدينة لجأت سلطات الاحتلال للسيطرة على الموقع ضمن أكبر مساحة جغرافية ممكنة يشمل الجوار والممرات الطبيعية للمدينة وتجسداً لذلك الهدف فقد باشرت بالخطوات التالية :

- ١- الضم : حيث قامت سلطات الاحتلال بالإعلان عن الجزء المضموم لبلدية القدس وبمساحة تصل إلى ٧٢ كم^٢، وذلك بإزاحة حدود البلدية نحو الشمال والجنوب بطول ١٦ كم وبعرض ٤-٦ باتجاه الشرق والغرب بحيث يشمل هذا الضم أكبر مساحة ممكنة من الأراضي الفارغة من السكان العرب.
- ٢- الدوائر الاستيطانية : باشرت سلطات الاحتلال ببناء سلسلة من الحلقات الاستيطانية، بدءاً من خارج الأسوار - الحلقة الأولى - بهدف محاصرة الأحياء العربية وعزلها ومنع نموها، تم الامتداد بحلقات دائرية تتسع مع الابتعاد عن المركز، وتمتد الحلقات الثانية من مستعمرة جيلو جنوباً على مشارف مدنية بيت لحم لتتصل مع المستعمرة التي أقر بناؤها على جبل أبو غنيم، وفي الشرق تمتد مستعمرة معاليه أوديم كظهير استراتيجي وعمراني يزحف باتجاه الشرق حتى منطقة الخان الأحمر ويمتد بأذرعه ليتواصل مع مدينة القدس، وفي الشمال يجري

وبالمقابل فقد حرصت سلطات الاحتلال على محاصرة الأحياء العربية عن طريق حرمانها من الخدمات المختلفة حيث تكتظ المباني، وتتعلم المخططات الهيكلية، ومشاريع المنفعة العامة لخدمة المستعمرات تخترق المقابر والأحياء العربية لتعمل على منع نموها وتآكلها لتبرز التناقض الكبير، وتدفع باتجاه طرد السكان الفلسطينيين خارج حدود مدينة القدس لتصل إلى التهويد المطلق.

العمل على توسيع النبي يعقوب وبسجات زئيف، ومشروع بناء البوابة الشرقية وجدارها الغربي المؤلف من كتلة جفعات زئيف حتى تتدمج مع مستعمرة راموت. ٣- ربط الكتل الاستيطانية بشبكة طرق حديثة وأنفاق وجسور تجسد فكرة التواصل الإقليمي بين هذه المستعمرات ومدينة القدس، وكذلك تعزيز مبدأ عزل التجمعات العربية ومحاصرتها والوصول على فصل شمال الأراضي الفلسطينية عن جنوبها.

إن سلطات الاحتلال ومن خلال الإجراءات السابقة تسعى لفرض الحقائق كأمر واقع على موقع المدينة بما يتفق مع مشروع القدس الكبرى، والتي تمتد شرقاً حتى مشارف مدينة أريحا وتضم كتلة غوش عتصيون وكتلتي جفعات زئيف وبسجات زئيف جنوباً وشمالاً.

ثالثاً - الشكل

إن سلسلة التغيرات التي بدأت بها سلطات الاحتلال على موضع المدينة وموقعها، ينعكس بطبيعة الحال على تغيير في وجه وشكل المدينة من حيث النمط العمراني ومتروبولية المدينة بما يخدم المساحة التي تم مضاعفتها إلى ١٠٨ آلاف دونم، وهدفت المخططات التي وضعت للمدينة إلى تغيير معالمها وشكلها المعروف تاريخياً، وذلك لطمس هويتها العربية والإسلامية.

ففي داخل البلدة القديمة طالت عملية الهدم العديد من المعالم الأثرية والدينية وكذلك الحفريات التي تتم على عدة مراحل، وتبع ذلك العمل خارج الأسوار ضمن سلسلة الأطواق الاستيطانية والتي تأخذ شكل كتل وتجمعات مدنية، ما يخدمها من مرافق البنية التحتية ومناطق الفراغ، والمخططات الهيكلية التي تخدم تطور المدينة ونموها، وهذه الكتل تتخذ طابعاً عمرانياً موحداً.

وفي الوقت نفسه تم ربط هذه الكتل الاستيطانية بشبكة من الطرق الحديثة والتي تتخذ أشكالاً طولية وعرضية ودائرية وما يتبعها من أنفاق وجسور تهدف في مجملها إلى تعزيز وحدة المدينة بشقيها وكذلك السيطرة الدائمة وتغيير ملامح المدينة المعروفة تاريخياً.

الخاتمة

لقد تعرضت مدينة القدس على مر العصور لغزوات متتالية تركت وراءها الدمار، لكنها ما لبثت أن اندحرت ليعاد بناء المدينة من جديد، لكن الحال الآن يختلف فالاحتلال يكرس السيطرة الدائمة، ويسعى إلى تفريغ المدينة من كافة مقوماتها السكانية والثقافية والدينية وبتشكيل جغرافي جديد أسسه البناء والتوسع الاستيطاني، لفرض سياسة الأمر الواقع والوصول إلى نهاية مسبقة للمفاوضات حول مدينة القدس، والعمل يجري من قبل سلطات الاحتلال على الأرض.

وفي مواجهة ذلك لا بد من أن تتخذ قضية القدس بعدها العربي والإسلامي والدولي للحفاظ على المدينة المقدسة من خطر التهويد المطلق، وبهذا الصدد نضع التوصيات التالية :

- ١- الحفاظ على البلدة القديمة بطابعها العربي والإسلامي وترميم منازلها وأسواقها، والحيلولة دون تسرب منازلها للمستوطنين اليهود.
- ٢- دعم مشاريع الإسكان الفردية والجماعية للمواطنين المقدسيين في الأحياء التي لا زالت تشكل أغلبية رغم الحملة الاستيطانية الشرسة.
- ٣- العمل على تواصل نمو وامتداد البناء العربي في الجوار.
- ٤- دعم المراكز الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والتي تعزز صمود مواطنيها وتحافظ على دورها التاريخي والسياسي.
- ٥- وإن الفرصة لا زالت أمامنا لإيقاف عمليات التهويد حيث لا زال الموقف الفلسطيني على الأرض هو الأقوى من ناحية عمرانية وديموغرافية.

تاريخي

ثلاث رؤى حول إيقاع الذاكرة وصدى المكان "فلسطين - ٤٨"

أ. د. أحمد السعدني

كلية الآداب - جامعة المنيا

من اللافت للنظر أن الوعي بفلسطين المحتلة ٤٨ كان في نبض العقل العربي والوجدان العربي قبل النكبة - وقد تمثل هذا الوعي تعبيراً في الأدب العربي. وذلك على الرغم من المحاولات العنيفة والمتسلطة لتغييب الوعي من جانب الصهيونية العالمية، وقوى الاستعمار العالمي انتقلاً من استعمار عسكري إلى استعمار اقتصادي، إلى هيمنة وغزو ثقافي وفكري - لأن القضية برمتها صراع بين الحضارة الإسلامية، والحضارة الغربية المعاصرة، وفلسطين لأسباب حضارية أيضاً كانت ولم تزل ميدان هذا الصراع.

ومن اللافت للنظر أيضاً أن نصوص التوراة التي تعدها إسرائيل سنداً دينياً، لأن قيام الدولة خطط له أن يكون على محوري الدين واللغة، تؤكد أيضاً أن هذه الأرض ليست أرضهم، على الرغم من محاولة كتاب التوراة إثبات أن الأرض لهم - هكذا يفسر العقل الصهيوني وعد الله لإبراهيم، ومن اليسير إثبات أن فلسطين ليست أرض إسرائيل من نصوص التوراة ذاتها التي يعتمدون عليها، وقفة أمام سفر التكوين - على سبيل المثال - الإصحاح الرابع والعشرين وما بعده من إصحاحات حتى الإصحاح الثلاثين - يتبدى الأمر في أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب - عليهم السلام - قد جاءوا إلى أرض الفلسطينيين وهم غرباء فيها.

مهما يكن من أمر، فهذا موضوع آخر، ليس هذا مقامه. إن المحاولات الشرسة على المستوى العقلي والوجداني لطمس الذاكرة العربية واقتلاع التجذر المكاني الفلسطيني، يجب أن يواجه بوعي عربي لتواصل الذاكرة العربية، - زماناً - ولمواصلة التجذر الفلسطيني - مكاناً - وسوف أقف أمام أفكار ثلاثة :

الفكرة الأولى : نبوءة لم تكتمل - تتبدى في دراما "شيلوك الجديد" - لعلى أحمد باكثير، وهي عمل نثرى.

الفكرة الثانية : رصد الإيقاع بالأرض في مراحلها المختلفة وتتبدى في درامات شعرية - لمعين بسيسو - "شمشون ودليلة" و "ثورة الزنج".

الفكرة الثالثة : رصد العلاقة الجدلية بين الإنسان الفلسطيني والزمان والمكان، من خلال نماذج من شعر محمود درويش.

أولاً : نبوءة لم تكتمل

١:١ في دراما " شيلوك الجديد " لباكثير التي كتبها قبل نكبة ١٩٤٨ - جاءت نبوءة قيام دولة إسرائيل، فأقامها الكاتب ثم دمرها اليهود بأيديهم - وقد تحقق الشطر الأول من النبوءة على أرض الواقع، بيد أن الشطر الثاني لم يتحقق.

الدراما في جزأين : المشكلة، والحل.

المكان في العملين : القدس بفلسطين، ومحكمة القدس.

الزمان في المسرحية الأولى : من عام ١٩٣٥ إلى الوقت الحاضر (وقت كتابة المسرحية عام ١٩٤٤).

والزمان في المسرحية الثانية : المستقبل.

وأحب أن أشير إلى أن للمكان (فلسطين) ميتافيزيقية في الضمير العربي الجمعي، وسوف أقف أمام ميتافيزيقا المكان هذه التي أشير إليها بعد الانتهاء من تناول الأعمال التي أشرت إليها فيما سبق، كما أن هناك ظاهرة واضحة سوف نرصدها أيضاً، وهي ظاهرة الانتظار في الأدب العربي، وهناك علاقة واضحة في الوجدان العربي بين ظاهرة الانتظار وميتافيزيقا المكان، وعلى الرغم من التفاوت النسبي بين البلاد العربية - في عطائها المكاني الميتافيزيقي - فإن عطاء المكان الفلسطيني، عطاء فيه ثراء عريض، ومن ثم جاءت ظاهرة الانتظار المرتبطة به أكثر عمقاً في الأدب العربي، لأن الضمير العربي والوجدان العربي تتشكل دماؤه ونبضه من قبل الأمة العربية مكاناً، وحضارة، وتاريخاً، وعقيدة دينية.

٢:١ أما شخوص العملين، فهناك شخوص مستمرة فيهما، وهي الشخوص الفاعلة في البناء الدرامي، وهناك شخوص ثانوية في كل جزء من الدراما جميعها.

أشير إلى الشخصيات الرئيسية وهي : من الجانب العربي الفلسطيني؛ "عبد الله الضامن" شاب في الرابعة والعشرين تخرج من كلية الحقوق بمصر، والمستشار الدولي أمام المحكمة الدولية في الجزء الثاني من الدراما. و"ميخائيل جاد" رئيس بلدية القدس ومحامي من كبار الوطنيين، وممثل عرب فلسطين أمام المحكمة الدولية.

ومن الجانب اليهودي : " شيلوك"؛ مدير النشاط الصهيوني في فلسطين وممثل اليهود الصهيوينيين أمام المحكمة الدولية. و "كوهين" من أبرع المحامين اليهود ومعاون "شيلوك" أمام المحكمة. و"إبراهيم" يهودي فلسطيني يقاوم الحركة الصهيونية. رئيس اليهود اللاصهيوينيين بفلسطين وممثلهم أمام المحكمة.

ومن الكلمات التي يصدر بها باكثير القسم الأول : المشكلة - قول الأستاذ المازني الذي نشأ في جريدة أخبار اليوم المصرية في ١٨/٨/١٩٤٥ : "إن البلاد العربية المحيطة بفلسطين لا تستطيع أن تطمئن على استقلالها وحريتها السياسية والاقتصادية يوماً واحداً إذا ضاعت فلسطين وابتلعتها الصهيونية، وهذا ما يجب أن يفهمه كل فرد من أبناء هذه الأمم وأولها مصر. فليس لنا غير الرق الاقتصادي وتتبعه العبودية السياسية إذا قامت الدولة الصهيونية".

٣:١ تبدأ الأحداث بالوقوف أمام محاولات بنى إسرائيل السيطرة الاقتصادية على فلسطين بعد أن سمح لهم الانتداب البريطاني ببناء المستوطنات، وسلاح بنى إسرائيل في هذا الجنس والمال والغدر، يؤكد أخلاقهم هذه سفر التكوين في الإصحاح الثالث والثلاثين والإصحاح الرابع والثلاثين :

" أتى يعقوب سالماً إلى مدينة شكيم التي في أرض كنعان حين جاء من فدان آرام ونزل أمام المدينة، وابتاع قطعة الحقل التي نصب فيه خيمته ... وخرجت دينة ابنة لينة التي ولدتها ليعقوب لتتظر بنات الأرض فرآها شكيم بن حمور الحوي رئيس الأرض، وأخذها واضجع معها وأذلها، وتعلقت نفسه بدينة ابنة يعقوب، وأحب الفتاة ولطفها، فكلم شكيم حمور أباه قائلاً : "خذ لي هذه الصبية زوجة" ... وتكلم حمور معهم - أبناء يعقوب - قائلاً : شكيم ابني قد تعلقت نفسه بابنتكم أعطوه إياها زوجة وصاهرونا، تعطوننا بناتكم وتأخذون لكم بناتنا، وتسكنون معنا، وتكون الأرض قدامكم، اسكنوها واتجروا فيها وتملكوا بها، فأتى حمور وشكيم ابنه إلى باب مدينتهما، وكلم أهل مدينتهما قائلين : "هؤلاء القوم مسالمون لنا، فليسكنوا في الأرض ويتجروا فيها ... لنصير شعباً واحداً، فحدث في اليوم الثالث إذ كانوا متوهمين أن ابني يعقوب شمعون ولاوي أخوى دينة أخذ كل واحد سيفاً وأتيا على

المدينة بأمن وقتلا كل ذكر وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف، وأخذوا دينه من بيت شكيم وخرجوا، ثم أتى بنو يعقوب على القتل ونهبوا المدينة لأنهم نجسوا أختهم - غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة، وما في الحقل أخذوه، ونهبوا وسبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونساءهم وكل ما في البيوت".

هكذا غدروا ونهبوا وسرقوا كما تقول نصوص التوراة، والأدب العربي على وعي بأبعاد القضية الفلسطينية، وعلى وعي بأبعاد النفسية الإسرائيلية.

"راشيل" فتاة إسرائيلية في الجزء الأول من شيلوك الجديد "تنصب شباكها حول فتى عربي فلسطيني هو عبد الله الضامن" - تبدأ في تعليمه اللغة العبرية - وقد قادها إليه "خليل الدواس"، الذي خسر أملاكه بسببها، بل إنه أصبح قوادا لليهود، ويلاحظ هنا أن الكاتب يشير إلى أن إسرائيل اهتمت اهتماماً شديداً بإحياء اللغة العبرية - ونلاحظ أن الأعضاء اليهود في مجلس بلدية القدس أبوا إلا أن يناقشوا البحوث في المجلس باللغة العبرية التي يجهلها الرئيس ويجعلها الأعضاء العرب، وأتوا بمترجم يترجم بين الطرفين - هكذا أشارت الدراما في جزئها الأول، كما أشارت في جزئها الثاني إلى إصرار اليهود على اللغة العبرية؛ لأنها تربطهم بوطنهم القومي، على الرغم من دمار دولة إسرائيل وخروج الصهاينة من فلسطين. "كوهين" : "إننا لا نريد الوطن القومي إلا لنحافظ على اللغة العبرية التي بذلنا في إحيائها جهود العمر" (ص ٢٥٥).

٤:١ وعلى الرغم من وقوع عبد الله الضامن في شرك الصهاينة عن طريق سلاحهم الذي لا يقاوم؛ الجنس لكنه يؤمن بالجهاد - ويرى أن الجهاد لا يكون بالكلام والتوعية، ولكنه بالثورة المسلحة - وهو في هذا يصور فهم جيل الشباب للجهاد خلافاً لفهم جيل الشيوخ للجهاد على أنه نقطة الوعي بالقضية، بيد أن هذا الجيل يؤمن آخر الأمر بأن رأي جيل الشباب هو الرأي الصواب، وذلك بعد أن ضيقت العصابات الصهيونية الخناق على الفلسطينيين في بلدهم - ومن ثم اشترك في ثورة ١٩٣٦ الشيوخ والشباب.

وهذا التصور الدرامي من قبل الكاتب، يوقف العقل العربي أمام ظاهرة التردد بين الكلمة والسيف في حسم القضية المصيرية للأمة العبرية، وهذه ظاهرة واضحة في الأدب وضوحاً تاماً، والأدب تعبير في المقام الأول - وهذا التردد ليس وليد اللحظة التاريخية في مرحلة انحسار الحضارة الإسلامية، ولكنه يشكل جزءاً من العقلية العربية - وكان "أبو تمام" شاعر العربية يعبر عن فكرها ووجدانها ونفسيتها وبطولاتها وفروسياتها يقول :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

ولعل ظاهرة التردد بين دور كل من الكلمة والسيف في الأدب عامة، وفي الدراما جنساً أدبياً بشكل أخص. تؤكد أن العقل العربي لم يزل يقف أمامها؛ لأن الدراما تعبير عن الجماعة، وليست تعبيراً عن الفرد، وإذا كنا لاحظنا هذه الظاهرة عند "باكثير" في "شيلوك الجديد"، فإننا سوف نلاحظها في أعمال "بسيسو" التي سوف نعرض لها، كما أنها واضحة كذلك في أعمال "الشرقاوي" و"عبد الصبور" في الدراما الشعرية، هذه الظاهرة لم تزل بعد تتردد في وسائل التعبير عن الوجدان والعقل العربي في الفن بأجناسه المختلفة، وخاصة إذا وقف التعبير أمام الأرض الفلسطينية المغتصبة منذ ١٩٤٨.

فالذاكرة العربية التي تحاول قوى الصهيونية العالمية وقوى الإمبريالية العالمية أن تقطع خيوطها وأن تفقدها هويتها، تثبت جذورها في المكان - القدس العربية - رام الله العربية - الخليل العربية ... كل شهر وكل ذرة تراب من أرض فلسطين العربية متجذر في العقل العربي وفي الوجدان العربي - إن صورة البلدان الفلسطينية المحتلة عام ١٩٤٨ - لا تشكل في الأدب العربي إيقاع الذاكرة وصدى المكان فحسب ولكنها تشكل نواة التعبير، مركزاً أساسياً في التعبير الأدبي بأجناسه المختلفة كنواة الذرة، تدور حولها كل طاقات الإبداع تؤججها ميثاقاً المكان - فلسطين - عقائدياً وقومياً في النخاع القومي عقلاً ووجداناً.

٥:١ جاء الاستيلاء على المكان - الأرض الفلسطينية من العالمية الصهيونية عن طريقين :-

١- خفض أسعار الحبوب والزيوت والزيوت من قبل حكومة الانتداب البريطاني، فيضطر الفلاحون الفلسطينيون إلى بيع أراضيهم لليهود الذين اقتترضوا منهم أموالاً لشراء البذور ولوازم الزراعة.

٢- تعليم أغنياء الفلسطينيين الميسر وشرب الخمر عن طريق بنات إسرائيل مما يضطرهم للاستدانة من اليهود للإنفاق على خيلاتهم مما يسر عملية بيع الأراضي لليهود وقد كرس اليهود كل شيء لخدمة مآربهم

كاظم : يا للوطن المنكوب، إن أصابع اليهود تلعب في كل شأن من شئونه حتى في القضاء.

ميخائيل : آه يا كاظم، لو كنت موظفاً مثلي لشهدت بعيني رأسك كيف يتغطرس الموظفون اليهود على الموظفين العرب، كأنهم هم أصحاب البلاد، وكأن العرب غرباء فيها، والويل للموظف العربي إذا كان رئيساً في المصلحة، ففي هذه الحال يتوقع رؤوسه اليهود عليه ويربكون عمله، ويدبرون الخطط لإيقاعه في زلة تقع تبعثها عليه، فإذا قاومهم واستعمل سلطته عليهم أو شكاهم فلا يلبث أن ينقل من منصبه ويستبدل به رئيس يهودي بدعوى الرغبة في انسجام العمل. (ص ٣٨)

ولعل من أسباب المشكلة عدم وجود المال العربي أمام من يريد مالاً، بنفس القدر الذي يوجد به المال اليهودي، والمال هو العنصر الخطير الثاني بعد الجنس الذي يعتمد عليه اليهود في فرض ما يريدون على العالم.

ميخائيل : يا ليت كل عربي ترغمه الظروف على الاستدانة يجد شهماً مثلك يقرضه حتى تزول ضائقته، إذا لأقفلت مكاتب شيلوك ووكلاء شيلوك القاعدين لهم بالمرصاد.

كاظم : بلغني يا ميخائيل أن والدك أخذ يستدين من شيلوك، فهل هذا صحيح؟

ميخائيل : يؤسفني أن أقول لك نعم.

كاظم : يا للداهية! ما حمله على ذلك؟

ثلاث روى حول إيقاع الذاكرة

ميخائيل : الحاجة يا كاظم فبالرغم من مساعدتنا له احتاج إلى المال لشراء البذور والمواشي فاضطر إلى استدانة من شيلوك بالربا الفاحش. (ص ٤٢-٤٣).

بل إن كل شيء في البلاد أصبح في أيدي اليهود.

كاظم : إن المنطق السائد في هذه البلاد هو المنطق الصهيوني.

ميخائيل : وهو منطق دقيق شامل لا يكاد يشذ عنه شأن من الشئون.

كاظم : وقوى مسلح بسلاح ذو حدين أحدهما من ذهب والآخر من حديد!

ميخائيل : ويؤيده صك الانتداب الذي يقضي بوضع البلاد في ظروف سياسية واقتصادية من شأنها أن تساعد على قيام الوطن القومي لليهود. (ص ٤٤)

٦:١ بعد أن كتب "باكثير" دراما "شيلوك الجديد" بحوالي نصف قرن - جاء "كتاب جارودي" عن الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل. متضمناً مقولات "باكثير" التي جاءت في سياق حوار بين "إبراهيم" الذي يمثل اليهود اللاصهيونيين، وبين "شيلوك" الذي يمثل اليهود الصهيونيين.

شيلوك : أما وأنت يهودي فيجب أن تخضع لقراراتنا وهي قرارات تسري على كل يهودي في العالم.

كوهين : يجب أن تلتزم له عذراً ياميسو شيلوك، فلعله يجهل هذا القرار الخاص باستخدام العمال في فلسطين.

إبراهيم : كلا لا أجهله، ولكني لا أعترف بهذه القرارات؛ لأنني لا أعترف بالصهيونية ذاتها.

شيلوك : قد كنت تؤمن بالصهيونية فيما مضى، ولكنك ارتددت عنها إيثاراً لمصلحتك الخاصة على المصلحة العامة للأمة اليهودية.

إبراهيم : ليس في الدنيا شيء اسمه الأمة اليهودية، إن هذه إلا خرافة.

شيلوك : ما تقول؟ خرافة؟

إبراهيم : نعم خرافة كبيرة ابتدعتها عقول صغيرة إن اليهود دين ليسوا أمة.

كوهين : قد كانوا كذلك يا سيدي؛ حتى قامت الحركة الصهيونية لتجعلهم أمة كالأمم.

(٢) محاولة جعل اليهودية قومية، كما رأينا في النص السابق في الحوار بين "شيلوك" و"إبراهيم" - ولعلنا نلاحظ استعمال باكثر للاسم "إبراهيم" - لأن اليهود هكذا يستعملونه تحريفاً لاسم أبينا "إبراهيم" - عليه السلام - استناداً إلى نصوص التوراة التي جعلت اسمه "لا يدعى اسمك بعد إبرام بل إبراهيم لأنني أجعلك أباً لجمهور من الأمم ... ولأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً بأيدنا وأكون إلهين" (التكوين : ١٧).

(٣) تسليم الأمور لليهود غير العرب. من أبناء أوروبا قصداً من دولة الانتداب، ولم يزل الأمر حتى الآن، فكل الرؤساء في دولة إسرائيل، وكل المتحكمين في أمور الدولة يهود من أوروبا وخاصة أوروبا الشرقية على التحديد، أما اليهود العرب، فهم مواطنون من الدرجة الثالثة.

إبراهيم : إنني عربي بالوطن ويهودي بالملة.

شيلوك : فأنت إذن يهودي مزيف.

إبراهيم : بل أنت اليهودي المزيف! أما أنا فأسرائيلي فلسطيني تسلسل آبائي في هذه البلاد منذ قرون، ولولا سخرية الأيام لما استطاع أمثالك يا شيلوك من الأجانب الدخلاء في البلاد أن يتجحوا على مثلي من أبنائها الأصليين.

(ص ٧)

(٤) استعمال كل شكل التعذيب للعرب، والقتل إذا لزم الأمر.

إبراهيم : هل تتوقعون أن نرفع عن ظهوركم سياط الاضطهاد إذا وضعتوها في ظهور قوم لا ذنب لهم، إلا أنهم كانوا الشعب الوحيد الذي أنصفكم وعاملكم بالعدل والحسنى يوم كانت الدنيا كلها تضطهدكم وتضطرم عليكم ناراً، فما ندقم طعم الأمن والدعة إلا في كنف هذا الشعب الكريم؟ (ص ٦٨).

اليهود يعملون قدر الطاقة على التخلص من العرب الذين يقفون أمام خططهم بالمرصاد، ليفسدوا عليهم أمرهم.

كوهين : إن هذا (استخدام إبراهيم للعمال العرب) يعد خيانة للقومية اليهودية. شيلوك : لكني يا سيدي لا أعترف بهذه القومية المفتعلة فكيف تشبون إلى خيانتها؟ شيلوك : إنها قد وجدت سواء اعترفت بها أو لم تعترف (ص ٦٦-٦٧).

٧:١ عملت الصهيونية العالمية على تكوين الدولة على دعائم من اللغة والدين، لا كما يقول المفكرون العرب فحسب، ولكن كما يقول اليهود أنفسهم، إذ نرى في رواية "طوبى للخائفين" - "يثايل ديان" الصبي "جدعون" وقد دفع به أبوه إلى حاخام يعلمه أصول اللغة العبرية وأسفار التوراة. ويقنعه بأنه حين يحول رمال الصحراء في فلسطين - أرض الميعاد - كما يرون - إلى أرض خضراء فسوف يرى يهوه - الله - هكذا إيمانهم بالأرض ولعلنا لا ننسى محاولة "سارتر" عام ١٩٦٧، حين أفرد عدداً من مجلته "الأزمة الحديثة" لقضية فلسطين - وطالب المفكرين العرب واليهود بالكتابة - وقام بزيارة مصر وفلسطين المحتلة وسوريا - في مارس ١٩٦٧ قبل هزيمة ١٩٦٧، واستطاع اليهود أن ينصروا باطلهم في حين عجز العرب أن ينصروا حقهم، فقد جاءت محصلة العدد من المجلة مقالات أكثر لليهود، مدعمة أكثر بشكل يوحي بأن اليهود هم أصحاب الحق في فلسطين - ولا شك أن هذا الحدث يؤكد غيبة العقل العربي في فترة ما بين النكبتين ٤٨ - ١٩٦٧.

مهما يكن من أمر فإن أصابع اليهود قد امتدت إلى كل مكان، وفي كل شيء في دراما باكثر التي بين أيدينا على النحو التالي :

(١) محاصرة العرب في العمل عن طريقين :

أ- استعمال اللغة العبرية في المصالح الحكومية مما يحتاج الأمر إلى مترجم.

إبراهيم : فقد قامت الصهيونية على الوطن القومي وعلى إحياء اللغة العبرية ... (ص ٢٥٦)؟

ب- زيادة عدد الموظفين اليهود عن عدد الموظفين العرب، واستعمال العمال اليهود على الرغم من ارتفاع أجورهم عن العمال العرب، وما يحدث الآن في فلسطين المحتلة أن الصهاينة يستعملون العمال العرب لقلة أجورهم عن العمال اليهود.

شيلوك : هذا المأمور العربي المسيحي من أشد الناس وطأة على الصهيونية، وهو يهتم اهتماماً بالغاً بتعقب أعمالنا والكيد لخططنا بما له من السلطة البوليسية فيجب التخلص منه ومن مضايقاته بأي سبيل. (ص ٨٦)

حاولت الصهيونية العالمية التمكن من الأرض الفلسطينية بشراء الأراضي بالطرق التي ذكرها الكاتب، والتي أشرت إليها من قبل، أما العربي الذي يرفض بيع الأراضي التي يريدونها، فإنهم يقومون بقتله، كما حدث مع "الشيخ سعد" الذي أبى أن يبيع ضيعته في وادي السراوة فكان جزاؤه :

شيلوك : لقد لقي الليلة حتفه هو وكل عائلته!

كوهين : أظن أنه سيسهل على الشركة الآن ابتياع أرضه.

شيلوك : نعم سيكون وادي السراوة غداً في قبضتنا. (ص ٨٥)

قتله ضابط شرطة يهودي "زيكناخ" بمسدسه الحكومي هو وأفراد عائلته، وحين كشف رئيسه ضابط الشرطة العربي أمره، دبر "شيلوك" الأمر بحيث يبرئ الضابط اليهودي ويتهم الضابط العربي بالتحامل على الضابط اليهودي.

شيلوك : سنتخذ هذا ذريعة في الطعن في كساب جاد ونتهمه بالتحامل على رجال البوليس اليهود ... فهو لا يصح أن يترأس عليهم.

... ليس هذا فحسب بل يجب أن يحاكم هذا المأمور اللعين على التهمة التي ألصقها بضابطنا الشاب ثم تثبت براءته منها. (ص ٨٨)

٨:١ وقف العقل العربي أمام القضية وقفة تأمل فيها الكثير من الرومانسية، وفيها الكثير من غيبة الوعي - سيكون فلسطين الشهيدة أمام أعينهم. وخاصة وأن كل الأحداث تؤكد سقوط فلسطين. في حين أكد الأدب العربي أن النكبة آتية لا محالة، بل إنه رصد الطريق إلى عدم السقوط - وأشار هنا إلى أن "باكثير" قد أشار في مسرحيته "مسمار جحا" إلى الكفاح المسلح للاستقلال وهذا ما حدث بعد ذلك في مصر في أحداث القتال من الكفاح المسلح بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦ - الأمر الذي

ترتب عليه يقظة الشعور والوعي المصري بحق الشعب في الاستقلال عن الاستعمار البريطاني، ولو أن مصر حصلت على استقلالها بمواصلة الكفاح المسلح، لكان للاستقلال شكل آخر ونتائج مختلفة. لذلك أشير هنا إلى أن أدب "باكثير" هو أدب النبوءة، أكد "باكثير" في العمل بين أيدينا ألا سبيل لخلاص فلسطين من براثن الصهيونية العالمية إلا بالكفاح المسلح والثورة المسلحة، ووقف أمام الأحداث وقد تلاحم العرب لساناً ومشاعر وعواطف، وإن كان الأمر يتطلب التلاحم العسكري الذي جاء متأخراً جداً ومفككاً، وليس بالقدر الكافي الذي تطلبه الموقف.

أصابع اليهود تلعب في كل مكان، بالقهر والتعذيب والقتل وابتلاع الأراضي في فلسطين، وبالضغط على الصحافة في مصر كي لا تنشر الصحف أخبار ما يحدث في فلسطين.

فوزي : من أبسط وسائلهم مثلاً أن يرفعوا سعر الورق على الصحيفة التي لا تخضع لرغباتهم، ويحرموها من إعلاناتهم التجارية. (ص ١٠٣) وهذا شيء فيه كثير من البداهة، لأن الاقتصاد المصري كان جله في أيدي اليهود.

توحد الشعور العربي وأحس الجسم العربي بنبض القلب (فلسطين) جريحاً متألماً.

فوزي : إنني أعتقد أن كل عربي في مختلف الأقطار يتمنى في قرارة نفسه لو يسعده الحظ فيشترك في الجهاد لإنقاذ هذا البلد المقدس (ص ١١٢) وأعين العرب مفتوحة ترى فلسطين شهيدة.

نادية : فلسطين الشهيدة! ماذا جعلها شهيدة الآن ... (ص ١١٨)

بيد أن الحس العربي ونبض المكان جعل "باكثير" يراها : فلسطين المجاهدة (ص ١١٩).

٩:١ جاء عام ١٩١٧، وفيه أحداث جسام هزت العالم أحداث ثلاثة :

الأول : الثورة البلشفية التي صنعت كياناً شيعياً فيه وحدة المكان، وصنعت قوة عالمية في مقابل قوة الولايات المتحدة الأمريكية. وتزحزح عن الساحة القوى الكبرى التي كانت تقسم العالم؛ إنجلترا وفرنسا.

الثاني : ثورة أتاتورك التي حولت تركيا إلى دولة علمانية وألغت الخلافة، وقد تم تصفية الإمبراطورية العثمانية.

الثالث : فهو وعد بلفور؛ الذي تعهدت بريطانيا بموجبه بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

ومن اللافت للنظر أن الأحداث الثلاثة سقطت تبعاتها ونتائجها السيئة على رأس العالم العربي. فقد هرب من وجه الشيوعية يهود أوروبا الشرقية ليقموا لهم مستعمرات في فلسطين الواقعة تحت الانتداب البريطاني بعد تقسيم أملاك الرجل العجوز بين إنجلترا وفرنسا في اتفاقهما السري.

واليهود يدبرون أمرهم قبل الوعد، فقد حاولوا الحصول على وعد من السلطان "عبد الحميد" - قبل وعد بلفور - مقابل أن يسدوا ديون الرجل المريض، ولكنه رفض. بل إنهم منذ القرن التاسع عشر وهم يخططون ويدبرون، فأكبر البنوك في أوروبا في أيدي اليهود "روتشيلد وروكفيلر" والاقتصاد في البلاد العربية وخاصة مصر أكبر بلد عربي، لهم فيه نصيب كبير. مصر خاصة؛ لأن اليهود يظنون أن أكبر جريمة ارتكبت في حقهم، كانت خروج موسى عليه السلام ببني إسرائيل من مصر في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وليس غريباً أن نرى الخروج "يشكل جزءاً في العقل اليهودي. وليس تمسك اليهود بالأسد العجوز إلا لأن له قوة تمكنهم من قضاء مآربهم في فلسطين.

شيلوك : إن ألمانيا تريد السيطرة على العالم، فكم كان يكون ربحنا منها لو أنها قبلتنا في معسكرها، إذن لسيطرنا من واديهما على العالم. (ص ١٢٣).

أما العرب فقد قبلوا الكتاب الأبيض، ونصروا بريطانيا في حربها ضد ألمانيا، على الرغم من محاولة الألمان استمالتهم.

جوزيف : كم تمنيت لو أن عرب فلسطين عادوا لثورتهم لما شعروا أن الكتاب الأبيض قد خيب آمانيهم.

شيلوك : آه يا ليتهم فعلوا، إذا لواتانا الحظ.

كوهين : كان يكون ذلك في مصلحتنا، ولكنهم لسوء حظنا التزموا الهدوء والسكينة بحجة أنهم لا يريدون أن يشعبوا على حليفهم في هذا الطرف الحرج.

شيلوك : لقد جاء دورنا الآن لنقوم بالثورة.

كوهين : ماذا تعني بالثورة؟ أتعني ثورة سافرة كثورة العرب؟

شيلوك : ... لماذا نقلدهم في كل شيء؟ ألم أقل لك إن حالنا يختلف عن حالهم؟

كوهين : إذا كنت تعني الحركة الإرهابية فهذه الآن قائمة.

شيلوك : هذه الحركة العرجاء لا تشفي غليلي، يجب أن تجعلها قوية مججلة تهز الدنيا (ص ١٢٦).

١٠:١ في القسم الثاني من الدراما التي جاءت بقسميها المشكلة والحل. جاء الحل عند باكتير في إقامة دولة إسرائيل وجاء التفسير الصهيوني لاقتطاع رطل لحم من القلب كما طالب "شيلوك شكسبير" من أنطونيوس - أن المعنى هو امتلاك الجسم كله والتصرف فيه بمقتضى الصك لأن حياته قد أصبحت تحت رحمة "شيلوك".

شيلوك : ستقوم الدولة اليهودية في فلسطين، ولكننا لن نقتطعها من الوطن العربي لأن هذا الوطن سيكون المجال الحيوي لها ونشاطها. (ص ١٥٢)

وفي ظن "باكتير" وهو ظن صحيح أن دولة تقوم في فلسطين لا يمكن أن تستغنى بنفسها وتكتفي بمواردها، ولا سيما إذا كانت واسعة النشاط كالدولة اليهودية - وأنه لولا الإعانات الضخمة التي تدفقت على اليهود سنوياً من أمريكا وغيرها، لما استطاعت الدولة اليهودية أن تقوم - وإن دولة تقوم على الإعانات الخارجية لسد عجزها الدائم لا يمكن أن تدوم. (ص ٢٠٤)

والإيقاع بالأرض في الأدب العربي في الدراما خاصة - أدب الجماعة - وقف أمام ما كان يحاك لفلسطين حتى تستولي إسرائيل على الأرض - مكاناً واقتصاداً - وهذا ما عرضنا له عند "باكثير" في "شيلوك الجديد" - أول الأمر - ثم مرت الأرض العربية الفلسطينية بمراحل :

أولاًها : الهجرة؛ هجرة الشعب الفلسطيني فراراً من الموت والتعذيب. يصاحبها بقاء من بقي على الأرض صابراً على العذاب ومحاولات طمس الهوية العربية - هذه الهجرة لم تتكرر بعد نكبة ١٩٦٧ وبعد أن أصبحت كل الأراضي الفلسطينية في يد الاحتلال الإسرائيلي هجرة النكبة الأولى هي المرحلة الأولى، وعلى الرغم من محاولات الصهاينة تفرغ الأرض من أهلها العرب، لكنها فشلت في ذلك، وقد وضعت في اعتبارها أن الجغرافيا السكانية لفلسطين، سوف تجعل عدد العرب أكثر من عدد اليهود داخل فلسطين المحتلة مع مرور الأعوام، على الرغم من أن عدد سكان إسرائيل - فلسطين المحتلة - من اليهود أضعاف عدد السكان العرب بعد الهجرة وبعد النكبة. ذلك لأن حركة النسل العربية أكثر وأسرع من حركة النسل اليهودية.

ارتبط التشتت بالهجرة فالشعب العربي الفلسطيني الذي هاجر تشتت في الأراضي العربية، في الأردن، مصر، سوريا، لبنان، وفي غيرها من البلاد العربية بيد أنها أكثر تكتيفاً في دائرة المكان.

وارتبط بهذه الهجرة المكانية، هجرة داخلية في المكان؛ عبر عنها الأدب العربي على لسان شعراء فلسطين وكتابهم، ولعل "محمود درويش" مثال جيد لهذه الهجرة الداخلية.

ثانياً : رصد الإيقاع بالأرض

١:٢ دراما "شمشون ودليلة" الشعرية لـ "معين بسيسو" ترصد هذه الهجرة هجرة من هاجر إبان المحنة، ودعوة العدو الإسرائيلي للهجرة حتى تفرغ الأرض من أصحابها. وإدانة العقل العربي تعبيراً أدبياً للهجرة.

إن الوطن القومي، كما جاء في تقرير الخبير الاقتصادي قد عجز عن حد الاستكفاء، واليهود أنفسهم يعترفون بهذه الحقيقة، ويلتمسون المخرج من هذه الورطة بتحويل البلاد إلى بلاد صناعية هذا كله وقع قبل أن تكون فلسطين دولة يهودية ... إن هذه الدولة إن قامت فستكون دولة يهودية صناعية في قلب عالم عربي معاد لها يقاطع سلعها اليهودية ... فهل يقدر لهذه الدولة البقاء، ألا يقع اليهود إذن في كارثة اقتصادية تجتاح كل ما كنزوه من الذهب طوال القرون ... (ص ٢١٧).

هكذا جاءت رؤية باكثير وهي رؤية صادقة - ومن ثم بنى البناء الفني للقسم الثاني من الدراما على هذه الرؤية، فاليهود يصرخون ويستغيثون بدول العالم أن تنقذهم من الكارثة الاقتصادية التي حلت بهم، ولتشفع لهم عند العرب أن يقبلوا عثرتهم، ويرضوا منهم بتصفية الدولة اليهودية، وإرجاع فلسطين إلى العرب، على أن تعود العلاقات بين اليهود والعرب كما كانت من قبل، وأن ترحم فلسطين على اليهود إلى الأبد، على أن تعود العلاقات بين اليهود والعرب كما كانت من قبل، وأن يخرجوا من أذهانهم خرافة أرض الميعاد، وينهي "باكثير" عمله بقيام اليهود بتدمير "تل أبيب" التي بنوها. وبانتحار شيلوك.

نادية : إنه - شيلوك - أيقظنا من سباتنا ثم نام. (ص ٢٧٥)

بيد أن رؤية باكثير - بكل أسف - لم تتحقق في شرطها الثاني - فلم تزل إسرائيل تحصل على تعويضات من ألمانيا، ولم تزل تحصل على مساعدات لا حد لها من الولايات المتحدة - ولم تزل الأموال تتدفق عليها من كل يهود العالم، ولم يزل المال العربي يتسرب إليها بطريق غير مباشر عن طريق البنوك اليهودية التي يودع العرب - أفراداً أو حكومات - أموالهم فيها، لأن الدولة اليهودية - حسب رؤية باكثير - لا تستطيع أن تستغني بنفسها، لذلك يمكن القول بأن دراما "باكثير" نبوءة لم تكتمل.

يرصد البحث في هذه الفكرة الإيقاع بالأرض في مراحلها المختلفة من خلال أعمال "بسيسو" الشعرية : "شمشون ودليلة" و "ثورة الزنج".

النكبة كانت الأساس الأول للهجرة ...

كانت يافا ترحل ...

كان الرعب يبيع تذاكره في السوق السوداء ...

وعناوين الصحف الأولى في ذلك اليوم ...

كانت كطيور جارحة تسقط فوق جواد مقطوع الرقبة ...

كانت يافا ترحل

كانت تلقي في وجه المحتل بأخر ما تملك ...

تلقي قفازيها ...

تلقي جلد يديها ...

تلقي بأصابعها ...

في وجه المحتل، أصابع بارود ...

تلقي نهديها، قنبلتين وتسقط ...

كانت يافا ترحل

وامرأة من يافا كانت ترحل ...

تحمل طفلاً ...

فوق الصدر وتحمل صرة ...

والمرأة تعبت خافت ...

كان الرعب يبيع تذاكره في السوق السوداء ...

وأرادت أن تلقي بالصرّة ...

لكن من هول الرعب الأسود، ألقت بالطفل ...

واحتفظت بالصرّة ...

الجميع شاركوا في الهجرة كما تشير الدراما ...

من منا لم يلق بشيء فوق الأرض ...

من منا لم يلق بنافضته ...

لم يلق بحائطه، لم يلق ببابه ... ؟

من منا لم يلق بشيء فوق الأرض ...

كل منا ألقى شيئاً فوق الأرض وهاجر ... (ص ٢١)

بيد أن هذه الهجرة أدينت، كما أدين تقاعس العرب وتفككهم إبان النكبة

وقبلها، حين كانت الصهيونية العالمية تحشد كل طاقاتها وإمكاناتها لإقامة الدولة،

على مرأى ومسمع من كل عين وأذن عربية. صحيح أن البلاد العربية كانت أسيرة

الاستعمار الفرنسي والبريطاني، بيد أنها كانت تستطيع أن تفعل شيئاً، أفضل مما

فعلت في حرب فلسطين.

مسوغات الهجرة كثيرة، الإرهاب اليهودي والمذابح والقنابل؛ الدم أنهاراً

والأشلاء والجثث تلالاً، هكذا فعل الصهاينة بالإنسان العربي، لا فرق في الدم

ولا في الأشلاء والجثث بين شيخ وعجوز وطفل وامرأة، الكل أمام اليهود يجب

أن يباد، والأثر النفسي للهجرة كبير، لأن الإنسان حين يهاجر، يصبح البيت

الجديد عالمه، ومع توالي الأجيال تنقسم الصلة بين الأرض وبين الإنسان

المهاجر، حتى يأتي جيل تال لا يحس ارتباطاً بالأرض التي هاجر أبأوه منها،

ومن ثم تثبت صلته بالوطن، وهذا ما تريده إسرائيل.

عاصم : لم لا تفتح نافذة في هذي الأسلاك أمام العربية ... ؟
(بمسك بعنقه ...) (ص ٦٧ - ٦٨)

٢:٢ ترصد الدراما تشتت الفلسطينيين في البلاد العربية في انتظار العودة إلى الأرض. فـ "ريم" المرأة التي ألقت بالطفل، واحتفظت بالصرة، امرأة من يافا رحلت. أما الطفل الذي يرمز به إلى الشعب الفلسطيني المهاجر من الأرض .

ريم : لم يك يرضع من الثدي ...

جفت كل ينابيع الصدر وكل ينابيع الأرض ...

كنت أطوف به، ترضعه هذي الأم وتلك الأم ...

يرضع من هذا الثدي ومن ذاك الثدي ...

كان كمن كتب عليه ...

أن يرضع من كل الأثناء ...

إلا من الثدي أمه ... (ص ٢٠)

بيد أن هذا التشتت ليس انقطاعاً تاماً عن الأرض، وإنما تربطهم بها أن لهم فيها جذوراً.

مازن : نملك قدا من أرض جدار العربية (ص ٢٣) والأب يملك في يافا بياراً وبيتاً. يحمل أوراق البيارة. ومفتاح البيت. والابن يسخر من هذي الأوراق التي لا يعترف بها أحد في العالم. ومن المفتاح الذي لا يملك الأب بابه.

فالبيارة والبيت في أيدي الإسرائيليين. وأوراق البيارة ورق أصفر قد أخذ يدب إليه السوس، وشجر الليمون فيها وشجر الموز لا يهنأ صاحبه به. والجبل الذي هاجر يحمل الجيل التالي له مسؤولية العودة.

الأم : إن كان احتفظ أبوك بمفتاح في يده

لم لا تحمله أنت ...

لم لا ترفعه كالراية ...

ونقاتل من أجل النافذة ومن أجل الباب ...

الأب : هاجرت فصنت ...

عرض البنات وعرض الزوجة والأخت ...

لكن أي الأعراض هتكت ...

عرض الشارع والدار ... وعرض الأرض ... (ص ٣٣)

كان علينا أن نذبح فوق العتبة ...

نذبح بالكف ... وبالحجر ... وبالسوكي ...

نذبح بالخشبة ...

بزجاج النافذة ولا نرفع قدما عن تلك العتبة ... (ص ٣٤)

وقد توالى محاولات الصهاينة لتهجير أبناء الأرض وأصحابها، في الدراما الشعرية التي بين أيدينا عربية ترمز لأرض فلسطين وفيه ركاب هم الشعب الفلسطيني وتحيط بها أسلاك شائكة في مواجهة الصالة التي ترمز للعالم العربي. والدعوة اليهودية إلى الهجرة من العربية تقابل بالرفض والمقاومة من جانب

عاصم وزوجته وابنه مازن وابنته ريم التي ألقت بالطفل واحتفظت بالصرة من هول الرعب حين الرحيل من يافا.

الرجل ذو المعطف : ماذا يبيقيكم في هذه العربية ... ؟

يا أهل العربية ...

وأمامكم العالم في الصالة ...

فهناك مدن وشوارع ...

وحقول ومصانع ...

دجلة والنيل وبردى ...

وطن عربي في الصالة ...

ماذا يبيقيكم في هذي العربية ... ؟

عبياً تنتظرون الضوء الأخضر ...

جئت أخلصكم من هذي العربية ...

وفتحت لكم باباً للصالة

(ص ٦٦)

الأب : لو كنت تظن بأن فلسطين

هي هذي العربية

أوقفها الضوء الأحمر

ثم رميت بقنبلة خضراء

فانطلقت متراً أو مترين

فالعربة ما زالت يا ولدي واقفة

والأسلاك الشائكة انفتحت فيها ثغرة

لكن ما زالت قائمة يا عاصم

ما أسرع ما يتجمع سمك القرش على خيط الدم ...

ما أسرع ما يتجمع كل الأعداء على صوت البارود ...

وكان القنبلة المنطلقة في وجه المحتل هي البوق ...

تجمعكم، وتجمع أيضاً ... كل القنلة من كل طريق ... (ص ٩٧)

٣:٢ القضية ليست جامدة، كما يحاول العدو أن يصورها، وأن يعمل على

تجميدها في أعين أصحابها.

الكمساري : يا ركاب العربية ...

لا بنزين في خزان العربية

من يتبرع منكم بالدم فليقدم .

الراكب : ...

والعربة لم تتحرك منذ سنين (ص ٣٨)

هذه المحاولة قد تدفع إلى التقاعس "بيد أن الوهم بأن العربة تتحرك هو من صنع أثر ميتافيزيقا المكان على الإنسان العربي في فلسطين المحتلة. فالأرض بركان في الصدر ينتظر القشرة الضعيفة في الأحداث لينفجر، وقد انفجر دون مقدمات، لعل أحداث أطفال الحجارة مثلاً تؤكد هذه الرؤية. ولا يعني هذا أن القضية لم تشهد مرحلة من التقاعس، بيد أن المرحلة كانت عبارة .

ولم لا تشحذه كالخنجر ...

وتطعن وجه عدوك ...

مازن : وجه عدوي ... ؟

أنا لم أر وجه عدوي يا أمي ...

أنا لا أعرف من هو يا أمي ...

.....

كنت تقول لنا في العام الثالث سوف نعود ...

ومدرسنا كان يقول لنا في العام الرابع سوف نعود ...

والراديو كان يقول لنا في العام الخامس سوف نعود ...

والصحف تقول ...

.....

وتمر الأعوام ونحن نقول ...

والقطب المتجمد أقرب من يافا ...

والشمس ...

أقرب، أقرب. أقرب من عكا، (٢٧ - ٢٨)

بيد أن العودة دونها عقبات؛ أسلاك شائكة وخيوط دم وجثث وأشلاء. والعودة للأرض، المكان الذي تمتد جذوره فتشكل الوجدان والعقل والتخيل، يجب أن يكون لها ثمن، والثمن هو الفداء. شكل المكان بميتافيزيقية الآمال والآلام والأعراف والتقاليد والقيم، بل والعقيدة. فالإنسان الفلسطيني ابن الحضارة الإسلامية، قد ترسبت فيها معطيات فينيقية وكنعانية، شكلت الخيال والتكوين النفسي. هذه العوامل الميتافيزيقية تجعل الإنسان يؤمن بالعودة جزءاً من العقل والتكوين. بل إن عوامل الطبيعة، الرعد والبرق والمطر لارتباطها بالأرض، تحرم من لا أرض له من عطائها : الماء الذي يروي الحقول، وينبت الزرع والثمار. بل إن قطرات المطر تتحول إلى قطرات الذهب لتسقط ناراً على رأس الفلاح الذي ترك أرضه يزرعها عدوه ويأخذ ثمارها.

الإنسان الفلسطيني ينتظر

كان على الشاطئ ينتظر الحورية ...

تخرج من جوف البحر ...

وتقدم خاتمها ...

يفركه المارد "لبيك"

أحملك إلى يافا ...

أحملك إلى البلد إلى الرملة ... (ص ٦٠)

شمشون : ماذا تنتظرين ؟

ريم : إني انتظره ...

شمشون : من؟

ريم : يونس ... إني انتظره

شمشون : يونس في أيدينا ...

ريم : يونس في شرياني ... قطرة دم ...

والده في الشريان حبيبي

إنك لا يمكن أن تفهم يا شمشون ...

دمنا في الشريان سجين ...

يبحث عن مخرج ...

يبحث عن باب ... عن نافذة في الشريان لكي يخرج ...

(ص ١٤١).

يقود الانتظار إلى الوعي بالقضية. فكما أن الانتظار جزء من تشكيل العقل والوجدان العربي الفلسطيني. كذلك الوعي شأنه ألا يكون عقيماً إذ أن الانتظار انتظار عن وعي وإدراك، وإلا كان انتظاراً سلبياً وعقيماً. ولئن يفلت الإنسان الفلسطيني من هذا المأزق، بين الانتظار والوعي. كما لم يفلت إنسان أرض ٤٨ من هذا الثنائي : الانتظار والوعي. لقد وعى أن الأرض المغتصبة تعددت الرؤى إزاءها من جانب الأخوة والأشقاء. فكان لا بد أن يعرف إنسان الأرض الـ ٤٨ أن

ما دمنا اخترنا الصمت فلم نتكلم ...

يسحب دمك فلا تتكلم ...

تخشى أن يلقي بك في سجن العربية ... (ص ٣٩)

.....

ادفع ورقة صمت واسلم ... (ص ٤٤)

ريم (العرافة) : لم تخفون رؤوسكم ... ؟

خلف الأعمدة وخلف الأحجار ...

لم تخفون رؤوسكم ... تحت وسائدكم ...

.....

أو ما ضاع لأحد منكم شيء يا ركاب العربية!

أو ما ضاع لأحد منكم، فهد أو بقرة ... ؟

أو ما ضاع لأحد منكم وطن يا ركاب العربية ... ؟

يسأل : لم ضاع ومن ضيعه ... ؟ (ص ٤٨)

يرتبط الرفض بالجمود والتعاس والوهم. فالإنسان يرفض الجمود، ويرفض التعاس، ويرفض الاستسلام، ويرفض اللعب المحفوظة التي تأتيه من وكالات غوث اللاجئين.

لو كل منا يرفض وجهه ...

هذا الوجه الراكع والصامت ... (ص ٦١)

الرفض في مواجهة محاولات تميع القضية والمتاجرة بها.

كن ثورة ...

واحذر أن تصبح إعلاناً عن ثورة . (ص ٩٩)

٤:٢ والانتظار ظاهرة واضحة في الأدب العربي، وفي الأدب العربي المعبر عن القضية الفلسطينية أكثر وضوحاً. ولهذه الظاهرة أسبابها التاريخية والحضارية والنفسية، بل والدينية.

يسير؟ وأن يعرف من هو؟ وأن يعرف من هم معه؟ هل معه من سار إلى جانبه بحنجرته، أو بإعلان وشعار؟ أو من سوف يسير بورقة نقد؟ ووعي أن من هو معه، من سار وسوف يسير بقبيلته؟

وعليها أن نزرعها قلباً خفاقاً في الصدر (ص ١٠٠) لقد عرف ووعي أن وعيه وإدراكه وعقله كانوا في الثلجة، وأنه قد أخرج كل هذه الأعضاء وكل الإدراك والنفس من الثلجة وأن عليه ألا يرجع أبداً للثلجة - لأن السمكة والتفاحة تعيشان إذا وضعتا في الثلجة.

لكن القنبلة تموت

تتغفن إن وضعت في الثلجة ... (ص ١٠١)

٥:٢ العدالة الدرامية - إن صح التعبير - تقود إلى مواجهة النفس بعد الوعي والإدراك والانتظار - مواجهة فيها أمل، بصفته الإنسان العربي.

نحن جميعاً في هذي العربة ...

والعربة واقفة ... والضوء الأحمر ...

قد قتل الضوء الأخضر ... (ص ١٠٠)

.....

ما أشقى الوطن بلا عراف ...

ما أشقاء حين العراف يخاف ...

ما أشقاء حين العرافون ...

يضعون الأربطة البيضاء على أعينهم وينامون ...

في زنايات الصمت ...

ينتظرون الموت ... (ص ١٣)

.....

عاصم : لو يتسلل أحد منكم يا مئة المليون ...

لم أنتم في الصالة يا مئة المليون ... ؟

لم لا تأتون إلى الخشبة ...؟ (ص ٤٨)

.....

علينا أن نفعل ما تفعله الأرض ...

حين يشق الأرض المحراث ...

أن تحتضن بذور البارود ...

يكبر يا أبتى ساق البارود الأخضر ...

بضرب جلد الأرض ...

حتى تتمايل سيقان البارود الخضراء ...

وكحبة قمح طيبة يا أبتى ... تصبح سنبله ...

تصبح سنبله رصاص ... (ص ١١٤ - ١١٥)

مواجهة النفس تقود إلى مواجهة العدو

٦:٢ والإيقاع بالأرض في دراما "ثورة الزنج" الشعرية "لبسيسو" يتبدى من خلال استعمال الشاعر الدرامي لنظير تاريخي يسير جنباً إلى جنب مع نظير واقعي. فتورة الزنج بقيادة "عبد الله بن محمد" في القرن الثالث للهجرة - النظير التاريخي - نساء ثورة فلسطين في القرن العشرين للميلاد - النظير الواقعي - مدى المكان من القرن الثالث للهجرة للقرن العشرين الميلادي - بين البصرة وبغداد وفلسطين. وهذه المساءة من جانب المؤلف فيها تعسف على الذاكرة العربية؛ لأن زنج القرن الثالث للهجرة ثاروا من أجل القهر والمطالبة بالحقوق للإنسان في مجتمع يمارس السادة فيه القهر الطبقي - في حين أن شعب فلسطين يثور للعودة إلى أرضه، التي اغتصبها مجموعة اليهود المشتتين في بلاد العرب وجعلوا من هذه الأرض وطناً قومياً، لهم دعامتان : الدين اليهودي، واللغة العبرية.

اختلف رجال التاريخ حول "عبد الله بن محمد" في القرن الثالث للهجرة. فمنهم من رآه متمرداً على الخليفة المعتمد، ومنهم من رآه طالب سلطة، جمع العبيد خلفه وحارب بهم - مهما يكن من أمر فالعلاقة بين الزنج ورجال المعتمد، كانت علاقة ثورة وحرب بين الطرفين في مكان واحد، هو أرض الجميع، زنجاً وسادة. أما الأمر في فلسطين فمختلف تمام الاختلاف - دخيل يطرد صاحب الأرض، يخرج به بالدم والرصاص، أو يبقى من بقي تحت القهر وعدم العدالة الاجتماعية

أو السياسية. فهو ليس مواطناً - في فلسطين أرضه وبلده، من الدرجة الأولى التي منها الغرباء عن الأرض، بل الغرباء عن المنطقة كلها - وإنما هم أوروبيون - دفعهم الوهم والأسطورة والخرافة إلى إقامة زعموا أن لها وعداً في التوراة، في حين أن نصوص التوراة تؤكد إن إسحق وأباه إبراهيم وأبناءه يعقوب وبنيه غرباء في أرض الكنعانيين. بل إن لفظة غرباء هذه تكررت أكثر من مرة حين أراد إبراهيم، عليه السلام، أن يزوج ابنه اسحق - قال لخادمة إنه لا يريد له زوجة من بنات الكنعانيين في هذه الأرض، لأنهم غرباء فيها.

المسيرة بين النظيرين التاريخي والواقعي تأتي في إطار الثورة ومواجهتها - وكذا بـ "بسيسو" يشير في أول العمل إلى أنه سوف يصور وجه فلسطين - فشخص العمل "الرجل - صندوق الدنيا" و"الرجل التيكز" و"الرجل الغسالة" - و"الرجل صندوق الدنيا" يقول : إن التاريخ منشور على حبل غسيل، في صورة أوراق تغسل أو تصبغ، ويواجه الصالة ويقول إن الكل مصبوغ، والكل مغسول. وإن هذه الأوراق المغسولة تقتل، و الحبر والاسم واللون والقلم والمحربرة يقتلون، ولكن هؤلاء القتلة من سوف يعاقبهم إذ قتلوا تاريخاً أو أبطالاً - الكل مزيف، والتزييف يحاصر التاريخ - وحين يقول "الرجل الغسالة" إنه سوف يصور وجه فلسطين، يتساءل "الرجل التيكز" : ولماذا وجه فلسطين ...؟ وهو وجه قريب، ويطلب تصوير وجه آخر :

وجهاً نرفعه كالحجر ونضرب وجه فلسطين (ثورة الزنج - ص ١٠)

يضع الشاعر الدرامي أيدينا على تلك المقابلة بين النظيرين التاريخي والواقعي. المرأة تتقدم حتى تصبح في منتصف الحلبة :

وجهي ... ولماذا وجهي أنا يا قتلة

وجهي لوح زجاج يكسر كل صباح

كي تصنع منه هذي المرأة وتلك المرأة

عنقي يقطع، يغرس سارية في الأرض

كي تخفق فيه هذي الراية أو تلك الراية ...

عظمي ينحت أمشاطاً من عاج ...

شعري قصوه وباعوه ...

أصبح هذي الباروكة أو تلك الباروكة

أنا في واجهة متاجرهم تلك المانيكان

مانيكان فلسطين ... (ص ١٠)

صدري حائط ...

ظهري حائط ...

وعليه يلصق هذا الإعلان وذلك الإعلان (ص ١١) الجميع يتاجرون بالقضية ويزيفون. هذه الإدانة من قبل المؤلف تسير رؤيته في الجمع بين النظيرين الواقعي والتاريخي. فكما زيف تاريخ ثورة الزنج. هناك من يتاجر بقضية فلسطين. والإدانة للجميع. التاريخ والواقع.

من يبكي أكثر ... ؟

رجل يشهر في القرن الثالث سيفاً ويموت ... ؟

أم رجل في القرن العشرين ...

لا يعرف كيف يموت ...؟ (ص ١٦)

٧:٢ تصور اللوحة الثانية من الجزء الأول من الدراما الشعرية "ثورة الزنج" فلسطين؛ المكان والزمان - إلى اليسار الخشبة صليب ضخم وفوقه هندي أحمر مصلوب. وإكليل الريش فوق رأسه - تحت قاعدة الصليب كرسي ظهره للجمهور وقاعدته تكاد تلمسها قدما المصلوب، إلى جانب الكرسي رجل مهلهل الثياب تماماً يمد يده بجمجمة - إلى يمين الصليب في وسط المسرح تقريباً قفص ضخم عيدانه من البوص الرفيع كعيدان أقفاص الدجاج، من خلف العيدان تطل وجوه رجال ونساء يمسك بعضهم وبعضهن بعيدان القفص، بعض الرجال في ثياب رعاة البقر الأمريكيان والبعض الآخر في ثياب عادية، وبعض النساء في الثياب التقليدية للفلاحة الفلسطينية ... إلى اليمين بقرة سوداء تواجه الجمهور بطولها ومكتوب على

جلدها "تبرعوا لفلسطين" تحت بطن البقرة يقتعد الأرض رجل وبين يديه جردل ووراءه ثلاثة رجال يقفون في طابور وفي أيديهم الجرادل، كأنما ينتظرون دورهم. في الزاوية اليمنى تماماً من خشبة المسرح رجل يقتعد الأرض ... الرجل يرتدي سروالاً يحمل ألوان العلم الفلسطيني، على صدره العريان كتب بحروف كبيرة اسم مدينة غزة والقدس وبافا.

(ص ١٧)

(رجل يتقدم ويقف أمام الرجل الغسالة يحمل في يده صليباً ويصيح) :
أول مرة من فيلم فلسطين في القلب)

يرتفع صوت : وإنا لعائدون

عائدون وعائدون

(ص ٢٠)

الرجل في ثياب عبد الله بن محمد قائد ثورة الزنج في القرن الثالث للهجرة يتقدم حتى يواجه الجالس إلى جانب الصليب ماداً يده بالجمجمة
أو لست أباً بشار؟

من كان يتاجر بجلود الزنج ... (ص ٢٣)

الرجل الذي يفتقد الأرض يهجم على الرجل في ثياب عبد الله بن محمد
أولا تكفي تلك الثورة ...

حتى تشعل مذبحه أخرى في القرن العشرين.

الرجل في ثياب عبد الله بن محمد.

أعرف من أنت ...

عطاراً كنت بسوق البصرة

عطاراً كان يبيع الحناء

ويقول : دماء الشهداء ...

والآن تباع رماد المحترقين المذبوحين بدير ياسين

مقبض سيف من حطين

عقد من خرز

كان يطوق يوماً عنق جواد صلاح الدين ...

انطلق الآن ...

كونوا ما شئتم ...

زنجا في القرن الثالث للهجرة

لا يستأذن عبد من قيصره

كي يعلو ثورة

(ص ٢٧-٢٨)

التزييف والمتاجرة بالقضية والصليب، ونعمة الصليب والمصلوب، والصلب امتدت إلى شعرنا العربي المعاصر تعبيراً عن صاحب الحق الذي يغتصب حقه، بل يصلب من أجل الحق، وقد صلب عبد الله بن محمد؛ كما صلب الحسين بن منصور الحلاج لأنهما طالبا بإقامة العدل.

كما صاحبت القضية الفلسطينية تجارة الإعلان والدعاية والاستسلام والنخاسة؛ والعنصرية والفروسية. كل المتناقضات على الساحة منذ النكبة؛ بل وقبل نكبة ١٩٤٨. إن العقل العربي في محاولات تغييره المستمرة يقف أمام النكبة مشدوها مغيباً مبلبلاً لا يعرف ماذا يفعل ... هكذا جاءت سنوات عذاب الضمير العربي.

والمسايرة بين النظيرين تشكل البناء الفني في الدراما، ليقول العمل ويرصد :

حين يصير الصوت هو المحراث ...

يفتح أخدوداً في الظهر أو الصدر ...

فعلينا أن نلقي يا وطناء ...

ببذور الدم ...

وعلياً أن نجتمع قطرات الدم ...

من هذا الجمع وذاك الجرح ...

في سلة زنج البصرة ...

(ص ٣٠)

هكذا يمكن القول بأن النظير الواقعي لهذا النظير الأسطوري، أن يجمع الفلسطينيون الدم الذي أريق في المذابح اليهودية ليضعوه في سلة القدس، في سلة حيفا، في سلة عكا، في سلة كل أرض فلسطين. والدم بالدم - بيد أن العرب فشلوا

في هذا في حرب فلسطين - ولعل نموذج مذبحه "دير ياسين" كان إيذاناً باليقظة في إبريل ١٩٤٨، وفي ساعات قليلة كانت حصيلة المذبحة حوالي مائتي عربي فلسطيني؛ نساء وأطفال وشيوخ، ونساء حوامل - وقاد اليهود من بقي من أهل القرية أحياء وثيابهم ملوثة بدماء الشهداء من أهلهم، ليقوموا بعملية استعراض لهم في شوارع القدس، حتى يزرعوا الرعب في قلوب العرب، فيرحلوا، ولقد كان هذا الحدث من أسباب الهجرة الجماعية عام ١٩٤٨. وقد اعترف "مناحم بيجن" في كتابه "الثورة" بأن أسطورة "دير ياسين" قد ساعدت "الهاجاناه" على احتلال "القدس" و"حيفا" والطريق إلى القدس.

٨:٢ التوحيد - مطلب أساسي - لكل القوى في مواجهة كل مغتصب الأرض، مغتصب الأمل، مغتصب الحلم، مغتصب المستقبل.

الحجر الواحد لا يبني بيتاً للثورة

(ص ٣٢)

ماذا بقي بأيدينا لنخاف عليه ...

(ص ٣٧)

أصبح لحم الإنسان هو الطين ...

(ص ٤٢)

والوعي والمشاركة مطلوبان.

حين يموت هنالك رجل ...

أو ليس على الرجل الآخر أن يعرف ...

أن يصرخ لأخيه الرجل الآخر ...

كيف يموت ...؟

(ص ٤٣)

والأمل - مع العمل - مطلوب

سوف يجيئون ...

قد ينتظرون طويلاً لكن سوف يجيئون

(ص ٦٣)

والثورة - دون إبطاء - مطلوبة.

هذي الأشلاء

أعلام الثورة ...

فاكهة الثورة ...

نسقطها باسم الزنج وباسم الثورة ...

في أرض أخرى (ص ٦٦)

ثورة يقوم بها جيل قادم

وطفاء : طائر له بأحشائي يا عبد الله بن محمد

سيظل يرفرف حتى ينطلق وفي منقاره ...

حبة قمح يلقبها

باسم الزنج وثورتهم

في طاحون القرن العشرين (ص ٧٠)

والإيمان بعدالة القضية مطلوب أن يتجذر فينا حتى النخاع، فالأرض السلبية

في ١٩٤٨ - أرض عربية، لا تستسلم لطمس هويتها - "وطفاء" زوجة "عبد الله

ابن محمد" تحمل في أحشائها ابنه - أمل المستقبل، هو ذهب إلى الموت صلباً.

أما هي فللعذاب، بيد أنها :

عبرت كل جذور عذاب مخاض الحمل ...

مرت فوق الصدر سنابل خيل غزاة الأرض ...

وكأن هنالك درعاً فوق الصدر ...

وانطلقت تحمل ثمرة عبد الله بن محمد ...

عبر السنوات الصفراء ...

وعبر السنوات السوداء ...

لهذا القرن وذاك القرن ...

وكأن هنالك ختماً سرياً فوق الصدر ...

لا يفتح إلا في هذا القرن ...

في القرن العشرين ... (ص ٧٧)

٩:٢ الانتظار الإيجابي ظاهرة واضحة في هذا العمل فـ "طفء" تنتظر من سوف يجيئون، وقد خبأت لهم سيفاً منقوعاً في الدم منذ القرن الثالث للهجرة - هؤلاء الثوار أبناء الأرض

لا يملك الواحد منهم ثوباً ورغيفاً ...

لا يملكون من العالم بيتاً ورصيفاً ...

ويحبون العالم ويحبون الثورة (ص ٨٧)

والانتظار رهن بالعمل

هل تنتظرين وأنتم فوق مقاعدكم؟

معجزة الميلاد ... ؟

أن تلد البطلة بطلاً ...

(ص ٩٧)

الفكرة الثالثة في البحث تدور حول رصد العلاقة الجدلية بين الإنسان الفلسطيني والزمان والمكان، وسوف نقف أمام هذه الرؤية من خلال نماذج من شعر "محمود درويش".

وتتمثل هذه العلاقة الجلية في كيفية التعامل من جانب الإنسان الفلسطيني مع معطيات الزمان والمكان؛ (الزمان بين ثورة ٣٦ ونكبة ٤٨ - الذي هو كامن بين جيل إبراهيم طوقان، وعبد الرحيم محمود، وأبو سلمى، في أعماق محمود درويش إذ كان شعرهم نضالاً، وكان نضالهم شعراً، أما المكان، فكان ميدان الصراع العربي الإسرائيلي، الأرض التي تتجذر في وجدان محمود درويش، بضميرها الشعبي الجمعي؛ بدماء القسام والشهداء الذين آمنوا بأن دماء الشهداء هي الطريق الوحيد لخلاص الأرض من محاولات التهويد وطمس هويتها العربية قبل ١٩٤٨.

ولقد نلاحظ أن هذه الرؤية من جانب الأدب العربي تتكرر عند الأدباء العرب، كما أنها رؤية مقاربة.

ثالثاً : رصد العلاقة الجدلية بين الإنسان الفلسطيني والزمان والمكان
١:٣ يرى الراصد لشعر محمود درويش أن هناك كلمات تتكرر، هي ومشتقاتها، وهذا الكلمات لا تخرج عن دلالاتها، إلا لتقف أمام دلالة واضحة من خلال استعمالها رمزاً.

هذا الكلمات لا تشكل العمود الفقري في شعر محمود درويش، من حيث معجمه الشعري فحسب، بل إنها تشكل الجزء الرئيسي من فكر الشاعر ونفسيته، بل وهويته، هذه الكلمات هي : الأرض، الرحيل، المكان، الزمان، الوطن، الأم، الصدى، الذاكرة، الانتظار، الزيتون، كنعان. ولا تتكرر من الأسماء النسائية سوى "ريتا" إذ أفرد لها ثلاث قصائد ("شئ ريتا" من ديوانه : أحد عشر كوكباً، و"ريتا ... أحبيني" من ديوانه : العصفير تموت في الجليل. و"ريتا والبندقية" من ديوانه : آخر الليل) غير ورود اسمها في أكثر من قصيدة.

في دواوينه : "مديح الظل العالي" (قصيدة تسجيلية). و"هي أغنية" - و"ورد أقل" - و"أرى ما أريد". و"أحد عشر كوكباً"؛ خمسة دواوين في أربع قصائد ومائة، جاءت نتيجة الرصد؛ أنه لا تخلو قصيدة من قصائد الدواوين الخمسة من الدلالات التي أشرت إليها.

٢:٣ تتحدد أرض فلسطين النكبة ٤٨ في البناء الفني لشعر الشاعر - ترتبط بها الدلالات المختلفة للمكان : المدن الفلسطينية، إما متفردة، أو فلسطين كلها الأرض - الزمان، الصدى، الوطن، الأم، الذاكرة، الزيتون، وكنعان؛ تتحدد زماناً ومكاناً. كنعان التي تصر نصوص التوراة - كما ألمحت في أول البحث - على إن إسحق وأبنائه، ويعقوب وأبنائه غرباء فيها.

٣:٣ ساقف أمام قصائد أربع، لأشير في عجالة إلى البناء الفني الملتحم بالدلالات - وسوف أختار الكلمة "المكان" وكيف جاءت في نسيجها الشعري في هذه القصائد الأربع - أول هذه القصائد قصيدة "الهدد" من ديوان "أرى ما أريد" - جاءت كلمة "المكان" بصيغتها المباشرة في موضعين من القصيدة :

الأول : يقول :

قلنا له : لسنا طيوراً كي نطير، فقال : أجنحتي زماني والعشق نار العشق،
فاحترقوا لتلقوا عنكم جسد المكان.
قلت له : هل عدت من سبأ لتأخذنا إلى سبأ جديدة.

الثاني : يقول

قلنا، وقد متنا مراراً وانتشنا : نحن عشاق وحسب
منفى هي الأشواق، منفى حبنا. ونبيذنا منفى، ومنفى
تاريخ هذا القلب، كم قلنا لرائحة المكان تحجري لننام. كم قلنا لأشجار
المكان تجردي من زينة الغزوات كي نجد المكان.
واللامكان هو المكان وقد نأى في الروح عن تاريخه ...

احترق الفلسطيني بنار العشق لفلسطين "المكان" سوف يحول المكان من
"جسد" إلى "روح" - وحين يتحول العشق من شيء مادي إلى شيء روحي، فإنه
يصبح عشقاً أبدياً - لا يمكن فصله عن الإنسان ولو مات. لأنه أصبح جزءاً من
تكوين "الروح" - وحين ينتهي الجسد بالموت، ولا ينتهي المكان معه. ومن ثم
يصبح الاستشهاد في سبيل المكان، وحين تتجرد أشجار المكان من زينة
الغزوات، يوجد المكان؛ أي أنه يتحول إلى شيء غير حسي. إن هذا التحول هو
ما أسميه بميتافيزيقيا المكان. أن يصبح "المكان" متغلغلاً في النسيج الروحي
والنفسي للإنسان، وهذا النسيج هو ما تشكله القيم والأعراق والتقاليد. بمعنى ألا
يصبح المكان "قبل وبعد" أي أنه يلتحم بالزمان بلا تقسيم للمكان في الزمان، ولا
للزمان في المكان.

٣:٤ القصيدة الثانية قصيدة : "خطبة الهندي الأحمر" ما قبل الأخيرة أمام الرجل
الأبيض.

جاءت الكلمة "المكان" في مواضع ثلاثة.

الأول، يقول :

... ستروح الريح لنا
بداياتنا والنهاية، لكننا ننزف اليوم حاضرننا
وندفن أيامنا في رماد الأساطير، ليست أثينا لنا،
ونعرف أيامكم من دخان المكان، وليست أثينا لكم،
ونعرف ما هيأ المعدن - السيد اليوم من أجلنا.
... فاتركوا الناي للريح تبكي
على شعب هذا المكان الجريح ... وتبكي عليكم غداً،
وتبكي عليكم ... غدا!

الثالث، يقول :

هنالك موتى يزورون ماضيهم في المكان الذي تهدمون

.....

كما تركتم بنادقكم، فاتركوا يا ضيوف المكان
مقاعد خالية للمضيفين ... كي يقرؤوا
عليكم شروط السلام مع ... الميتين

المكان هنا كان جريحاً، له شعبه الجريح أيضاً الذي ينزف حاضره، كما ينزف
ماضيه - والعدو قد أشعل المكان ناراً، أصبح لها دخان يعرف به - لأن صاحب
المكان لا يشعله ناراً، بل يقده، يزرعه كي يعطي ثماراً وفاكهة وحباً وعطاء. أما
الغريب فيزرعها كي تعطي ناراً ورصاصاً وموتاً. والعدالة الشعرية تقتضي بأن الناي
الذي يبكي على شعب المكان الجريح اليوم، سوف يبكي في الغد على مغتصب
المكان.

والموتى - الشهداء - يزورون ماضيهم في مكان يهدمه المغتصب. العلاقة
بالمكان هنا علاقة الحياة وعلاقة الموت. في حين أن العدو يبني علاقته بالمكان على
أنه مكان للحياة. هذا الانشطار في العلاقة تجعل علاقة المغتصب بالمكان علاقة حسية
مادية، في حين تجعل علاقة الشعب بالمكان علاقة حسية روحية؛ الحاضر والماضي،
الحياة والموت.

نحن والقدس ... والآخرون

لطف زغلول

نابلس

* تعريف بالمقالة : هي واحدة من مقالات مكرسة لمدينة القدس العربية الإسلامية بعنوان : "نحن والقدس ... والآخرون". والآخرون الذين لهم علاقة بالقدس بصورة أو بأخرى أو يدعون هذه العلاقة كثيرون. وفي هذه المقالة سنتناول الأجواء العربية السائدة ومدى علاقتها بالقدس.

* ثمة جانب على قدر كبير من الأهمية ينبغي إضاءته، والتركيز عليه، يخص مدينة القدس العربية والإسلامية الهوية والتاريخ والجغرافيا والديموغرافيا والانتماء، ويعيننا هنا فصل المؤامرات التي تحاك ضد عروبتها وإسلاميتها. ولسنا هنا بصدد الحديث كما يتبادر لأول وهلة عن ما يفعلها الصهاينة أو حلفائهم في الولايات المتحدة وغيرها، فقد كرست لهذا مقالة أخرى، ولكننا سوف نتحدث عن الصمت المؤامرة أو مؤامرة الصمت المحاكاة ضد هذه المدينة المقدسة في شتى أرجاء الوطن العربي وحتى الإسلامي على أيدي أنظمتها السياسية، الأمر الذي هبأ المناخات الملائمة للصهاينة من التخطيط لمشروعهم القديم لافتراس القدس واقتراضها وتنفيذ المخطط بكل يسر وسهولة.

* في ظل الظروف العربية الراهنة، وصل الاستعمار الغربي إلى نقطة انتزاع جلود العرب الثقافية والانتمائية فتبدلت ثقافتهم ومفاهيمهم ونظرتهم إلى تاريخهم وتراثهم، ولبسوا طوعية أثواب غيرهم، فكان أن ضربت الأنظمة العربية السياسية بسيوف سادة الغرب، وتخلت عن كثير من المواقف والثوابت فيما يخص القضية الفلسطينية وفي مقدمتها القدس.

* وفي حين تحل القدس مكانة الصدارة في تفكير الساسة والعسكريين والفلاسفة والكتاب والفنانين والمتدينين والعلمانيين الإسرائيليين ومن والاهم، وفي حين تجند كل طاقات الولايات المتحدة الأمريكية الداعمة لذلك، فإننا على الطرف الآخر نلاحظ أن هذه القدس والمفترض أنها من أقدس المدن الإسلامية وإحدى أهم مفاتيح التاريخين العربي والإسلامي، لم تعد تشكل مركز اهتمام للعرب والمسلمين، وإن الحديث عنها على ندرته في شتى وسائل الإعلام أو على السنة الساسة قد فقد كل عناصره

٥:٣ القصيدة الثالثة "حجر كنعاني في البحر الميت"

جاءت الكلمة "المكان" في موضع واحد في القصيدة - يقول :

أُتيت ... ثم قتلت ... ثم ورثت، كي

يزداد هذا البحر ملحا؟

وأنا أنا أخضر عاماً بعد عام فوق جذع السنديان

هذا أنا، وأنا أنا، وهنا مكاني في مكاني

والآن في الماضي أراك، كما أُتيت، ولا تراني

غده ... فينأى بي زماني عن مكاني

حيناً، وينأى بي مكاني عن زماني

جاء العدو إلى أرض "كنعان" التي هو غريب عنها، ليقتل ويشرد ويغتصب ويشعل النار ويحفر العذاب خنادق، ويسيل أنهار الدماء الذكية الطاهرة، مما يجعل البحر الميت الشديد ملوحة الماء، تزداد ملوحة - أما الحجر الكنعاني صاحب المكان فإنه يصبح أخضر عاماً بعد عام. والإنسان - الحجر - قطعة المكان، لا يتغير. إن هويته ثابتة لأنها متجذرة في المكان، والمكان في شعر "محمود درويش" ليس الأرض، وإنما هو الأرض والأم والأب، الطفولة، الخضرة، الثمار، الحب، العشق - الدين - المكان بكل أبعاده الميتافيزيقية.

٦:٣ القصيدة الرابعة، "رب الأيائل يا أبي ... ربها" من ديوان "أرى ما أريد"، جاء "المكان" في موضع واحد. يقول :

يا أرض! لم أسألك : هل رحل المكان عن المكان؟

لأكون زائر القريب على حراب القادمين من الدخان.

ولن يكون الإنسان صاحب الأرض غريباً، إلا إذا تغير المكان، وهذا أمر يدخل في إطار المستحيل؛ أن يرحل المكان عن المكان. بيد أن رؤية الشاعر تتفق مع رؤية الجيل السابق عليه، إبراهيم طوقان ورفاقه، وتتفق مع رؤية شعراء جيله أمثال "معين بسيسو" الذي وقف البحث أمام بعض أعماله، في أن الانفجار لا بد منه، وفي أن دماء الشهداء لا بد أن تقابلها دماء المغتصبين.

وبعد : فهل توحدت الرؤى الثلاث حول فلسطين من قبل الشعراء العرب الثلاثة؟...

الأساسية، ومع الأيام لوحظ أن معظم الساسة العرب والمسلمين يتحاشون الحديث عنها أو ذكرها لما تسببه لهم من إحراج وإرباك وشعور بالتقصير. وهنا نذكر أن اتفاقيات السلام التي عقدتها بعض الأنظمة العربية لم تتطرق إلى موضوع القدس، وحلت مشكلات هذه الأنظمة الإقليمية الضيقة - التي تفوح منها رائحة الارتواء والخضوع - مع إسرائيل على حساب القضية الفلسطينية والقدس، وكان يفترض أن تكون ورقة مساومة أو ضغط. * وفي هذه الأيام بالذات يحيي الشعب الفلسطيني الذكرى الخمسين للنكبة الإنسانية التي حلت به، ونحن لا ننكر أن بعض الفضائيات العربية قد تناولت عموميات النكبة ولكنها لم تتطرق إلى خصوصياتها وأهمها قضية القدس، ولعل ما يلفت النظر أنه ما من زعيم عربي خارج حدود فلسطين كلف نفسه عناء الحديث عن القضية أو عن القدس. وثمة ملاحظة أخرى تتخذ طابع الخطورة ولها دلالتها الأخطر، فقد تم إحراق إحدى بوابات ساحة الأقصى بمتفجرة صهيونية، ومر الحدث على كل الوطن العربي والإسلامي وكأن شيئاً لم يكن. وأغلب الظن أن هذا الصمت سوف يحمل في طياته بذور تشجيع لممارسات أخرى ضد القدس وأقصاها، ويزكرنا أن النيران التي أحرقت المسجد الأقصى ذات يوم ما زالت متقدة، وأن النار الوحيدة التي خبت جذوتها هي نيران الحمية العربية والإسلامية.

* وإذا كنا تحدثنا حتى الآن بصورة عامة يغلب عليها طابع العاطفة والتعميم، فإننا الآن سوف نقلق الأضواء على ما أسمىناه بالقصور والتقصير إلى حد المؤامرة على القدس عروبة وإسلاماً، ولكن هذه المرة على أيد يفترض أنها عربية وإسلامية، ونسجل هنا بعض الملاحظات التي تشكل خطوط خارطة الراهن العربي والإسلامي فيما يخص القضية والقدس :

١. لقد تم انعقاد مؤتمر القمة الإسلامية الثامن في طهران العام الماضي واشتركت فيه كل الأقطار العربية والإسلامية، في ظل أجواء فعاليات تهويد القدس والعمل الحثيث على اختراقها استيطانياً، فأين هو الرد والقرار؟، وأين هو التنفيذ؟، وأين هي المتابعة؟ إن الجواب عن كل ذلك يتمثل في منظومة القرارات والتنفيذات والمتابعات الجارية المستمرة ولكن على الساحة الإسرائيلية.

نحن والقدس ... والآخرين

٢. تقوم الفضائيات العربية بنقل صلاة الجمعة والأعياد من شتى المساجد الإسلامية الكبيرة، ويلاحظ أن أئمة المساجد لا يتطرقون بأي شكل من الأشكال إلى موضوع القدس، ولا إلى ما تتعرض له هذه المدينة المقدسة من اعتداءات متكررة على مقدساتها وأراضيها وعقاراتها وأهلها الشرعيين، ويبدو أن الحديث عنها أصبح من الممنوعات والمحرمات.

٣. أن تصريحات الساسة العرب لا تمت بصلة إلى القدس أو بمعنى آخر فإن هؤلاء الساسة لا يتطرقون إلى القدس باعتبارها موضوعاً أساسياً أو نقطة ساخنة وإنما يشار إليها إشارة عابرة وفي السياق. في حين تشكل هذه القضية ما مساحته نصف السياسة الإسرائيلية أو يزيد.

٤. وبطبيعة الحال ليس هناك استراتيجية حتى سياسية، ولا نقول عسكرية لاسترداد القدس، ولا يوجد هناك أي تصور لذلك، وأن أفعال الساسة الإسرائيليين في القدس تظل دون أي ردود أفعال عربية حقيقية أو بنفس القوة والاتجاه .

٥. إن الوطن العربي بفعل أنظمتة السياسية وجراء عجزها عن تحقيق قدر من التنمية أو استغلال أمثل للموارد التي حباها الله للوطن العربي، أو تقصيرها في إيجاد سوق عربية مشتركة، ظل بحاجة للآخرين الذين ساقوه على خلفية حاجاته هذه إلى ما يسمى بالنظام العالمي الجديد والعولمة والتطبيع ومنظومة المفاهيم الثقافية المغايرة للثقافة العربية الإسلامية والغربية عنها، ويخشى معها أن تكون القدس ثمناً لكل هذا وذلك.

٦. إن المناهج التربوية والتعليمية العربية وبخاصة التاريخية منها وفي كل المراحل التعليمية بما فيها الجامعية، تفتقر إلى مادة تاريخية شاملة للقضية بعامة والقدس بخاصة، وكما ذكرنا في مقالة سابقة فإن مجموع ما يدرس خلال اثني عشر عاماً عن القضية الفلسطينية لا يتجاوز ثماني صفحات في ثلاث عشر دولة عربية، وقد تناقص عدد هذه الدول في السنوات الأخيرة، وأما الدول الأخرى فليس في مناهجها أثر يذكر للقضية والقدس على الإطلاق، فكيف يمكن أن تتعاطف الأجيال العربية مع مكان أو موقع لا تربي عليه أو لا تقرأه أو لا تدرسه أو حتى لا تظالعه في الإعلام الذي تسيطر عليه الثقافات الدخيلة؟

- والديموغرافيا، وتغيير معالم التضاريس التي أغالتها الجرافات الإسرائيلية تحت ظلال الصمت العربي. في الماضي استشعر الغزاة بالعرب و المسلمون وحسبوا لهم ألف حساب، أما اليوم فالعرب والمسلمين في حالة انعدام الوزن.
٣. وقوف القوى العظمى إلى جانب إسرائيل، ونحن هنا لا نتجنى على الحقيقة إذا ما أكدنا أن هذا الوقوف هو استمرار وديمومة للروح الصليبية القديمة المتجددة، ويقابل هذا الوقوف نكوص وتراجع وقعود على الساحة العربية.
٤. اختلاف العرب و المسلمين حول القضية الفلسطينية والقدس في الرؤيا والتفكير في حين تتوحد قوى اليمين واليسار والحركات العلمانية والتدنيية الصهيونية حولها، وتشكل القدس البنية التحتية للثقافة الصهيونية.
٥. وإذا كان العرب على حد ادعاء الأنظمة العربية السياسية ينتظرون مفاوضات المرحلة الأخيرة، فماذا يمكن أن يكون قد بقي من القدس لهم؟
٦. وأخيراً لا أخراً، نتساءل : ماذا تفعل اللجنة الخاصة بالقدس في المغرب وما هي وظيفتها، وكيف يفكر القائمون على منظمة المؤتمر الإسلامي؟

ملاحظات سريعة من الوجه الآخر الصهيوني لقضية القدس :

١. ستصدر ورقة الخمسمائة شيكل الإسرائيلية الجديدة وهي تحمل صورة الأماكن المقدسة في القدس، وعليها شعار القدس الذهبية.
٢. أصبح النفق تحت المسجد الأقصى حقيقة سياحية إسرائيلية.
٣. العمل جار على قدم وساق للاستيلاء على البيوت العربية داخل أسوار المدينة المقدسة.
٤. سوف تشكل مستوطنة أبو غنيم حاجزاً جغرافياً منيعاً وسوراً استيطانياً يحيط بالقدس، وبهذا يتم الإغلاق عليها.
٥. تعرض كثير من الآثار والأرياء والموروثات الفنية والمعمارية العربية والإسلامية الخاصة بالقدس وتقدم للعالم في شتى المعارض الكبرى على أنها نتاج الثقافة والحضارة الإسرائيليتين.

٧. إن اتحادات الكتاب العرب في غالبية الأقطار العربية لم تتخذ من القدس قضية محورية أو أنها تعمل على حث كتابها والمنضوين تحت الويتها أن يتناولوا القدس نثراً وشعراً أو قصة أو رواية أو مسرحية أو بحثاً أو دراسة. وأن ما تطرحه المطابع العربية يكاد يكون خالياً من رائحة القدس والقضية.

٨. والحديث ينطبق على اتحادات الفنانين العربية على كافة أشكالها والأسئلة التي تطرح نفسها بالحاح هنا : كم فلما سينمائياً أخرج عن القدس وكم مسرحية وكم أغنية نزلت إلى الأسواق وكم معرضاً للرسوم والتصاوير الخاصة بها وكم مهرجاناً خصص لها؟ والأجوبة بلا شك تتخذ طابع النفي المطلق.

٩. إن الجامعات العربية هي الأخرى مقصرة في عقد ندوات أو أيام دراسة خاصة بالقدس بكل ما للقدس من أبعاد تاريخية وتراثية وثقافية وقداية، في حين لا تتقطع الندوات الأخرى التي لم تغير صورة الوطن العربي التقنية والعلمية.

١٠. وإذا كنا لم نتطرق إلى الجامعات العربية فالسبب يعود على أنها بكل أسف تتجاهل القدس، ونحن بكل بساطة نتجاهلها هنا.

* وعلى ضوء هذه الملاحظات يبني العدو الصهيوني ويتحرك وهو آمن مطمئن، فالصمت العربي الإسلامي والتجاهل العربي الإسلامي، وعدم المبالاة والاكتراث بالقدس تشكل العصر الذهبي له.

* وختاماً فإننا نود أن ننوه إلى تجربة احتلال القدس على أيدي الفرنجة لمدة قرنين من الزمان وتحريرها على يدي صلاح الدين الأيوبي، فما زال هناك أناس يحملون وهم قاعدون بأن التاريخ سوف يعيد نفسه، ولسنا هنا نقصد أن نحبط الآمال أو نخيبها، ولكن :

١. إن الاعتماد على العواطف والتمنيات فقط لا يجدي فاسترجاع القدس بحاجة أولاً إلى اعتراف العرب والمسلمين بها، ومأسسة هذا الاعتراف وتفعيله وتكريسه على أرض الواقع.

٢. إن الفرنجة لم يفعلوا في الماضي كما فعل الصهاينة اليوم (وهذا ليس دفاعاً عنهم) إن خطورة المرحلة الحالية تتجسد في أن القدس بدأت تفقد صورتها المعروفة وطابعها المرسوم في أذهان الأجيال جراء تهويد التاريخ والجغرافيا

استدراكات :

١. ليس المواقف الفلسطينية بالضرورة متطابقة مع المواقف الأخرى للأنظمة العربية، فحديثنا في هذه الورقة ينصب على خارج حدود الوطن الفلسطيني.
٢. الإصرار الفلسطيني على القدس فوق الشبهات.
٣. كل التقدير والامتنان لعاصمة الثقافة العربية (إمارة الشارقة) وفضائيتها على مواقفها المشرفة تجاه القضية الفلسطينية والقدس، فهي نموذج يحتذى.

ملاحظات بشأن العمل الوطني الفلسطيني في القدس من ٦٧ إلى الآن

وليد سالم

مدير مكتب القدس

تتضمن هذه الورقة محورين رئيسيين الأول يتعلق بالمراحل التي مرت حتى الآن على العمل الوطني الفلسطيني في القدس، والثاني يتعلق بتقييم هذا العمل ودروسه حتى الآن، وذلك بهدف الاستفادة من هذه الدروس لرسم الأهداف المستقبلية لهذا العمل.

وبالنسبة لمراحل العمل الوطني في القدس حتى الآن فيمكن تكثيفها بالمراحل التالية :

١. مرحلة ١٩٦٧ - ١٩٧٤ : والتي تمثلت بالسعي لحماية المؤسسات الوطنية في البلدية والأوقاف والغرفة التجارية، وشركة الكهرباء، ومستشفى المقاصد، وجهاز التعليم الخاص، والنقابات المهنية، والجمعيات الخيرية، والمحاكم الشرعية. كما شهدت هذه المرحلة تشكل لجنة التوجيه الوطني الأولى عام ١٩٦٧ بقيادة الشيخ عبد الحميد السائح، وتأسيس الهيئة الإسلامية العليا لحماية استقلالية المؤسسات الإسلامية عن الاحتلال.
٢. مرحلة ١٩٧٤ - ١٩٨٧ : والتي شهدت التوسع في البناء المؤسسي في القدس، وتشكيل الجبهة الوطنية (١٩٧٣ - ١٩٧٦)، ثم لجنة التوجيه الوطني الثانية (١٩٧٨ - ١٩٨١).

٣. مرحلة الانتفاضة : والتي أثبتت وكرست كون القدس جزءاً لا يتجزأ من الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧، وذلك من خلال مجمل أعمال المقاومة التي تمت في المدينة خلال هذه الفترة، وانعكس ذلك على المجلس الوطني الفلسطيني الذي ذكر عام ١٩٨٨ القدس كعاصمة للدولة الفلسطينية المستقلة في قراراته التي صدرت في ذلك العام. وذلك لأول مرة في تاريخ المجلس الذي كان يذكر الدولة بدون ذكر القدس كعاصمة لها في قرارات دوراته السابقة.

٤. مرحلة ما بعد الاتفاق الفلسطيني الإسرائيلي : حيث نشأت في هذه المرحلة قيادة سياسية فلسطينية ومقر سياسي فلسطيني في القدس معترف بهما من إسرائيل، وتشكلت لجان واسعة للدفاع عن الأراضي ومواجهة الاستيطان، وتكثفت عملية العودة إلى القدس من المقيمين خارجها.

أما بالنسبة لتقييم الصراع وآفاقه فإنه يمكن استخلاص أن هناك نجاحات إسرائيلية بارزة للعيان في شرقي القدس، سيما في ميداني التوسع الاستيطاني والتغيير الديمغرافي، مضافاً إليهما نجاحات أخرى تتعلق بخلخلة البنية الاجتماعية الوطنية لفلسطيني شرق القدس، وهي خلخلة يمكن المجازفة بالقول أن حدوثها يعود لغياب البديل الوطني الفلسطيني المتكامل في المدينة وسيتم سرد خلاصة هذه النجاحات في الورقة الكلية التي ستسلم لكم يوم المؤتمر.

وبدون تقييم شامل أيضاً، فقد تراوح رد الفعل الفلسطيني على الإجراءات الإسرائيلية في القدس، دون رد فعل رسمي فوقى لا يشرك الجمهور الفلسطيني المقدسي في أنشطته وتحركاته، وبين رد فعل شعبي (جماهيري ومؤسساتي) موسمي وعفوي، وقاد هذا الانفصال بين العاملين القيادي والجماهيري إلى شرخ يتسع يوماً بعد يوم بين القيادة التي تخطط للمواطنين المقدسيين بدون مشاركتهم، وبين المواطنين المقدسيين الذي يتشككون في مدى نجاعة خطط القيادة من جهة، والذين لا يجدون بديلاً عن الخدمات الحياتية التي تقدمها إسرائيل لهم كإغراء لقبولهم بالحاق المدينة بإسرائيل من جهة أخرى، علماً أن وجود هذه الخدمات هي عامل ويجب الاعتراف بذلك - يساعد على الصمود في ظل متطلبات المعيشة العالية نسبياً في المدينة.

نعم لقد حققنا على الصعيد الرسمي نجاحاً في خلق مقر سياسي فلسطيني في القدس، وحققنا على المستوى الشعبي والمؤسساتي نجاحات أخرى سبق ذكرها، ولكن الخطورة اليوم تكمن في أننا لا نسير باتجاه تكثير هذه النجاحات، بل على العكس من ذلك نقف اليوم في وضع يتراوح بين الدفاع عن النجاحات المحققة من

جهة وبين البدء بفقدان بعضها من جهة أخرى، وفي هذا الصدد فإننا في وضع لا يحسد عليه بشأن المقر السياسي الذي بات مشلولاً بسبب التضييقات الإسرائيلية على أي نشاط للسلطة الوطنية أو م. ت. ف في مدينة القدس، وكذلك الحال بالنسبة لقطاعي التعليم والصحة الذين تتراخى سيطرتنا عليهما بتدرج متسارع، زد على ذلك أموراً ذاتية من طراز التشكيلة النخبوية للجان الدفاع عن الأراضي وغيرها من الأشكال التي يفترض أن تكون جماهيرية، فيما هي الآن مجرد هياكل ومكاتب بدون مضمون حقيقي أو فعل جاد على الأرض.

كتاب مشكلة فلسطين أمام الرأي العام العالمي

١٩٤٥ - ١٩٦٧

عرض وتقديم

الأستاذ الدكتور / محمد نصر الدين علي مهنا

كلية التجارة - جامعة أسيوط

توطئة

لعل من أهم المشكلات التي تواجه الباحثين في المشكلة الفلسطينية في الفترة المعاصرة - هي مشكلة إعداد خطة بحث تعالج تطورها في سياق سرعة تلاحق الأحداث.

والواقع أن الباحث قد استفاد كثيراً من فكر الأساتذة الفلسطينيين في فروع المعرفة الاجتماعية كافة بالإضافة إلى مراكز البحوث الفلسطينية في الجامعات العربية الذين ساهموا بجهودهم تجاه المشكلة الفلسطينية.

ويخص الباحث بكل الثناء والتقدير جهود كل من :

المرحوم الأستاذ الدكتور / اسحق موسى الحسيني

المرحوم الأستاذ الدكتور / إسماعيل راجي الفاروقي

كل من الأساتذة / أنيس صايغ ويوسف صايغ وفايز صايغ حيث تتلمذ الباحث عليهم جميعاً في دراساته العليا.

ويعالج كتاب مشكلة فلسطين أمام الرأي العام خلال الفترة من ١٩٤٥ حتى

١٩٦٧. وإذ تعتبر هذه الفترة من أخصب وأصعب فترات تاريخ المشكلة الفلسطينية

الفذة، التي شغلت ليس فقط الكتاب والمعلقين والساسة، وإنما أيضاً الرأي العام

العالمي عموماً والرأي العام العربي على وجه الخصوص الذي لم يشغله موضوع

آخر على امتداد فترة الدراسة.

وقد نتج الرأي العام تجاه مشكلة فلسطين من تفاعل آراء المجتمع الدولي

واحتكاك أفكاره، وبالتالي فإن مواقف دول الجماعة الدولية والمنظمات العالمية

والإقليمية هي المحصلة التي انعكست عليها أحداث المشكلة الفلسطينية.

كذلك فقد كانت مشكلة فلسطين تتحول إلى مأساة للعالم بأسره لديمومة الصراع القائم في الشرق الأوسط الذي حمل في ثناياه بذور حرب عالمية، ومن هنا كانت أهمية هذا البحث لتقديم الحقائق كاملة للرأي العام العالمي من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن تقديم هذه الحقائق للرأي العام العربي ليوضح جدوى الموقف العربي الذي استمر طوال هذه الفترة يرفض كل شيء من منطلق الضعف ثم يعود بعد ذلك ليقبل الأمر الواقع، كذلك فقد أصبح ما يزيد على مليون شخص من اللاجئين العرب الفلسطينيين وبيوت آبائهم وأجدادهم في قبضة الإسرائيليين، وهذه أقوى حجة على انزلاق العالم العربي خلال هذه الفترة من سيئ إلى أسوأ.

ويجدر ملاحظة بعض الاعتبارات والتحفظات الهامة :

أولاً : إن الشعب الفلسطيني قد قدم كثيراً من التضحيات في معارك غير متكافئة ضد قوى عالمية، ولو أن شعباً آخر غير الشعب الفلسطيني ذاق مرارة الصهيونية لأدرك الرأي العام العالمي برمته أن هناك ظلماً فادحاً تم ارتكابه بحق ضحايا لم يقتربوا شيئاً يستحقون عليه مثل هذا العقاب.

ثانياً : إن الشعب الفلسطيني لم ينس حقوقه المشروعة في فلسطين ولم يترك وسيلة إلا اتبعها لتأكيد هذه الحقوق في فترة التشرّد.

ثالثاً : إن هناك مجموعة من الحقائق أكدت نظرياً الانطباع الدولي للمشكلة الفلسطينية، إذ أنه في نفسها الفترة الزمنية، قامت بعض الدول العربية بالمبادرة في محاولة المجابهة لإسرائيل سواء على الصعيد العربي أو على الصعيد الدولي، وساهمت قطاعات متعددة من الرأي العام الفلسطيني بتأييد هذه المبادرة عن طريق مشاركتها للحركات السياسية العربية الهادفة إلى تحرير فلسطين، مما يساعد على تصور الصراع بأنه في الدرجة الأولى صراع عربي إسرائيلي وليس فلسطينياً صهيونياً.

رابعاً : إن هناك انسجام كاد يكون تاماً بين التصور الدولي والتصور العربي الرسمي لحقيقة مشكلة فلسطين، ومن هنا فقد أصم الرأي العام العالمي أذنيه عن أصوات الضحايا وأعار سمعه للطرف الذي اقترف الإثم؛ مما

أضفى على مشكلة فلسطين طابعاً فذاً؛ بسبب حصول إسرائيل على عطف وتأييد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي السابق، الذي أسهمت في توضيح موقفه المتذبذب بالتفسير والتعليل نظراً لغياب الرواية السوفيتية، وبطبيعة الحال فقد أثرت عدم الاستغراق في متاهات الجدل النظري وذلك باستعراض كافة وجهات النظر تجاه المشكلة الفلسطينية، معتمداً على الوثائق التي تحدد بموضوعية وبشكل واقعي حقيقة هذه المشكلة الفذة سواء في الفترة التاريخية الماضية أو مع بداية سياسة الوفاق الدولي.

خامساً : إنه رغم الصعوبة التي تبدو في معالجة هذه المشكلة بشكل حيادي، فقد التزمت بالموضوعية والواقعية في استعراض كافة جوانب مشكلة فلسطين، كما حاولت أن أتجنب مواطن الزلل فيما تحويه بعض الدراسات لاسيما أن كثيراً من الوثائق العربية محجوبة عن الرأي العام العربي اللهم إلا تلك القرارات التي لها أهمية ثانوية.

وفي هذا السياق فقد جاءت خطة البحث على النحو التالي :

مقدمة :

الباب الأول

التيارات الدولية ومشكلة فلسطين بعد الحرب

العالمية الثانية وحتى نهاية عام ١٩٤٨

التيارات الدولية ومشكلة فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية :

الفصل الأول :

مواقف طرفي النزاع والدول الكبرى حتى إبريل ١٩٤٨ وردود الفعل .

- الموقف العربي :

الأوضاع السياسية في فلسطين وانعكاسها على الرأي العام العربي

أوضاع الأحزاب العربية في فلسطين في هذه الفترة

الهيئة العربية العليا

جامعة الدول العربية ومشكلة فلسطين

- موقف الصهيونية :

بدء الإرهاب

تحول الصهيونية إلى الولايات المتحدة

برنامج بيلتور

أبعاد القوة العسكرية الصهيونية في فلسطين

طبيعة الاستعمار الصهيوني في الفترة من ١٩٤٥ - ١٩٤٧

الضغط لغرض الدولة

الصهيونية ونغمة اليهود المشردين

- موقف الدول الكبرى :

١- موقف بريطانيا :

التملص من تحمل مسؤولية المشاركة الفلسطينية

موقف الهيئة العربية العليا من بيفن

لجنة التحقيق الإنجليزية الأمريكية

رد الفعل لدى الرأي العام العربي

رد الفعل لدى الصهيونية

مشروع موريسون جرادى

رد الفعل العربي

رد الفعل الأمريكي ... رد الفعل الصهيوني

المرحلة الأولى لمؤتمر المائدة المستديرة في لندن وردود فعله

- دور الولايات المتحدة :

موقف روزفلت

موقف ترومان

مشكلة فلسطين أمام الرأي العام العالمي

انحياز ترومان للجانب الصهيوني

ردود فعل التصريح المشنوم لترومان

رد الفعل العربي

رد الفعل البريطاني

رد الفعل الصهيوني

- بريطانيا ونهاية الانتداب :

المرحلة الثانية لمؤتمر لندن

استئناف المؤتمر ثم فشله وانفضاضه

- الموقف السوفييتي :

أولاً : قبل الحرب العالمية الثانية

ثانياً : موقف الرأي العام اليهودي السوفييتي في الحرب العالمية الثانية

الحركة الصهيونية والمصالح السوفييتية في العالم العربي في الأربعينات

الاتصال بين الاتحاد السوفييتي والحركة الصهيونية أثناء الحرب وأثرها

على مشكلة فلسطين

التسلسل التاريخي لأهم أحداث مشكلة فلسطين أمام الرأي العام العالمي كما

وردت في الفصل الأول

الفصل الثاني :

مشكلة فلسطين أمام الأمم المتحدة

حلول مشكلة فلسطين طبقاً لدراسة لجنة U. N. C. O. P.

التحقيق الذي قامت به اللجنة الخاصة التابعة للأمم المتحدة

لجنة التحقيق الخاصة ونغمة اليهود المشردين

اللجنة تنهي عملها وتقدم تقريرها

رد الفعل العربي

رد الفعل الصهيوني

رد الفعل البريطاني

مشروع تقسيم فلسطين

اللجنة الخاصة

معارضة العرب

الوكالة اليهودية تتظاهر بالقبول

مناورات الدول الكبرى

اللجنة الخاصة والتيارات الدولية

الاقتراع على تقسيم فلسطين

المناورات وردود فعلها داخل الأمم المتحدة

الموقف الأمريكي أثناء مناقشة مشروع تقسيم فلسطين

الموقف السوفيتي قبل وأثناء مناقشة مشروع تقسيم فلسطين

تضارب الآراء حول الموقف السوفيتي

- قرار تقسيم فلسطين

نتائج وردود فعل قرار التقسيم

نتائج ورد الفعل الصهيوني (الفترة من صدور قرار التقسيم حتى ١٥ مايو ١٩٤٨).

نتائج ورد الفعل الرأي العام العربي (الفترة من صدور قرار التقسيم حتى ١٥ مايو ١٩٤٨).

الشعب الفلسطيني وجيش الإنقاذ.

- الموقف العربي بعد قرار التقسيم وحتى ١٥ مايو ١٩٤٨

١- موقف مصر

٢- موقف العراق

٣- موقف سوريا

٤- موقف لبنان

٥- موقف الملك عبد الله

مشكلة فلسطين أمام الرأي العام العالمي

- الأسباب التي حولت الدفعة ضد العرب في الفترة من صدور قرار التقسيم حتى

١٥ مايو ١٩٤٨.

أولاً : على الجانب العربي

ثانياً : على الجانب الصهيوني

موقف بريطانيا منذ صدور قرار التقسيم حتى ١٥ مايو ١٩٤٨.

موقف الولايات المتحدة منذ صدور قرار التقسيم حتى ١٥ مايو ١٩٤٨.

موقف الاتحاد السوفيتي منذ صدور قرار التقسيم حتى ١٥ مايو ١٩٤٨.

النكبة عام ١٩٤٨ ونتائجها

الوضع العربي في مطلع عام ١٩٤٨.

الوضع العام وتعيين الوسيط الدولي.

ردود فعل اقتراحات الوسيط الدولي.

رد فعل العمليات العسكرية الأولى في الأمم المتحدة.

اغتيال الوسيط الدولي برنادوت (ظروف الاغتيال ورد فعله)

ردود فعل العمليات العسكرية في العالم العربي

موقف الملك عبد الله تجاه حكومة عموم فلسطين وردود فعله

السياسية تجاه الفلسطينيين والقرار رقم ١٩٤

القدس ... فشل التدويل وردود الفعل

اتفاقيات الهدنة

بعض الملاحظات على نكبة ١٩٤٨

المراحل الزمنية لحرب ١٩٤٨ ... تسلسل للأحداث

سياسة الدول الغربية

سياسة الاتحاد السوفيتي

الفصل الثالث :

العدوان الثلاثي ونتائجه على الصراع العربي الإسرائيلي

الغرب وتمويل السد العالي

خلفية العدوان الثلاثي

التوتر على الحدود وردود الفعل

العدوان الثلاثي

قصة التواطؤ

الأزمة في الأمم المتحدة وردود الفعل

قوة الطوارئ الدولية ... (ظروف تكوينها وردود الفعل)

موقف بريطانيا وفرنسا

موقف الولايات المتحدة

الموقف السوفيتي

إذعان إسرائيل النهائي للانسحاب

النتائج المباشرة لعدوان ١٩٥٦ على الصراع العربي الإسرائيلي

تسلسل تاريخي لأهم أحداث العدوان الثلاثي

الباب الثالث :

من انسحاب قوات العدوان الثلاثي إلى حرب يونيو ١٩٦٧

الفصل الأول :

تطورات مشكلة فلسطين وردود فعل الرأي العام العالمي

أساليب الحرب الباردة

محاولات الوحدة بين العرب وردود فعلها

إسرائيل في الداخل والخارج ١٩٤٧ - ١٩٦٣

الباب الثاني

تطورات مشكلة فلسطين من اتفاقيات الهدنة ١٩٤٨

إلى العدوان الثلاثي

الفصل الأول :

تطورات مشكلة فلسطين على الصعيدين الدولي والغربي
السياسة الإسرائيلية

الانكفاء الداخلي في العالم العربي نتيجة للنكبة

أقول نجم النفوذ البريطاني وصعود نجم النفوذ الأمريكي
تذبذب الموقف السوفيتي

عمل لجنة التوفيق الدولية وردود فعل

موقف الاتحاد السوفيتي من لجنة التوفيق

المفاوضات السرية وردود فعلها

اغتيال الملك عبد الله

هل حدثت مفاوضات بين مصر وإسرائيل ؟

التصريح الثلاثي ... ظروفه ... وردود فعله

موقف الاتحاد السوفيتي من التصريح الثلاثي وإسرائيل عام ١٩٥٠

الفصل الثاني :

قصور نظام الهدنة وحوادث الحدود

هيئة الرقابة على الهدنة التابعة للأمم المتحدة

حوادث الحدود في القطاع الأردني

حوادث الحدود في القطاع السوري

مصر وإسرائيل بعد اتفاقيات الهدنة

من بروز عبد الناصر إلى حوادث الحدود

سياسات الحكومة العربية

الفصل الثاني :

النزاع حول مياه نهر الأردن وردود فعله

تعمير النقب كهدف قومي

مؤتمر القمة العربي الأول وردود فعله

مؤتمر القمة العربي الثاني وردود فعله

ألمانيا بين إسرائيل والعرب

مقترحات الرئيس بورقيبة وردود فعلها (قنبلة السلام التونسية)

مؤتمر القمة العربي الثالث وردود فعله

حركة التحرير الفلسطينية (فتح) " ظروف تكوينها ... نشاطها الفدائي وردود الفعل "

منظمة التحرير الفلسطينية والاستقطاب العربي

موقف الاتحاد السوفيتي من القضية الفلسطينية (سنة ١٩٦٧) ... قبلها ... بعدها

المفاوضات السرية وردود فعلها

اغتيال الملك عبد الله

هل حدثت مفاوضات بين مصر وإسرائيل ؟

التصريح الثلاثي ... ظروفه ... وردود فعله

موقف الاتحاد السوفيتي من التصريح الثلاثي

موقف الاتحاد السوفيتي من القضية الفلسطينية (سنة ١٩٦٧) ... قبلها ... بعدها

موقف الاتحاد السوفيتي من القضية الفلسطينية (سنة ١٩٦٧) ... قبلها ... بعدها

موقف الاتحاد السوفيتي من القضية الفلسطينية (سنة ١٩٦٧) ... قبلها ... بعدها

موقف الاتحاد السوفيتي من القضية الفلسطينية (سنة ١٩٦٧) ... قبلها ... بعدها

موقف الاتحاد السوفيتي من القضية الفلسطينية (سنة ١٩٦٧) ... قبلها ... بعدها

موقف الاتحاد السوفيتي من القضية الفلسطينية (سنة ١٩٦٧) ... قبلها ... بعدها

موقف الاتحاد السوفيتي من القضية الفلسطينية (سنة ١٩٦٧) ... قبلها ... بعدها

موقف الاتحاد السوفيتي من القضية الفلسطينية (سنة ١٩٦٧) ... قبلها ... بعدها

موقف الاتحاد السوفيتي من القضية الفلسطينية (سنة ١٩٦٧) ... قبلها ... بعدها

موقف الاتحاد السوفيتي من القضية الفلسطينية (سنة ١٩٦٧) ... قبلها ... بعدها

موقف الاتحاد السوفيتي من القضية الفلسطينية (سنة ١٩٦٧) ... قبلها ... بعدها

الباب الرابع

حرب يونيو سنة ١٩٦٧ وأبعاد الكارثة

الفصل الأول :

خلفية الحرب

موقف الدول العربية تجاه العمل الفدائي الفلسطيني

تصاعد الأخطار

أولاً : على الجانب الإسرائيلي

ثانياً : على الجانب العربي

المذكرة السوفيتية لإسرائيل

إسرائيل والاندفاع نحو الحرب

ردود الفعل الإسرائيلي بعد إغلاق مضيق تيران

رد الفعل العربي بعد إغلاق مضيق تيران

أبعاد الكارثة ومؤشرات التواطؤ

الباب الخامس

تطورات مشكلة فلسطين بعد حرب يونيو ١٩٦٧

- نشاط مجلس الأمن
- الدورة الطارئة للجمعية العامة
- ضم مدينة القدس وردود الفعل
- الحوادث على جبهة القتال وردود فعلها
- اللاجئين الفلسطينيون بعد حرب يونيو
- أطماع إسرائيل والصهيونية بعد الحرب
- المعتدلون والمتطرفون من العرب
- مؤتمر القمة العربي الرابع في الخرطوم (٢٩/٨/٦٧ - ٢/٩/١٩٦٧) ظروف انعقاده وردود فعله
- قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧ - ظروف صدوره وردود فعله.

المراجع

- أولاً : الوثائق العربية
- أ. الوثائق غير المنشورة
- ب. الوثائق المنشورة
- ثانياً : وثائق باللغة الإنجليزية
- ثالثاً : المراجع العربية
- رابعاً : كتب وبحوث باللغة الأجنبية
- خامساً : الدوريات ووكالات الأنباء
- أ. الصحف والمجلات العربية
- ب. الصحف والمجلات باللغة الأجنبية
- ج. الإذاعات ووكالات الأنباء العربية
- د. الإذاعات ووكالات الأنباء الأجنبية
- سادساً : أحاديث ومقابلات وندوات
- الصراع العربي الإسرائيلي، فترة الدراسة، في خرائط
- وسوف نستعرض الكتاب في تفصيل غير قليل بدءاً بالبواب الأول وعنوانه : موقف طرفي النزاع والدول الكبرى حتى إبريل ١٩٤٨ وردود الفعل الموقف العربي والأوضاع السياسية في فلسطين في هذه الفترة وانعكاساتها على الرأي العام العربي، فمنذ اندلاع الثورة الوطنية في فلسطين سنة ١٩٣٦ والفترة اللاحقة أو على حد قول بعض المستشرقين "اندلاع الحرب الأهلية" والسلطات البريطانية تقوم بتشتيت الزعماء العرب بنفيهم أو ترحيلهم أو جعلهم تحت الرقابة الدقيقة في فلسطين، ومنعهم من القيام بأي نشاط سياسي، ولم تبدل الحكومة البريطانية "دولة الانتداب" أي محاولة لمصادقة أولئك الفلسطينيين البارزين والفوز بتأييدهم، الأمر الذي أدى إلى ازدياد كراهية السكان العرب للإنجليز، ومن هنا شعرت بريطانيا باستحالة إهمال الرأي العام العربي، فحظيت المشكلة الفلسطينية باهتمام بريطاني التي كانت أيضاً بحاجة إلى تأمين الاستقرار في وجه حركة صاعدة من القومية

العربية التي طالبت بإنشاء دولة فلسطين مستقلة، وهو ما أسى تقديره من جانب الصهيونيين والبريطانيين على السواء، حيث أن كثيراً من الصهيونيين رأوا في الوجود البريطاني ذلك المحرك الرئيسي للقومية العربية، بل إن بعض الساسة العرب أنفسهم قد أيدوا التفسير القائل بأن القومية العربية في الدرجة الأولى حركة مناوئة للاستعمار وتأتي معاداتها للصهيونية في المقام الثاني فقط.

وقد استأثرت مشكلة فلسطين باهتمام الجامعة العربية منذ نشأتها، وانعكس ذلك على الملحق الخاص بفلسطين، حيث اعتبرت فلسطين من الأقاليم العربية التي لها حق الانضمام لجامعة الدول العربية بعد أن تصبح دولة مستقلة.

وبخصوص دور الجامعة العربية في المشكلة الفلسطينية آنذاك، فقد كانت أقوى أداة سياسية أمكن للعرب الحصول عليها منذ أن تحرروا، وقد تكونت بذلك عقب مارس ١٩٤٥ مجموعة من الدول الأعضاء في أعلى المنظمات الدولية، وتولت الدفاع عن فلسطين بدلاً من "الجاليات" الفلسطينية المحلية.

ولعل أكبر ما حققته الجامعة العربية تجاه المشكلة الفلسطينية في ذلك الحين، أنها اعتبرت المسؤولية تجاه فلسطين هي مسؤولية الأمة العربية كلها، وليس مسؤولية الشعب الفلسطيني وحده حيث شاركت الجامعة منذ عام ١٩٤٥ في كافة الأنشطة التي اقتضتها تطورات المشكلة بإمكانات وظروف الواقع العربي.

أما الطرف الثاني في النزاع وهو الصهيونية فسوف نتناول فيه بدء الإرهاب في فلسطين ومساره، وكيف تحولت الصهيونية إلى الولايات المتحدة؟ وكيف جاء تركيز الصهيونية في هذه الفترة على إيجاد قوة عسكرية في فلسطين؟ وكيف تم الضغط لفرض الدولة الصهيونية في الفترة ١٩٤٥ - ١٩٤٧، ونغمة يهود أوروبا المشردين وقضية الاضطهاد التي كانت في جوهرها قضية أوروبية بحتة ولفرط الأسى أن الشعب الفلسطيني هو الذي دفع ثمن هذا الاضطهاد.

ففي أعقاب الحرب العالمية الثانية خطى الصهيونيون خطوات واسعة للإمام وكان بينهم أقليات عاملة تنتمي للمجموعات البيئية المتطرفة وقررت أن تبدأ العمليات الإرهابية ضد بريطانيا التي كانوا يعتبرونها بمثابة دولة مستعمرة، وكانت

منظمة أرجون هي الأولى الرائدة في ميدان النشاط الإرهابي، وهي المتفرعة عن الحزب الذي انفصلت عنه مجموعة "شترن"، وقد سيطرت العناصر المتطرفة ممثلة في يهود فلسطين والولايات المتحدة على الحركة حيث انتقل ثقل الصهيونية إلى الولايات المتحدة.

وعلى أرض فلسطين ذاتها استفادت الهاجاتاه من ظروف الحرب العالمية الثانية حيث نشأ تعاون أوثق بينها وبين السلطات العسكرية البريطانية.

كذلك كانت الوكالة اليهودية قد قدمت مذكرة لمؤتمر سان فرانسيسكو في مطلع مايو ١٩٤٥ ضمنيتها برنامجاً من خمس نقاط بقصد "الحفاظ على الحقوق القومية اليهودية في فلسطين".

وفي الوقت نفسه كانت قوات البالماخ قد نفذت سلسلة من العمليات الإرهابية بالاشتراك مع الهاجاتاه، اشتون، الأرجون وآخرها نسف الجسور الرئيسية التي كانت بين فلسطين والدول المجاورة وخطوط السكك الحديدية والمطارات وشبكات الرادار، وهي العمليات التي أثارت حقن السلطات البريطانية ودفعتها إلى اتخاذ إجراءات مضادة؛ وذلك باعتقال زعماء الحركة اليهودية وحاولت الوكالة ومنظمتها العسكرية الهاجاتاه الاتصال من هذه الأعمال الإرهابية.

واتخذ الاستعمار الصهيوني في فلسطين في هذه الفترة إجراءات لتسهيل الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتشجيعها واستمر تدفق الأفواج اليهودية على فلسطين سواء برضا دولة الانتداب وموافقتها أو بدون موافقتها وبدون رضاها.

وفي أغسطس ١٩٤٦ أعلنت الحكومة البريطانية أنها لن تسمح في المستقبل بدخول المهاجرين الجدد، ودعت إلى عقد مؤتمر في لندن لمناقشة المشكلة برمتها وقد عقد المؤتمر في أواخر سبتمبر ١٩٤٦ ولكن بحضور مندوبي الدول العربية فقط.

التي أعلن قيامها في ١٣ نوفمبر ١٩٤٥ يعد في حد ذاته خطوة جديدة لتأييد الصهيونية ففي الماضي كانت بريطانيا تشكل لجاناً ملكية، إثر وقوع أية اضطرابات في فلسطين، أما في هذه المرة فقد تكونت اللجنة الإنجليزية الأمريكية، وكان ذلك منعطفاً حاسماً في السياسة البريطانية.

ثم جاء تقرير اللجنة عادياً فارغاً، محتوياً على توصيات أهم ما فيها كان معروفاً سلفاً من الجميع، فقد كان ترومان يطالب بهجرة مائة ألف من اليهود بينما بيّن يطالب بفلسطين بلداً عاماً مشاعاً غير مقسم، وقد أخذت اللجنة بهاتين الرغبتين في تقريرها، وما أن أذيعت توصيات اللجنة حتى ساد الغليان في أرجاء العالم العربي وساد السخط العلني والنقمة فأضربت المدن في فلسطين وفي غيرها من البلاد العربية.

أما اليهود فقد رحبوا بتوصيات اللجنة وطالبوا بسرعة تنفيذها وخاصة تلك التي تتعلق بالهجرة والأراضي ثم وجه البيشوف (الهيئة الحكومية اليهودية في فلسطين) عن طريق الهاجاناه ضربات قاصمه في الفترة من ١٦ - ١٨ يونيو، حيث تم نسف عدد من الجسور التي تمر عليها الطرق العامة وخطوط السكك الحديدية، واختطفت عصابة الأرجون ستة من الضباط الانجليز، في حين عمدت عصابة شتيرن إلى مهاجمة ورش السكك الحديدية وذهب معلق صحيفة The Jewish Standard إلى حد تحذير الشعب البريطاني من مخاطرة الدخول في نوع من الحرب مع الشعب اليهودي. وأراد البريطانيون الخروج من هذا المأزق لا سيما بعد أن دمر اليهود فندق الملك داود في مدينة القدس في ٢٢ يوليو ١٩٤٦ وكان فيه مقر هيئة أركان حرب الجيش البريطاني - فأعلن البريطانيون أنهم سيتخذون خطوتين، فمن جهة أعلنوا عن اعتزامهم عقد مؤتمر مائدة مستديرة يدعون إليها ممثلي اليهود وعرب فلسطين والدول العربية، ومن جهة أخرى أعلنوا مشروعاً جديداً من إعداد الخبراء الانجليز والأمريكتين في لندن عرف باسم مشروع موريسون جرادى.

وفي يناير ١٩٤٧ عاد مندوبو الدول العربية للاجتماع في لندن ورفض الصهيوينيون حضور المؤتمر، ولكنهم في الوقت نفسه قاموا بمباحثات جانبية خارج المؤتمر مع الحكومة البريطانية، ومثل بن جوريون المنظمة الصهيونية العالمية، كما مثل الحكومة البريطانية بيفن، الذي عقد اتفاقية مدتها خمس سنوات يصادق عليها مجلس الوصاية في الأمم المتحدة، ويتم بموجبها إنشاء نظام للإدارة المحلية للمناطق العربية والمناطق اليهودية وتكوين مجلس استشاري عربي يهودي يساعد المندوب السامي في الإدارة والسماح بالهجرة اليهودية بمعدل ٤٠٠٠ مهاجر شهرياً لمدة سنتين والتمهيد لإنشاء دولة فلسطينية ثنائية مستقلة.

وقد رفض الرأي العام العربي هذه الاقتراحات كما رفضها اليهود، وهكذا جاء عام ١٩٤٧ ليشهد تضافر الجهود الصهيونية ووقوفها صفاً واحداً في سبيل تحقيق حلم هرتزل ونوردو ونقل تعليم جابوتنسكى إلى صعيد الواقع العملي بإصرار ثابت من المنظمة الصهيونية على متابعة السعي في سبيل الوطن القومي اليهودي وفرض الدولة اليهودية المستقلة.

أما عن نغمة اليهود المشردين التي عزفت عليها الصهيونية في هذه الفترة، فالملاحظ أن الحركة الصهيونية قد اتخذت من جرائم هتلر مع اليهود ذريعة لكسب عطف الرأي العام العالمي تجاه المشكلة اليهودية في أوروبا.

وفيما يتعلق بمواقف الدول الكبرى، فالملاحظ أن تاريخ هذه الفترة من مشكلة فلسطين؛ هو تاريخ معقد أشد التعقيد، حيث الطابع المميز لها في العلاقات الدولية هو الخلافات المتواتره في صفوف العرب وحالات التحول المتكررة من جانب البريطانيين والأمريكيين، ثم تأتي الصورة السوفيتية لتجعل تاريخ هذه الفترة من أعقد الأمور حيث لا توجد دراسة جادة تعرضت لموقف السوفيت من مشكلة فلسطين في هذه الفترة - إلا أحجبت عن تقديم تقييم علمي عن الصورة السوفيتية، وبخصوص موقف بريطانيا تنسم هذه الفترة بتملصها من تحمل مسؤولية المشاركة الفلسطينية.

وكانت وزارة المستعمرات هي المختصة بمعالجة المشكلة الفلسطينية وذلك إلى جانب وزارة الخارجية التي كان لها هي الأخرى الدور الأساسي منذ أن حاولت بريطانيا إشراك الولايات المتحدة في المسؤولية، على أن إشراك هذه الأخيرة في لجنة التحقيق

غير أن الموقف العربي الراض لهذا المشروع عموماً كان له تأثير على البريطانيين، إذ أنهم وجدوا أنفسهم مهددين بالاصطدام بالشرق العربي كله؛ نتيجة لتعضيدهم مشروع موريسون، فأعلن الإنجليز عدم تمسكهم بهذا المشروع، كذلك رفضت الحكومة الأمريكية التصديق على هذا المشروع في أغسطس ١٩٤٦، أما الصهاينة فقد أحسوا بالتوجس عند إعلان هذا المشروع من جانب بريطانيا حيث بدا لهم وكأنه تأكيد لنية بريطانيا في البقاء في فلسطين. وعند هذا المنعطف كان النفوذ البريطاني أخذ في الأفول، يقابله على الجانب الآخر ارتفاع في النفوذ الأمريكي الذي غدا أفضل تطلعا للصهيونية، لتدعيمها نحو إقامة دولة يهودية في فلسطين، وهو الأمر الذي يدعونا لمناقشة دور الولايات المتحدة في هذه الفترة.

فابتداء من عام ١٩٤٣ وجدت أمريكا نفسها مشتركة في المشكلة الفلسطينية على أثر ما أعرب عنه الصهاينة من طلبات ملحة، وكان الكونجرس منغمساً في تأييده للصهيونية، أما وزارة الحرب فكانت ترى ضرورة مراعاة جانب العرب. وكان خبراء البيت الأبيض وخبراء وزارة الخارجية قد نصحوا الرئيس الأمريكي ترومان بعدم إصدار تصريح ترومان حول تهجير مائة ألف يهودي إلى فلسطين فوراً، غير أن ترومان لم يلتفت إلى تلك النصائح؛ نظراً لتداخل عدة عوامل جعلت ترومان يتحول إلى سياسة التحيز التي اشتهر بها ومنها مطالبة ثمانية وثلاثون حاكماً من حكام الولايات المتحدة بفتح باب الهجرة لليهود.

وينبغي أن نشير ونحن بصدد عرض دور الدول الكبرى عموماً إلى الموقف السوفيتي تجاه المشكلة الفلسطينية، وهو ما يعتبر مسألة بالغة التعقيد إن لم تكن من أعقد الأمور حيث لا توجد دراسة جادة تعرضت لهذه النقطة إلا وأحجمت عن تقديم تقييم علمي عن الصورة السوفيتية تجاه المشكلة الفلسطينية فضلاً عن تضارب هذه الصورة كما يتضح مما يلي :

يجب أن نسلم منذ البداية بأن الصورة السوفيتية عن الحركة الصهيونية قد تأثرت بالتقييم الأيديولوجي المعادي لها، وقد تغيرت هذه الصورة في الفترة من دخول الإتحاد السوفيتي الحرب العالمية الثانية وحتى إنشاء دولة إسرائيل نتيجة لعدة

عوامل، العوامل الداخلية في بنية الحركة الصهيونية وهي التي تشير إلى فكرة الصهيونية الاشتراكية التي قامت في فلسطين وتحمل ملامح اشتراكية تتمثل في الأسس الجماعية للإنتاج الزراعي اليهودي في فلسطين، ووجود جناح يساري قوي داخل الحركة الصهيونية، والعوامل الخارجية التي تعتمد على الدور الذي لعبته الصهيونية ضد النازية أولاً ثم ضد بريطانيا في فلسطين، ثانياً الآفاق المحتملة لعلاقات الصهيونية مع الاتحاد السوفيتي فيما لو قامت دولة يهودية في فلسطين.

وعموماً فليس في متناول المؤرخ أن يدلي برأي قاطع بأن هذه المحاولات قد أثمرت في تغيير الصورة السوفيتية عن الحركة الصهيونية في مواجهة الصورة العربية بحيث تكون الأولى أفضل من الثانية، وتكون الدولة اليهودية المستقبلية من ثم بديلاً للوجود البريطاني في فلسطين أفضل من دولة عربية ترث حكومتها العمالة البريطانية واضطهاد الشيوعيين.

ثم جاء قرار بريطانيا في عرض المشكلة الفلسطينية على الأمم المتحدة لتقرر وتقرض الحل الذي تراه وذلك في مذكرة مرسلّة إلى الأمين العام للأمم المتحدة في ١٩٤٧/٤/١ تطالب عقد دورة خاصة لانتخاب لجنة تحقيق جديدة، وقد وافقت الجمعية العامة واقرعت يوم ١٥ مايو ١٩٤٧ على تكوين لجنة تحقيق خاصة تابعة للأمم المتحدة عرفت باسم U.N.S. C.O.P. وشكلت اللجنة من (١١) دولة استبعد منها الاتحاد السوفيتي وهو دليل على ما اعتزمته الولايات المتحدة من استبعاد السوفييت عن الهيئات السياسية والفنية المعنية بالمشكلة الفلسطينية منذ ذلك الحين، والتي قد تقوم بدور جوهري في تقرير مصير فلسطين.

ووجدت هذه اللجنة نفسها أمام حلول أربعة أما الاحتفاظ بفلسطين في ظل الوصاية، وأما إقامة دولة موحدة في فلسطين، وأما إقامة دولة اتحادية فيها وأما تقسيم فلسطين، وبالرغم من أن قرار الجمعية العامة يوم ١٥ مايو ١٩٤٧ كان يقتصر على أن عمل اللجنة خاص بالمشكلة الفلسطينية فقط، إلا أن اللجنة كانت أميل إلى الصهيونية، بدليل أنها رأت توسيع نطاق مهمتها ليشمل أحوال اليهود المشردين في أوروبا.

نكبة عام ١٩٤٨ ونتائجها :

في يوم ١٥ مايو ١٩٤٨، ولما تنفضي بضع ساعات على انتهاء الانتداب وعلى اجتياز الجيوش العربية للحدود الفلسطينية، عمدت الأمم المتحدة إلى إلغاء اللجنة الخماسية وإلى اتخاذ قرار بتعيين وسيط دولي تكون مهمته " تصفية الوضع بالطرق السلمية ".

وكان تقرير برنادوت شاملاً لمشكلة فلسطين، وقد عرض على الجمعية العامة للأمم المتحدة في نهاية سبتمبر ١٩٤٨، وتضمن اقتراحات محددة للتسوية مع تعديل بعض المناطق لأسباب جغرافية وعلاج مشكلة اللاجئين وعودتهم من أراضيهم وأن تبقى القدس تحت إشراف الأمم المتحدة .

أما الدول العربية فد عادت تخشى من ردود فعل هزيمة جيوشها لدى جماهير شعوبها، فلقد أكدت الحكومات العربية من قبل أن مسألة القضاء على إسرائيل ليست سوى لون من اللعب، ولم يعد إذن في استطاعة الشعوب العربية أن تدرك أسباب الفشل التي حالت دون الوصول إلى هذا الغرض .

وقد أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة توصيات عدة حول قضية فرعية دون أن يكثر أحد لتنفيذها ألا وهي مشكلة القدس التي ظهرت فكرة تدويلها مع مشروع قرار تقسيم فلسطين .

وعندما تسابقت دول العالم للاعتراف بدولة إسرائيل، أعلن اليهود أنهم لن يتخلوا عن القدس، وعموماً فقد ساد مبدأ الأمر الواقع في مدينة القدس حيث استولى الملك عبدالله على المدينة القديمة.

وإزاء الضغط الدولي المتزايد أكدت الأمم المتحدة في نهاية ١٩٤٨ قرارها السابق بتدويل القدس، غير أنها فشلت في تطبيق مبدأ التدويل وأعلنت إسرائيل أن القدس عاصمة رسمية، ونقلت إليها معظم مصالحها الحكومية ووزارة الخارجية، واستجابت بعض الدول فنقلت سفاراتها إلى القدس ما عدا الدول الكبرى التي احتفظت بسفاراتها في تل أبيب.

وعموماً فقد أنهت اللجنة عملها وقدمت تقريرها من ستة أبواب وتضمن الباب الخامس توصياتها لحل المشكلة الفلسطينية، وجاء هذا التقرير مخيباً لكل آمال العرب في وجود عدالة حتى في الأمم المتحدة .

وما أن نشر تقرير اللجنة الدولية حتى قامت الهيئة العربية العليا برفضه واستنكاره، وقررت الجامعة العربية إرسال مذكرة احتجاج إلى كل من الولايات المتحدة وبريطانيا، ثم عرضت مشكلة فلسطين على الجمعية العامة في مستهل دور اجتماعها العادي في ١٦ سبتمبر ١٩٤٧ فقررت إنشاء لجنة خاصة للمشكلة الفلسطينية اقتضت مهمتها على دراسة تقرير لجنة التحقيق .

وفي نهاية الأمر، حينما تأكد الأمريكيون من أن البريطانيين لم يعودوا يرغبون في تحمل أية مسئولية في فلسطين اقترحت اللجنة وضع حد للانتداب على أن تسحب القوات البريطانية من فلسطين يوم أول مايو ١٩٤٨ وعلى أن يعلن استقلال الدولتين اليهودية والعربية في يوم أول يوليو التالي .

وكتب المؤرخ جورج كيرك في هذا الصدد قوله :

" إن التقسيم ما كان ليتم التصويت عليه أبداً في أي مكان آخر غير نيويورك، تلك المدينة التي تمارس فيها الصهيونية سلطاتها الكاملة " .

ثم صدر قرار التقسيم، وعارضته جميع الدول الأفروآسيوية، بخلاف الدول الكبرى الذي أيدته وكانت أهم فقراته تلك تنص على ألا يتأخر قيام الدولتين المستقلتين اليهودية والعربية، وكذا النظام الخاص بمدينة القدس عن أول أكتوبر ١٩٤٨ .

غير أن ردود الفعل جاءت عنيفة خاصة في الفترة من صدور قرار التقسيم حتى ١٥ مايو ١٩٤٨ ليس على الجانبين الصهيوني والعربي فحسب وإنما أيضاً شملت ردود الفعل لهذا القرار مواقف الدول الكبرى خاصة بريطانيا والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي .

وهكذا تمثل نكبة عام ١٩٤٨ موضوعاً للدراسة لا غنى عنه لأي باحث يريد استيعاب تعقيدات مشكلة فلسطين، وأول ما يلاحظ أن القادة والجنود السياسيين والكتاب والصحفيين بالإضافة إلى المواطن العربي العادي، لم يكن لهم احتكاك بالجالية اليهودية في فلسطين، ومن ثم كانت لديهم فكرة باهتة عن تركيبه وتنظيماته وإنجازاته وقوته.

وفي مواجهة إسرائيل بصلابتها كانت الدول العربية تقف في جبهة مفككة يعوزها التنظيم وتفتقر إلى الوحدة، رجال السياسة فيها عاجزون وركبتهم الأوهام، أما الجيوش العربية فقد كان تكوينها أصلاً على أساس القيام بالعمليات البوليسية، وبغرض إظهار السيطرة المظهرية فقط.

ولم تكن حرب فلسطين من الحروب العادية اختياراً حراً للقوة؛ ولكنها كانت تتخللها الهدنة وإيقاف النار الذي يفرض عليها من الخارج. ولعل أهم نتائج نكبة عام ١٩٤٨ هي بلورة التفرق العربي Crystallization of Arab Disunity كما عبر عن ذلك Nadan Safran وهو يشير إلى أن الخلافات العربية قد بدأت أثناء الحرب ذاتها.

كذلك فقد أخفى المسئولون العرب الموقف العسكري عن الرأي العربي ثم عادوا واتخذوا مواقف صلبة عند شعوبهم بهدف بقائهم السياسي. والخلاصة أن نكبة فلسطين قد تركت أثراً عميقاً لدى الرأي العام العربي بأكمله، بل إن أي قدر من الدعاية لا يمكن أن يخفي ما عانته الشعوب العربية من خزي الهزيمة.

أما الباب الثاني فقد عالج تطورات مشكلة فلسطين من اتفاقيات الهدنة ١٩٤٩ إلى العدوان الثلاثي.

فخلال السنوات السبع التي تلت إبرام اتفاقيات الهدنة من ١٩٤٩ إلى ١٩٥٦، استمرت المشكلة الفلسطينية عموماً، والصراع العربي الإسرائيلي على وجه الخصوص ظهر في مجالين :

المجال الأول : هو المجال السياسي؛ حيث حاولت الأمم المتحدة عبثاً أن تحمل كل من العرب والإسرائيليين على قبول التسوية السلمية للخلافات الناشبة بينهما ، وبعد ذلك حاولت الأمم المتحدة أن تجد المسكنات لهذه الخلافات.

المجال الثاني : هو الأرض نفسها على طول خطوط الهدنة حيث تكررت الحوادث التي أخذت تزداد عنفاً يوماً بعد يوم، إلى أن انتهت بالعودة إلى الحرب صراحة.

وقد تحددت سياسة إسرائيل - عقب الاعتراف بها - تجاه الدول العربية بعاملين اثنين : الأهداف الإقليمية للحركة الصهيونية لم تتحقق بعد، والثاني الشعب الفلسطيني لم يستسلم أبداً لتشريده من وطنه.

وتوصلت القيادة الإسرائيلية إلى استنتاج وهو أن البراعة العسكرية الفائقة هي وحدها الكفيلة بحمل الدول العربية على القبول بإسرائيل.

وتتميز الفترة الممتدة من عام ١٩٤٨ - ١٩٥٤ بتطوير المؤسسات الإسرائيلية وبناء قوة عسكرية قادرة على إنزال هزيمة بالعرب. أما الدول العربية فقد انعكفت هي الأخرى خلال هذه الفترة على علاج مشكلاتها الداخلية وكانت في حالة انكفاء ذاتي حيث قامت تحت تأثير الصدمة، بتبديل نظام الحكم فيها أو بتغيير حكامها القدامى وخاصة في الدول التي تشترك مع إسرائيل في حدودها.

ولم تقتصر آثار حرب فلسطين على إشاعة الاختلال في توازن الدول العربية؛ وإنما أصابت أيضاً بريطانيا التي أخذ نفوذها في الزوال من العالم العربي، واستسلمت طائفة لاعتراضات الولايات المتحدة ولم تستطع بريطانيا بعد ذلك منع الإتحاد السوفيتي من التدخل في المشكلة الفلسطينية .

وقد حاولت الولايات المتحدة في الفترة ما بين ١٩٥٣-١٩٥٥ أن تسترضي العرب بتصريحات تشير إلى حلول قضية اللاجئين وهي قضية فرعية من المشكلات الفلسطينية.

وليس من أغراض هذا البحث دراسة الآثار التي خلفتها الهزيمة التي نزلت بمصر عسكرياً أو النجاح الدبلوماسي الذي حققته مصر على مواقف كل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وبكفي أن نتعرض لنتائج قضية السويس على المشكلة الفلسطينية فقد كسبت إسرائيل فرصة استخدام خليج العقبة بعد أن كان محظوراً عليها بموجب بنود اتفاقيات الهدنة المصرية - الاسرائيلية، وحصل الاسرائيليون أيضاً على ميزة لا يستهان بها؛ وهي نزع سلاح تيران وشرم الشيخ ومراقبة هذه المواقع بمعرفة قوة الطوارئ الدولية.

وبالنسبة لقضية فلسطين - وهي ليست بأقل حيوية لأنها قضية عربية عامة - فيمكن القول أن غياب استراتيجية عربية فضلاً عن عدم التنسيق وتعدد السياسات العربية جعل مصر تخرج خاسرة من هذه الناحية.

وقد استمر العرب يتجاهلون الهزيمة التي حاقت بهم، وحيال الرأي العام العربي، عبد الناصر كبطل تمكن من قهر دولتين كبيرتين، أما اليهود فقد اكتفى العرب بالنظر إليهم كمجرد مطية ومخلب للاستعمار يسبرون في ركابهم ويتعلقون بغيرهم كالطفيليات ويستغنون عمل غيرهم.

أما البابان الثالث والرابع فقد جاءا تحت عنواني : تطورات مشكلة فلسطين من إتفاقية الهدنة ١٩٤٨ إلى العدوان الثلاثي ثم من انسحاب قوات العدوان الثلاثي إلى حرب يونيو ٦٧.

فقد تعرض للمشكلة الفلسطينية من حيث أنها اقتضت عموماً وكذا النزاع العربي الإسرائيلي على وجه الخصوص بعد العدوان الثلاثي على استخدام الحرب الباردة وأخذت القرارات تتوالى عاماً بعد آخر أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة تدعو الطرفين إلى تسوية ما بينهما من نزاع بالطرق السلمية، وإلى إيجاد الحل الملائم لمصير اللاجئين الفلسطينيين، غير أن العناد الاسرائيلي ظل مستحكماً، واستمرت إسرائيل تركز سياستها الخارجية لخدمة أمنها القومي عن طريق الحصول على أحدث الأسلحة والمعدات اللازمة لتطوير جيشها، واتجهت إسرائيل إلى الولايات المتحدة عارضة عليها تقديم موانئها ومطاراتها كي تستعمل كقواعد عسكرية

وبينما أيد السوفييت في عامي ١٩٤٧، ١٩٤٨ حق يهود العالم في العودة إلى فلسطين، لم يكن من الواضح حتى ١٩٥٦ أنهم متحمسون كثيراً للحديث عن حق عرب فلسطين في العودة إليها أو حتى التعويض وفقاً لقرارات الأمم المتحدة.

ومن جهة أخرى أفادت إسرائيل من جلسات مؤتمر لوزان الذي قامت لجنة التوفيق الدولية - المكلفة من الأمم المتحدة - في بيروت لدراسة فروع المشكلة الفلسطينية وأفادت إسرائيل من ذلك لكي تصل إلى عضوية الأمم المتحدة في ١٢ مايو ١٩٤٩، وهو نفس اليوم الذي وقعت فيه اتفاقية لوزان وأعلنت إسرائيل في هذه الاتفاقية استعدادها لاحترام قرارات الأمم المتحدة وقبول التقسيم وقبول وضع نظام دولي للقدس وقبول عودة اللاجئين العرب أو تعويضهم، غير أن إسرائيل سرعان ما غيرت موقفها.

كذلك فقد ظل مواقبو الأمم المتحدة كما ظلت لجان الهدنة لمدة سبع سنوات الحائل الوحيد الفاصل بين الشعوب العربية واسرائيل وكان حائلاً هشاً ضعيفاً.

وفي خلال هذه الفترة ظهر عبد الناصر في مصر وبرز كقوة حقيقية صانعة للوحدة العربية، غير أن حادث الهجوم على غزة عام ١٩٥٥ جاء كنقطة تحول في سياسة عبد الناصر الذي شعر بجرح عميق وأيقن جدياً أن استراتيجية إسرائيل هدفها العنف والتوسع تجاه العرب.

وتأتي بعد ذلك الأداة السياسية في أيدي الحكومات العربية وهي الجامعة العربية وأجهزتها المتخصصة مثل مكتب المقاطعة، وكانت الجهود الدبلوماسية للجامعة العربية غير كافية للتأثير على الحكومات العربية أو الرأي العام العالمي. أما سياسات الدول الغربية في هذه الفترة فجاءت مؤيدة لإسرائيل اعتباراً من عام ١٩٥١.

وقد يكون ذا مغزى أن هذه الفترة شهدت المفاوضات المصرية مع الغرب لتمويل مشروع السد العالي، وبالرغم من أن هذا الموضوع وما يتصل به لا يتعلق بصلب هذا البحث مباشرة إلا أن له علاقة بالمشكلة الفلسطينية وتطورها، ومن ذلك تأثير الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة مما دفعها في النهاية إلى سحب تمويل مشروع السد العالي مما جعل مصر والشعوب العربية تتعرض للمهانة والإحراج.

للولايات المتحدة في حالات الطوارئ غير أن الولايات المتحدة كانت تعتبر مشروعاتها الجديد الذي عرف باسم مبدأ أيزنهاور كفيل بتوفير الضمانات التي طلبتها إسرائيل.

وعلى الصعيد الاسرائيلي فقد جاءت الفترة الممتدة من ١٩٥٧ إلى تاريخ قريب لتشهد توطيداً وتوطناً أكثر للكيان الصهيوني في فلسطين . وعلى الجانب العربي استمر العرب يتجاهلون الهزيمة التي حاقت بهم بالنسبة للمشكلة الفلسطينية باعتبارها قضية عربية حيوية، وأكسبت عبد الناصر هالة من المجد بفضل تطوره نحو الحياد وهجومه ضد حلف بغداد ووجوده في مؤتمر باندونج.

وفي هذه الفترة تمت محاولات للوحدة بين العرب أدت بالتالي الى ردود فعل متفاوتة على الرأي العام العربي، وفي إسرائيل أثارت محاولات الوحدة هذا القلق قطاعات الرأي العام الاسرائيلي على اختلاف اتجاهاتها، غير أن هذه المخاوف الاسرائيلية تكشف اعتباراً من الأشهر التالية للوحدة عن أوهام لا أساس لها.

وصولاً إلى ربيع عام ١٩٦٣ حيث كان العالم العربي في الشرق خاضعاً لنظامين يعلن كل منهما أنه يؤيد الاشتراكية، ويعتقدان مبادئ القومية العربية الوحوية وهما حزب البعث في العراق وسوريا، والناصرية في مصر.

وفي الفترة التالية عملت إسرائيل على محاولة توطيئ النقاب وتكثيف السكان به نظراً لأن امتداد النقاب إلى الجنوب هو السبيل الوحيد للوصول إلى خليج العقبة والبحر الأحمر وبالتالي اتصال إسرائيل بإفريقيا وآسيا. وأمام هذا الخطر قدم عبد الناصر دليلاً جديداً على ما تميزت به عبقرية السياسية من مرونة.

واجتمع مؤتمر القمة العربي الأول في القاهرة ما بين ١٣-١٧ يناير عام ١٩٦٤ وقد حدث ما توقعه عبد الناصر، وتقرر أن يكون الرد على ما أقدمت عليه إسرائيل من ضخ مياه الأردن هو تحويل اثنين من روافد هذا النهر إلى كل من نهر اللبطني ونهر اليرموك بهدف حرمان إسرائيل من نصف مياه الأردن.

ويمكن القول إن مؤتمر القمة العربي الأول وما تلاه بعد ذلك من مؤتمرات عقدت بصورة مباشرة من أجل البحث في موضوع تحويل إسرائيل لنهر الأردن ووضع الخطة العربية المضادة قد انتقلت إلى معالجة مشكلة فلسطين بالكامل.

وفي ١٢ مايو ١٩٦٥ تم إقامة العلاقات الدبلوماسية رسمياً بين ألمانيا وإسرائيل وفي اليوم التالي قطعت كل من مصر وسوريا ولبنان والعربية السعودية والأردن والكويت واليمن والجزائر تلك العلاقة، وفي ١٦ مايو اتخذت السودان قرارها بقطع العلاقات مع ألمانيا أما المغرب وتونس وليبيا فقد رفضت الاشتراك في هذا القرار.

ومن هنا ترعرع الترابط بين العرب، وكان التضامن بين أمريكا وإسرائيل يسير في المنحنى الموجب وأدت هذه الأحداث في مجموعها إلى حد مقلق بين العرب وإسرائيل، ونشأت خلال هذه الفترة المحاولات الرامية إلى تخفيف حدة الصراع العربي الاسرائيلي من خارج المنطقة في المقام الأول، غير أن المحاولة الآتية لحل مشكلة فلسطين جاءت من داخل المنطقة ذاتها حيث عرض الرئيس بورقيبة - عقب زيارته مصر والأردن وأرجاء أخرى من الشرق الأوسط - نوعاً من أنواع الحلول للمشكلة الفلسطينية وهو تجميع دول الشرق الأوسط داخل نطاق اتحاد تجد إسرائيل مكانها فيه.

وجاء رد الفعل العربي عنيفاً، فقد ساد الهياج والاحتجاج الرأي العام العربي أما في إسرائيل فذكرت جولدا مائير أنها وجدت زعيماً عربياً لا يتحدث عن الحرب وعن تصفية إسرائيل بل يدعو إلى السلام والتعايش مع إسرائيل. وأعلنت الأوساط الغربية تقديرها لشجاعة الرئيس بورقيبة، غير أن إسرائيل أعلنت رفضها لمشروع بورقيبة.

وهكذا فشلت في عام ١٩٦٥ المحاولة التي قام بها الرئيس بورقيبة والمحاولات الأخرى التي تولدت عنها، وسوف تكشف السنوات المقبلة عما إذا كانت هذه الظواهر حقيقية أو أن هذا الأسلوب الواقعي في تناول مشكلة فلسطين للمرة الأولى كفيل بأن ينير مسلك رجال آخرين من بين ساسة الدول العربية.

وفيما يختص بالعمل الفلسطيني فقد انقسم إلى صيغتين أحدهما منظمة التحرير الفلسطينية والأخرى فتح التي أمدت سوريا لها يد المساعدة الفعلية، ولم تستطع منظمة التحرير الفلسطينية الاستحواذ على رضا سوريا بالرغم من كونها من الدول الثورية، وبالطبع لا يمكن فصل ذلك عن قضية التنافس الشديد بين مصر وسوريا حيث أيدت الأولى منظمة التحرير واتجهت الثانية إلى توجيه تأييدها الرئيسي إلى حركة التحرير الوطني الفلسطيني " فتح " ولكنها لم تنفض يدها عن منظمة التحرير. غير أن مصر في هذه الفترة كانت دون شك تدعو إلى إعطاء مزيد من الاستعداد العسكري تمهيداً لخوض معركة مصيرية شاملة ضد إسرائيل.

وقد أمضت إسرائيل السنوات التالية ١٩٦٥ - ١٩٦٧ في إعادة تقييم لموقفها العالمي وفي محاولات رامية لتعزيز علاقاتها مع الولايات المتحدة.

وثمة عامل آخر أدى إلى تصاعد الأخطار على الجانب الإسرائيلي وهو الحالة الاقتصادية المتدهورة تدهوراً مطرداً في إسرائيل، كذلك فقد عكست مؤتمرات القمة العربية صورة ظاهرية من التضامن العربي نجحت إسرائيل في استغلالها.

أما الهدف الحقيقي من وراء شن الحرب من جانب إسرائيل تجاه العرب فكان هو؛ تدمير الجيوش العربية والتوسع الإقليمي وفرض السلام الإسرائيلي .

ومنذ أوائل عام ١٩٦٧، بدأ التوتر في المنطقة يتخذ أبعاداً جديدة، نتيجة لتحول قادة إسرائيل إلى إعلان التهديد المباشر، وبالفعل فقد تصاعدت الأخطار خلال الربع الأول من عام ١٩٦٧.

ومع تصاعد الأزمة، أرسلت سوريا مذكرة إلى مجلس الأمن محذرة بأن اعتداء إسرائيلياً على سوريا وشيك الوقوع ، وفي هذا المناخ المتوتر تدخلت الدبلوماسية السوفيتية تدخلاً حاسماً حيث كان السوفييت قد أبلغوا كلاً من الحكومتين السورية والمصرية رسالة تقول : إن الجيش الإسرائيلي سوف يقوم بمهاجمة سوريا، وقد لعبت هذه الرسالة دوراً مؤثراً في تطور مشكلة فلسطين والصراع بين العرب وإسرائيل في المرحلة التالية.

وفي يوم ٢١ مايو عام ١٩٦٧ حلت القوات المصرية في شرم الشيخ محل قوات الطوارئ الدولية، وعندما أوضح عبد الناصر قراره بإغلاق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية، أعلن أن السفن الإسرائيلية الحاملة لمواد استراتيجية أو لبتترول والمتجهة إلى إيالات ستمنع أيضاً من المرور في المضيق.

أما الرأي العام العربي فقد وقف كله من وراء عبد الناصر .

وفي إسرائيل جسدت المؤسسة العسكرية الإسرائيلية غلق مصر لخليج العقبة كمشكلة خطيرة للغاية.

وهكذا جاء التضليل الإسرائيلي للعرب ملائماً لكي تقوم إسرائيل بضربتها القاصمة للعرب وجاء عامل المفاجأة الإسرائيلية وتحطيم السلاح الجوي العربي عاملاً من عوامل اندحار الجيوش العربية.

ومن وجهة النظر الأدبية، وجد العرب في الهزيمة التي لحقت بهم الدليل على عجزهم عن الصمود في حرب حديثة، فلقد حاربت القوات العربية عموماً والأردنية منها خصوصاً، غير أن العامل المؤثر حقاً هو القيمة المهنية والخلقية لدى العسكريين وقدرتهم على التحكم في أحداث الأساليب التكتيكية، ومن الملاحظات ذات المغزى في هذا الصدد أن السلاحين في الجيش الإسرائيلي اللذين كان لهما أكبر نصيب في تحقيق النصر؛ هما الطيران والخدمات الخاصة وهما اللذان يستخدمان الأساليب التي لها أكبر نصيب.

والنظرة الواقعية إلى الموقف تؤدي إلى الخروج بنتيجة واضحة وهي أن الجانب العربي لم يحسن القتال في تلك الحرب.

ومنذ يونيو ١٩٦٧ كان الاهتمام الرئيسي للحكومة الإسرائيلية يتجه نحو التأكيد على ادعاءاتها في السيطرة على القدس العربية سيطرة دائمة وتامة، حيث وضع أن هدف إسرائيل هو تهويد القدس تماماً.

وقد اعترض عرب القدس وعرب الضفة الغربية والحكومة الأردنية على هذه الإجراءات التي هي من طرف واحد، وقد أجابت إسرائيل بالصلف والتحدي، فلم تقتصر عن الاستمرار في اتخاذ خطوات إدماج القدس بشكل تام ونهائي، بل

أعلنت صراحة أنها لا تتوي الإصغاء إلى أي نداء من الضمير العالمي، وسارعت إسرائيل في تطبيق قانون أموال الغائبين العرب على القسم المحتل الجديد، وفتحت فيما بعد مكاتب حكومية لها بالقدس، وبأشترت بتسجيل جميع الأموال المنقولة وغير المنقولة التي تخص هؤلاء الغائبين وبموجب هذه العملية الجديدة وضعت سلطات إسرائيل يدها على مساحات واسعة مما تبقى لعرب القدس من أراضي وأماكن، ووضعت أيديها على جميع المدارس الحكومية وأعلنت إخضاعها لبرامج التعليم المطبقة في المدارس العربية في المنطقة المحتلة منذ عام ١٩٤٨، وإحكام عمليتي الضم والتهويد، أقامت سلطات الاحتلال منذ الأيام الأولى عدداً من مراكز الحدود العسكرية والبوليسية والجمركية على الطرق، والمنافذ التي تربط بين القدس والمدن والقرى العربية الملاحقة لها ثم قامت بتهويد الاقتصاد والقضاء، وعمل هويات إسرائيلية بدلاً من تلك الهويات العربية للسكان العرب.

وثمة شيء واحد لم يتساهل نحوه الإسرائيليون في ظل شكل توحيدهم للمدينة وهو وجود زعامة سياسية للعرب منظمة وقائمة بذاتها، محل المجلس البلدي في أمانة القدس العربية وتسريح أمين المدينة (المحافظ) من منصبه، ثم رفض أعضاء المجلس أن يشغلوا المقاعد التي عرضها الإسرائيليون عليهم في المجلس الموحد - كل هذا ترك الجماعة العربية في المدينة دون أية بنية سياسية معترف بها.

وقد تزايدت قائمة ضحايا عرب فلسطين في ٣٠ يونيو ١٩٦٧ طبقاً لتقرير المفوض العام لوكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل الفلسطينيين المقدم إلى الجمعية العامة عن الفترة المنتهية في ٣٠ يونيو - قال المفوض العام للوكالة في تقريره : بأن عدد اللاجئين الذين نزحوا من المناطق التي احتلتها إسرائيل وصل ما بين ٣٥٠,٠٠٠ - ٤٠٠,٠٠٠ لاجيء، وقد ظلت الجمعية العامة للأمم المتحدة تتناقش وتجادل لمدة تزيد عن بضعة شهور ثم انفضت من غير أن تتخذ أي قرار لحل الأزمة.

وأعلن موسى ديان خلال شهر أكتوبر ١٩٦٧ بأن حدود إسرائيل الحالية باستثناء حدودها مع لبنان تعتبر مثالية.

وهكذا أظهر عدوان يونيو ١٩٦٧ بصورة واضحة مدى أبعاد المخطط الصهيوني الواسع الذي وضع منذ سنوات طويلة، وأعدت لتنفيذه سياسات دقيقة استطاعت أن تحشد له أقصى القدرات النسبية التي يمكن أن تحققها دولة، وأن تعبي كلها كافة الطاقات.

كذلك أعطت حرب يونيو حافزاً جديداً لنداء الهجرة، وبالفعل سجلت الهجرة اليهودية بعض الزيادة النسبية في النصف الأخير من عام ١٩٦٧.

وعلى صعيد الدول العربية فقد وضح للعالم العربي بعد يونيو ١٩٦٧ ضرورة توحيد جهوده ولزوم العودة إلى العمل الجماعي العربي.

وفي أعقاب ذلك أصدر مجلس الأمن قراره الشهير رقم ٢٤٢ في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ الذي لعبت فيه بريطانيا دوراً دبلوماسياً بارعاً حيث أخذت من جميع المواقف المتناقضة ومن جميع الاتجاهات التي سادت الأمم المتحدة حتى نوفمبر ١٩٦٧ عناصر زانتها ببراعة ودقة فائدتين انعكستا على صياغة وغايات القرار حيث تجلت في صياغته كل الخصائص الدبلوماسية البريطانية من غموض ومرونة ومراوغة وحكمة، بحيث وافق عليه مجلس الأمن بالإجماع، غير أن التفسيرات حول هذا القرار قد وصلت ليس إلى الاختلاف فحسب بل إلى حد التناقض أيضاً.

أما حركة المقاومة الفلسطينية ممثلة في الدورات المتعاقبة للمجلس الوطني الفلسطيني فقد أعلنت عن رفضها لقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ولكل الصيغ التنفيذية المنبثقة عنه أو المرتبطة به، كان هدف المقاومة الفلسطينية من رفضها لقرار مجلس الأمن هو أنها ترغب في تحرير كامل للتراب الفلسطيني، وإعادة تأسيس الوجود الوطني الموحد للشغل الفلسطيني، وإقامة دولة فلسطينية ديمقراطية بعد تحطيم كيان إسرائيل التوسعي العنصري المرتبط بالاستعمار.

وعموماً فقد أثار قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ردود فعل مختلفة وواسعة في الوقت ذاته من دولة لأخرى . وطوى عام ١٩٦٧ أيامه بإصرار مصر على ضرورة الانسحاب الإسرائيلي وحل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين وتنفيذ القرارات السابقة للأمم المتحدة .

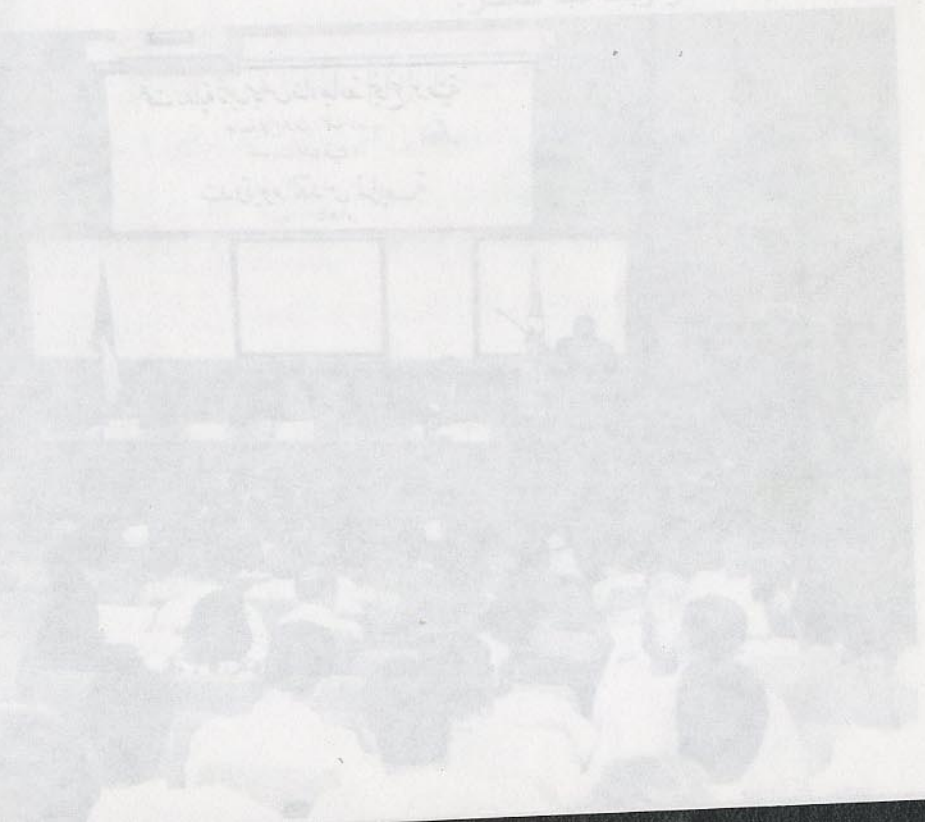
أما حركة المقاومة الفلسطينية فقد أعلنت من جانبها أنها لا تتدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية، وأنها لا تستهدف فصل الضفة الغربية عن الأردن ولا تسعى للحلول محل النظام الأردني وإنما هدفها هو إبراز الشخصية الفلسطينية وتوجيه كل جهودها نحو تحرير فلسطين من الاستعمار الإسرائيلي الصهيوني.

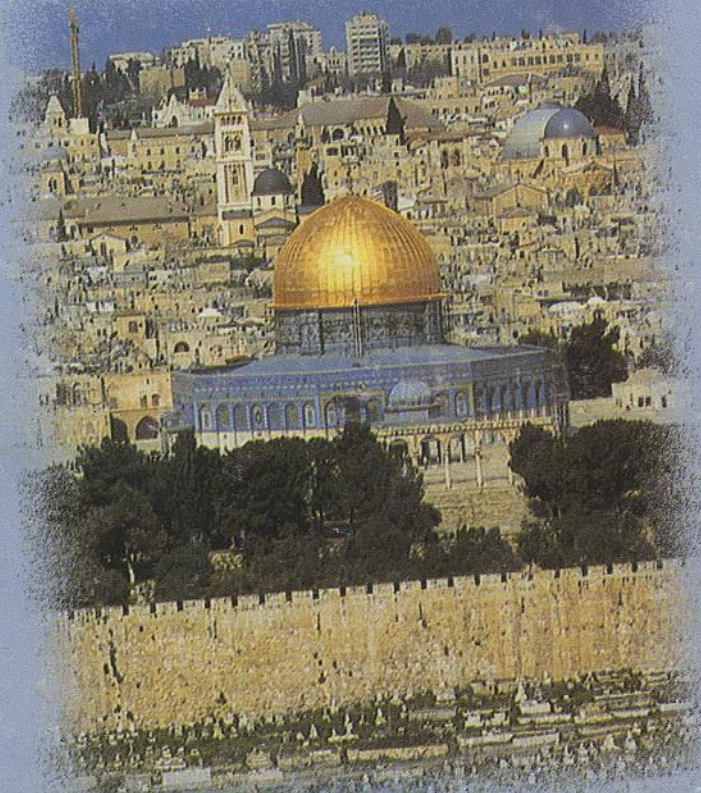
غير أن موت عبد الناصر جاء كحدث عميق في خريف عام ١٩٧٠، أدى إلى ردود فعل رهيبة وقاسية في العالم العربي خاصة، فقد كان عبد الناصر دون شك رمز تحول خطير في الصراع العربي الإسرائيلي، فالذين أحبوا عبد الناصر والذين كرهوه - على السواء - لن يجدوا مفراً وهم يؤرخون ويحللون أبعاد المشكلة الفلسطينية من أن المشكلة الفلسطينية تنقسم قسمة حاسمة إلى مرحلتين : قبل عبد الناصر وبعد عبد الناصر .





في يومه قبل ان يرحل الى القاهرة في اليوم التالي
 ثم من قبله في المصراع العربي الذي كان قد
 والتقى كرهوه - على السواء - ان يجدوا انهم يراهم وحسب
 المشكلة الفلسطينية من ان المشكلة الفلسطينية تقسم لثلاثة اقسام
 قبل عبد الناصر وبعد عبد الناصر.





مكتبة جامعة النجاح الوطنية



NL172737